معركة بورسعيد .. للتاريخ

تأليف

دكتور مصطفى الشكعة   فؤاد لهديه



معركة بورسعيد... للتاريخ

تأليف

الدكتور مصطفى الشكعة

مدرس بكلية الآداب
جامعة عين شمس

فؤاد هدية

بكالوريوس فى الاقتصاد السياسى
عضو بلدية بورسعيد

١٩٥٨

مطبعة لجنة البيان العربى

٥ شارع مصطفى كامل - [illegible] ت ٢٥٥٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عامان مضيا على معركة بور سعيد جنى خلالها العرب كثيرا من الثمرات التى فاضت عليهم خيراً و بركة ، وخلصتهم من كثير من الشرور والشوائب التى كانت عالقة بحياتهم السياسية ، وجمعت ما تفرق من شملهم ؛ فقد آمنوا عن تجربة بأن الاتحاد قوة بعد أن لمسوا ذلك إبان المعركة الكبرى ، ومن ثم أخذت الأقاليم العربية تتجه شيئاً فشيئاً نحو الوحدة والتقارب سواء أكانت هذه الوحدة فى شكل اندماج أو اتحاد فيدرالى أو وحدة الخطة والسياسة والهدف .

ولم يقف الأمر بالعرب عند ذلك بل نبهتهم المعركة إلى المنحرفين من بنى جلدتهم الذين يعيشون بين صفوفهم معاول هدم فى يد الاستعمار يدك بها عزتهم واستقلالهم ، وسياطا يلهب بها ظهور المخلصين من أبناء هذا الوطن ، فما لبث أن انقض عليهم الشعب العربى وألقى بهم بعيدا . . إلى الجحيم ، فعادت إليه سيادته وعزته فى كل مكان من أراضى الوطن العريضة ؛ و إذا كان هناك بعض أعوان الاستعمار لا يزالون يعيشون فى بعض البقاع العزيزة من ديار العرب ، فهؤلاء أمرهم سهل ميسور ، وهم لا يزيدون قيمة عن بعض الفقاقيع التى تظهر فى أعقاب الجثة حينما يلقى بها إلى قاع النهر ثم لاتلبث الجثة أن يأخذها التيار بعيدا ولاتلبث الفقاقيع أن تذهب سريعا .

و إذن فقد ردت معركة بور سعيد إلى العرب كيانهم ومكانتهم وعزتهم و إيمانهم بأنفسهم و بإمكانيتهم ، وأصبحوا شيئاهاما فى المضمار الدولى ؛ والحق أن هذه المعركة ليست إلا حلقة من سلسلة اعتداءات الغرب التى آلى على نفسه أن

يشنها علينا منذ قرون بعيدة ، وكأنه قد أبى إلا أن يناصبنا العداء ، يستبيح أرضنا ويسرق أرزاقنا ، فإذا ما حاولنا أن نعايشه معايشة سلمية وأن نعامله معاملة الند للند ، أبى واستكبر واستنكر وجيّش لنا الجيوش وزحف بأساطيله وجنوده معتصبا مجتمعا يشد بعضه أزر بعض لكي يسيل دماءنا وييتم أطفالنا ويرمل نساءنا ويستبيح حرماتنا دون أن نكون قد بادأناه عداوة بعداوة أو عدوانا بعدوان .

لم تخرج قصة العدوان على بور سعيد عن هذه المعانى التى ذكرنا ، ولقد خاضها الشعب العربى المصرى وخاضها معه سائر الشعب العربى ببسالة وقوة وعزم وإيمان وشرف حتى خرج ظافرا منتصرا ، منصهراً من الأحداث ، ملتئم الشمل مكتمل الوحدة ،وخرج الاستعمار يجرر أذيال الخيبة يلعن نفسه ويلعنه الناس وبات أقطابه وأعوانه ودعاته يكتنفهم الاحتقار والازدراء ،وتلاحقهم الريب والشبهات .

إن معركة بور سعيد لم تكن مجرد أيام تسعة بلياليها التقت فيها جيوش والتحمت فيها أساطيل واندكت فيها منشآت وسالت فيها دماء وأزهقت فيها أرواح ، لم تكن المعركة مجرد هذه الأحداث وحسب ، ولكن سبقتها ظروف شاذة ومؤامرات خسيسة وتصرفات غادرة ، ثم تخللتها بطولات رائعة ومواقف سامية وأعمال باهرة ، ثم أعقبتها معارك أخرى ليست معارك نار ودماء ولكن معارك إنشاء وبناء ، بناء المدينة الباسلة المهدمة وإعادة الحياة إليها ، وبناء الوطن المنتصر النازف دما وتنظيمه ولم الشمل ورأب الصدع وتمكين الثقة بالنفوس وتعميق مجرى القومية العربية وإنماء الشعور بالعزة الوطنية وتثبيت الاستقلال السياسى والاقتصادى .

هذه المعركة بظروفها وملابساتها كانت فى حاجة إلى تسجيل سريع أمين حتى يمكن المحافظة على دقائق أحداثها قبل أن تذوب فى خضم الزمان وتنطوى

صفحاتها المشرقة بعيدة عن أعين التاريخ ، لأنها زاد للأجيال اللاحقة من أبنائنا وأحفادنا ، وكنز ثمين ينبغى المحافظة عليه و إهداؤه إليهم ثمرة جنية وصفحة مشرقة يستمدون منها العزم كلما ألمت بهم شدة أو حل بهم بأس ، فلن يكل الغرب أو ييأس من شن الحرب علينا إلا إذا خلع حكامه ثوب الاستعمار والتعصب و إلا إذا اطمأن إلى أن وطننا من المنعة المتواصلة والقوة المتزايدة بحيث تتحطم على صخرته الصلبة كل محاولة يغامر بها سفاك أو يقدم عليها مقامر .

ولما كنا قد عاصرنا المعركة بأحداثها فى بور سعيد وشاركنا لبضعة شهور فى خدمة المدينة ومحاولة لأم جروحها ، فقد يسرت لنا هذه الظروف أن نقدم للمعاصرين من أهلنا و إخواننا وللأجيال القادمة من أبنائنا هـذا الكتاب الذى التزمنا فيه الصدق فى التسجيل والأمانة فى السرد والدقة فى الاستقصاء والنصفة فى الحكم ، و بذلك نكون قد قدمنا لهذا الوطن العربى الناهض الكبير العبرة الكبرى التى يتمثلها شعبه من خلال كل موقف فى ثنايا الأحداث المسطورة على صفحات هذا الكتاب كركائز ينطلق منها إلى الأمام ظافرا يعبر إلى مراقى العزة والخلود على جسر من التجارب الناضجة والتضحيات الغالية والإيثار النادر والفداء الرخيص .

وتيسيرا لمهمة القارىء قسمنا الكتاب إلى فصول أربعة ،جعلنا الفصل الأول للجانب السياسى من المعركة وألمحنا فيه إلى استخفاف شركة القناة السابقة بارتباطاتها مع حكومة البلاد ثم التأميم ودوافعه وأسبابه وما تلاه من مؤتمرات ومؤامرات ثم الحرب الغادرة وما أصبناه بعدها من خير وما حل بالمعتدين من أضرار .

والفصل الثانى خصصناه للجانب الحربى تابعنا فيه المعركة يوما بيوم وساعة بساعة فى سيناء وفى غزة وفى بورسعيد ، تابعناها فى الجو وفى البحر وفى البر ،

وذكرنا مالنا وما علينا وأشدنا بالبطولات الخارقة التى قام بهـا الأبطال من الأحياء . و بالبطولات الخالدة التى قام بها الأبطال الشهداء وأسميناها « قصصا من الجنة » .

وأفردنا الفصل الثالث للأعمال والإنشاءات التى قام بها جنود مابعد المعركة، و إعادة الحياة الطبيعية إلى المدينة ، من تعويض للأهالى عن خسائرهم وتنظيم استقبالهم من مهاجرهم و إقامة المعسكرات لإيوائهم ، ثم عملية التعمير الضخمة التى أعادت بناء المدينة من جديد وهيأت للمواطنين مساكن جديدة رحيبة نظيفة منسقة أحسن تنسيق مكان حى « المناخ » الشهيد الذى استأصله المهاجمون بأبشع وسائل الدك والحريق .

وأما الفصل الرابع والأخير من هذا الـكتاب فقد تناولنا فيه الفنون ومدى مساهمتها فى المعركة ، ومقدار تأثرها بها وتأثيرها فيها ، فتحدثنا عن دور الشعر والزجل والأناشيد والألحان والقصة والفنون التشـكيلية مع الاستشهاد وضرب الأمثلة والتعليقات الموجزة .

وبهذه المناسبة لايفوتنا أن ننوه بفضل كل من ساهم بتقديم العون لنا بشكل أو بآخر ونخص من هؤلاء الأصدقاء الشاعر الأديب حامد البلاسى الذى بذل لنا جانبا من المعاونة الصادقة ، والفنان محمد لبيب الذى أشرف على معرض أطفال بور سعيد وأمدنا بكثير من مواده .

ولا بد لنا وقد انتهينا من هذا الـكتاب أن نشير إلى الهيبة التى كنا نحسها ونحن قادمون على مثل هذا العمل الخطير ، لأنه نضال أمة وكفاح شعب و بطولة جيل و بسالة مدينة. لقد كنا نشم رائحة الجنة وعبيرها يشع فى كل ركن من أركان

المدينة وكل ساحة من ساحاتها وكل درب يحيط بها أو يؤدى إليها ، كنا نشمها من كل عصا قصيرة ارتكزت على رمال الأرض الطاهرة تحت قبعة تشير إلى جثة شهيد ، أو من بقايا دماء ظلت باقية على جانب من جادة تنبىء عن بطل بدأ طريقه إلى الجنة من هذا المكان ، أو من هالات النور التى تضىء فى غسق الصباح وتشع فى عتمة المساء من طريق « الجميل » المعطر بدماء الضحايا المرنق بجثث الشهداء .

من هنا أحسسنا خطورة عملنا ، العمل الذى ندفع به أمة إلى مجالى التاريخ ومسارب الخلود ، التاريخ الذى صنعته بأيدى أبنائها ، والخلود الذى فرضت نفسها عليه ، فإذا استشف قارىء فى عملنا نقصا أو قصوراً فإنا نستميحه المعذرة فعلى قدر طاقتنا كان جهدنا ، وشفيعنا النية الخالصة وحسن القصد ، و إذا كنا قد أصبنا لونا من التوفيق فالحمد لله أولا وآخرا .

الدقى فى { ١٦ جمادى الأولى ١٣٧٨ هـ
٢٧ نوفمبر ١٩٥٨ م

مصطفى الشكعه فؤاد هديه

محتويات الكتاب

وزارة الشئون البلدية والقروية
الإدارة العامة للتخطيط والإسكان

البحر الأبيض المتوسط

بور سعيد
مناطق التعمير الجديدة

الفصل الأول

الجانب السياسي للمعركة

شركة . . . ولصوصية

كان كل شيء مقدراً أن يحدث منذ ذلك اليوم التاريخي المشهود ... وأخذ الأفق البعيد يشحن بالأحداث الجسام و باتت زرقته وصفاؤه يتحولان إلى غيوم ملبدة تحجب عن مصر نور الحياة وضياء الأمل ... ففى ذلك اليوم المشئوم ، فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ باع حاكم ضعيف حقوق شعب وادع مسالم لأفاق عالمى خطير . إذ وقّع سعيد باشا فى هذا اليوم فرمان قناة السويس للمسيو فردنان دى ليسبس...

كانت الأحداث القاسية المتوالية أمراً محتوما لا بد أن يواجهه شعب مصر بسبب تلك النزوة التى اجتاحت «سعيدا» الضعيف فجعلته يرتكب خطيئة كبرى بدافع من صداقته لدليسبس و إعجابه بفروسيته وحبه للمكرونة . . . فقد تتابعت المشاكل والمحن على مصر والمصريين وأخذت تتدفق فى طوفان رهيب ، طوفان يحاول حينا أن يغرق الشعب و يجرفه إلى بحر النسيان، و يحاول حينا آخر أن يطويه فى دواماته الصاخبة المنتشرة فى كل مكان على طول مجراه الطويل الكثير التعاريج ، والشعب أمام كل ذلك صامد كجلمود الصخر يقاوم بإيمان و يطاحن بعزيمة حتى يطول صموده و ينطبع كفاحه على الدهر و يصبح كأنه القدر الذى لا بد أن يسيطر على الأحداث فى نهاية الأمر مهما طال مداها وعمق غورها ، لأن القدر هو الذى يتغلب دائماً فى آخر المطاف . . . وهكذا كان صمود المصريين أمام ذلك الفيضان الرهيب الذى بدأ ينساب على وادى النيل منذ يوم الفرمان فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ م.

إن تلك الصفحات القليلة ، صفحات عقد الامتياز حملت أبلغ شر وأبشع جرم يمكن أن تحمله سطور قليلة فى صفحات معدودة ... لقد تحدث الفرمان عن أرض مصر وحقوق الشعب كأنه يتحدث عن أرض فى المريخ مملوكة لقوم أغراب لهم ذيول طويلة كالقردة ، لا مواطنين كرام لهم ماض طويل وتاريخ مجيد وحضارة سبقوا بها السالفين والأولين ، فقد نص عقد الامتياز الثانى الصادر فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ على تعهد الحكومة بأن تقدم للشركة العمال الذين تحتاج إليهم فى حدود ٢٠ ألف عامل بصفة مستمرة ، كما نص على تنازل الحكومة عن جميع الأراضى المملوكة لها واللازمة لإنشاء القناة بعرض أربعة كيلو مترات بطول ١٦٢ كيلو مترا بدون مقابل بما فى ذلك حق الشركة فى تملك ترعة الماء العذب واستغلالها فى رى الأطيان المملوكة للأفراد على جانبيها مقابل أجر يدفعونه لها حسب تقديرها . وكذلك نص على حقها فى استخراج المواد اللازمة لأعمالها من المناجم والمحاجر الحكومية بدون رسم أو أتاوة أو ضريبة ، فضلا عن إعفائها من كافة الرسوم الجمركية على جميع مستورداتها من الخارج ..

فكان معنى ذلك أن سعيد باشا أعطى الشركة فى الواقع ألواناً من حقوق السيادة المصرية مما جعلها بحق شركة ذات وضع فريد فى العالم لأنها أصبحت بموجب هذه الحقوق دولة داخل الدولة المصرية ..

إن سيطرة شركة قناة السويس على كل الإقليم المتاخم للقناة من بور سعيد إلى السويس كان يعتبر أمراً يثير العجب . فالشركة لم تكن تفكر إلا فى نفسها ومشروعاتها ، وتصرف النظر عن حاجات وضرورات هذا الإقليم الفسيح المترامى الأطراف الممتلىء بالسكان .. فكانت أعمالها و إنشاءاتها لا تمس لوازم المدن

الواقعة على القناة وإنما كانت مركزة فى مشروعاتها التى تدر عليها المكاسب والأرباح . وما كان ذلك الإقليم بما فيه من مدن وسكان مقاما إلا لخدمة القناة وحملة أسهمها بدلا من أن تكون القناة هى التى أنشئت لخدمة الإقليم ومن فيه من سكان .

إننا إذا أردنا أن نستعرض بالدليل القاطع والبرهان الدامغ الوقائع التاريخية المؤيدة لهذه الحقيقة فإنا قد نضطر لأن نسبح فى بحر عريض من الوثائق والأسانيد مما لا يعتبر فى الواقع هدفا من أهداف هذا الكتاب . ولذلك فنحن نرى أنه محافظة على التزام الهدف أن نكتفى بإعطاء فكرة سريعة عامة عن هذه الناحية الهامة من تاريخ شركة قناة السويس ، فترعة ماء الشرب الواصلة إلى بور سعيد لم يتم إنشاؤها إلا فى ٣ مايو ١٨٩٥ أى بعد افتتاح قناة السويس بستة وعشرين سنة بسبب المنازعات التى كانت قائمة بين الشركة والحكومة حول هذا الموضوع علماً بأن تعداد السكان يوم الافتتاح كان عشرة آلاف نسمة . وهكذا ظلت بورسعيد طوال هذه السنين تشرب من خط أنابيب يصلها من الإسماعيلية منذ سنة ١٨٦٩ ، أما قبل ذلك فقد كان الماء يأتيها على ظهور الجمال وفى المراكب الشراعية عبر بحيرة المنزلة . . .

وبور سعيد المنعزلة عن الدلتا التى يجد المسافر إليها حتى اليوم مشقة فى طرق مواصلاتها لم تنشىء لها الشركة خط السكة الحديد إلا عام ١٨٩٣ بموجب امتياز ينتهى فى سنة ١٩٥٦ ، وكان الخط أول الأمر مخصصاً لنقل أدوات ومهمات الشركة وموظفيها . فتدخلت الحكومة المصرية واستطاعت أن تستأجره من الشركة فى سنة ١٩٠٢ بمبلغ ثلاثة ملايين من الفرنكات تدفع على أقساط سنوية

حتى تاريخ انتهاء امتياز الخط بفائدة قدرها ٤ ٪ ليتمكن السكان من استعماله ويصبحوا متصلين بباقى المدن .

وكانت الحكومة تستطيع من أول الأمر أن تنشىء هذا الخط من مالها لتصل بور سعيد بسائر مدن القطر لولا خوفها الشديد من معارضة الشركة للمشروع أو مطالبتها لها بتعويضات باهظة عن تسيير الخط فى أراضيها . فالشركة بارعة فى ابتزاز الأموال من حكومة البلاد ، إذ حدث فى ٦ يولية سنة ١٨٦٤ أن أصدر نابليون الثالث امبراطور فرنسا بصفته حكما فى النزاع الذى كان قائماً بين الحكومة المصرية وشركة القناة حول ملكية الأرض التى كانت الترعة تشق فيها وقتئذ ، أصدر حكمه بأن تدفع الحكومة المصرية تعويضاً للشركة قدره ستمائة وأربعين ألف جنيه مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء ترعة ماء الشرب ، وكذلك مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه مقابل تنازل الشركة للحكومة عن الأراضى التى اتضح عدم لزومها لمشروع القناة . . .

يحكم نابليون الثالث — امبراطور فرنسا — الذى كان يبارك مشروع القناة ويحمى ديليسبس ويؤيده على طول الخط فى كل تصرفاته الحمقاء والذى استباح لنفسه أن يكون خصما وحكما فى آن واحد ، يحكم على الحكومة المصرية بأن تشترى بأبهظ الأثمان أراضيها التى سبق أن أعطتها للشركة بغير ثمن... يحكم هذا الامبراطور «العظيم» بأن تدفع حكومة مصر مليون وثمانمائة وأربعين ألف جنيه ثمناً لأراضٍ مصرية اتضح أنها غير لازمة لمشروع القناة ، ذلك المشروع الذى كان رأس ماله كله ثمانية ملايين من الجنيهات لا غير ... ولهذه الأسباب فإن الحكومة المصرية أصيبت بعقدة نفسية وأصبحت لا تجرؤ على الدخول مع الشركة فى أية

مفاوضات أو التقدم لها بأى طلب خوفا من أن تطالبها بتعويضات باهظة لا طاقة لها بها ، فتركت الشركة تنشىء خط سكة الحديد ثم تقدمت لها منحنية مستجدية تسألها أن تستأجره لتضعه فى خدمة مواطنيها سكان بور سعيد عسى أن تستطيع بذلك أن تحقق لهم بعض مصالحهم وحوائجهم وأن تقيم الصلة بينهم و بين سائر مدن القطر لأنهم هناك فى شمال الوادى ، فى أقصى شماله الشرقى يكادون يكونون منعزلين تماما عن القطر .

وكانت الشركة تعلم علم اليقين أن سكان بور سعيد ليس لهم مورد يكتسبون منه سوى الميناء ، فليس فى المدينة مجال للزراعة أو الصناعة ، وليس فيها مناجم للتعدين ، وكل حياتها تقوم على خدمة السفن عابرة القناة والاستفادة تجاريا من موقعها الفريد على طريق التجارة الدولية ، لأن بورسعيد نشأت مع قناة السويس ولم تكن قبل ذلك سوى أرض جرداء ورمال تنمو فيها الأعشاب ، فلما بدأ العمل فى القناة ولدت بورسعيد وأخذت تنمو نمواً سريعاً هائلا بفضل عزيمة سكانها العصاميين . وحتى المنطقة المحيطة ببور سعيد لم يكن فيها أثر للحياة اللهم قرية الصيادين التى كانت تقع على بعد عشرة كيلومترات بالجميل وذلك الشيخ المقيم فى مقبرته جنوب بور سعيد على بعد ثلاثة كيلو مترات ، الشيخ الخربوطى (القابوطى) .

كانت الأعمال فى بورسعيد الوليدة تقتصر على توريد العمال اللازمين لحفر الميناء وتوريد الماء والمواد التموينية لهم ، فلما تم إنشاء الميناء وأخذت السفن تفد إليه بدأت بور سعيد تأخذ طابعاً جديداً وأصبحت محطة لتموين البواخر بالفحم حيث ظلت هكذا مجرد محطة للتموين بالفحم خمسة وعشرين سنة لا تجد فيها

ما يدل على أنها مدينة ناهضة أو أن هناك يداً قوية تدفعها إلى الحضارة وتتعاون مع سكانها على تطويرها وانعاشها و إفادتها اقتصادياً من موقعها الجغرافى الممتاز بالرغم من أن التعداد قد تزايد تزايداً سريعاً ، وها هو اليوم قد وصل إلى حوالى ربع مليون مواطن .

والعجيب أن سكان بور سعيد كانوا « عرباً وأفرنج » ، مصريين وأجانب هؤلاء لهم حيهم وحياتهم ، وهؤلاء الوافدون على المدينة من مالطة وقبرص وكريت وفرنسا وايطاليا وانجلترا كان لهم حيهم الذى يلقى كل عناية ورعاية وتنسيق من الشركة . فكانت حياتهم منعمة مترفة تختص بالسيادة والأولوية فى كل مرافق البلد وفى كل وجه من أوجه نشاطها .

وأما أولئك « العرب » ، المصريون القادمون من قلب مصر ، من صميم الوادى، من دمياط والمطرية ،فكانت لهم النفاية فى كل شيء ،وكان حيهم خرباً مظلماً كريه الرائحة رطب الأبنية له شوارع عرضها أربعة أمتار أصليا مناور المنازل المتجاورة ثم أصبحت شوارع يطلق عليها « الأربعة » نسبة لعرضها . وكانت حياة هؤلاء المواطنين فى المؤخرة بل ومؤخرة المؤخرة . فلم تكن لهم شركة أو وكالة مصرية . ولم يكن من بينهم مقاول مصرى إلا من الباطن ، أو باطن الباطن وكانت المتاجر الكبرى كلها فرنسية و إيطالية وانجليزية ، وكانت الفنادق والمطاعم والكازينوهات يونانية وسويسرية ، وحتى المجلس البلدى — القومسيون — كان أجنبياً صرفاً . وأما أولئك القادمون من دمياط والمطرية ، والذين لا يمكن أن نسميهم بورسعيديين تحت تلك الظروف لأنهم كانوا فى نظر الشركة وطبقاً لسياستها العمرانية أجانب عن بور سعيد ، فقد كانوا البقرة الحلوب .

والإنسان عندما يقرأ تاريخ حفر القناة وما تكبدته مصر من تضحيات بسببها وما تحملته من خسائر باهظة ليدهش و ينفطر حزناً وأسى . إن دماء وعظام مائة وعشرين ألف مواطن ملأت القناة قبل أن يملأها ماء البحر ، وعشرات الألوف من النفوس تعذبت وتمزقت أجسامهم تحت سياط قطاع الطرق المردة الذين استعان بهم ديليسبس فى تسخير المواطنين المسالمين الوادعين وانتزاعهم من قراهم الآمنة بالقوة لإرغامهم على العمل فى حفر القناة . فكان أعوان ديليسبس من قطاع الطريق المستوردين من حوض البحر الأبيض يسوقون هؤلاء المواطنين من ديارهم إلى القناة فى «طوابير» طويلة مكبلين بالسلاسل تماماً كما كان يساق العبيد إلى أسواق النخاسة فى الأزمان الغابرة . وكان هؤلاء المسخرون عندما تضيق الدنيا فى وجوههم يفرون من العمل فيقتلهم ملاحظوهم فوراً بالرصاص . وكانوا إذا طلبوا الماء للشرب باعته إياهم الشركة بنصف أجرهم اليومى الذى لا يتجاوز الملاليم . أما النصف الثانى فلم يكن يكفى لأكثر من العيش الحاف . ولذلك عمل إسماعيل على إلغاء الشرط الذى ورد فى عقد الامتياز ونص على تعهد الحكومة ببذل مساعدتها للشركة فى تقديم أربعة أخماس العمال اللازمين للعمل ليحمى خمس المسخرين من الظلم والوحشية ، فدفع للشركة تعويضاً قدره مليون وخمسمائة وعشرين ألف جنيه مقابل إلغاء هذا الشرط بالرغم من أنه لم يكن فى حقيقة الأمر فى حاجة لأن يدفع أى تعويض للشركة مقابل تنازلها عن هذا الشرط لأنه لم يكن فى نصه أى إلزام للحكومة بضرورة تقديم العمال بل مجرد تعهد .

إن التضحيات كانت فى الواقع أكثر من أن يرصدها كتاب أو تجمعها صفحات . يكفى أن نبين فضلا عما ذكرناه أن هذه القناة التى تكلفت ثمانية عشر مليوناً

من الجنيهات أنفقت مصر منها حوالى سبعة عشر مليون جنيه ، أى أن مصر أنفقت على القناة ما يوازى التكاليف الكاملة لإنشائها ، ورغم ذلك خرجت من المشروع لا تملك شروى نقـــير . فأسهم مصر التى كانت حوالى نصف أسهم الشركة بيعت للأسف للحكومة الإنجليزية سنة ١٨٧٥ بأربعة ملايين من الجنيهات علماً بأن قيمتها بلغت فيما بعد فى سنة ١٩٢٩ اثنين وسبعين مليوناً من الجنيهات وأعطت أرباحاً حتى تلك السنة قدرها سبعة وثلاثين مليوناً من الجنيهات وحتى الخمسة عشر فى المائة التى نص عقد الامتياز على حق مصر فيهـــا من الأرباح . حتى تلك الحصة الهزيلة اضطرت الحـكومة المصرية فى عهد إسماعيل للتنازل عنها مقابل مبلغ ثمانمائة وثمانين ألف جنيه وفاء لما عليها من بعض الديون ، علماً بأن هذه الحصة وصلت بعد ذلك إلى أكثر من عشرين مليوناً من الجنيهات وأصبحت تدر سنوياً مليون جنيه من الأرباح .. و بذلك خرجت مصر خاسرة على طول الخط ، مادياً وأدبياً واجتماعياً ، وخرج الآخرون رابحين على طول الخط .

فهل قدرت الشركة كل هذه التضحيات الغالية أو تذكرت ماتـكبدته مصر من مشاق بسبب شق القناة ؟ ؟ هل حاولت الشركة أن تقيس مصالحها الخاصة بمعيار مصالح تلك البلاد التى تجرى القناة فيها وتجر وراءها الخير الوفير عاماً بعد عام دون أن تنال منه هذه البلاد أى نصيب ؟ ؟ هل جربت الشركة أن تـكون بعيدة النظر بصيرة العين فتفهم أن الشعب أيام إسماعيل غيره أيام سعيد ؟ وأنه عندما ثار على توفيق فى ميدان عابدين بقيادة أحمد عرابى كان لا بد أن يثور عليها يوماً ما و يطردها من الوطن طالما أنها تنتهج نحوه سياسة استغلالية تعسفية .. إن شعب مصر عندما ثار على الاستعمار يوم دنشواى لم تـكن ثورته إلا حلقة من سلسلة

ثوراته المتتابعة ، ولكنها كانت حلقة أوسع من سابقاتها وأضيق من تالياتها ، فالمتتبع لحلقات سلسلة الثورة المصرية يلاحظ بشكل واضح أن كل حلقة أوسع من سابقاتها الأمر الذى يدل على نضوج الوعى الشعبى وعمق مجراه حتى اختتم الشعب هذه الحلقات بثورته الكبرى سنة ١٩٥٢ بعد أن تفهم كل مشكلاته وصمم على وضع حلول سريعة لها مثل الاستعمار والاحتكار وأكل خيراته وحرمانه منها .

فى تلك الأثناء كانت شركة قناة السويس لا تزال سادرة فى غيها لا تقيم وزناً للمشاعر النامية الزاحفة للشعب الذى أخذ يتفهم حقوقه ويؤمن بها ويسعى لاستردادها ؛ ومن سوء الحظ أن الشركة كانت لا تزال تظن أنها تعيش فى أيام سعيد وإسماعيل فأخذت تسير على سجيتها التى طبعت عليها فى المخالفات الكثيرة لطبيعة العقد الذى التزمت به ولم تنفذه فى يوم من الأيام ، وصور المخالفات قديمة وحديثة كثيرة متعددة .

فكان عليها مثلا أن « تحول بحيرة التمساح إلى ميناء داخلى صالح لرسو أكبر السفن حمولة » تطبيقاً للمادة السادسة من العقد الصادر فى سنة ١٨٥٦ . ولكن بحيرة التمساح ظلت كما هى نتيجة إهمال الشركة وعدم تنفيذها لهذه المادة مجرد بحيرة ليس فيها أى مظهر من مظاهر الموانى . . . وكان على الشركة أيضاً « أن تتحمل نفقات الأعمال اللازمة لتوسيع ميناء بور سعيد تمشياً مع الضرورات التى يفرضها تقدم الحركة التجارية » ومعنى هذا أن يعد الميناء بالأرصفة اللازمة لرسو السفن ويجهز بالأوناش والمخازن التى تسهل عمليات الشحن والتفريغ لأن ملايين الأطنان من بضائع البلاد الشرقية والغربية تمر كل يوم بميناء بور سعيد ،

ميناء الوسط بين الشرق والغرب ، وهذه البضائع تفرغ من السفن القادمة عليها من مراكز إنتاجها لتحفظ مؤقتاً بمخازن بور سعيـــد لحين وصول سفن أخرى متجهة إلى مراكز استهلاكها . ويستلزم هذا الأمر عمليات تفريغ وتخزين وإعادة شحن — أى عمليات أقطرمة — تحتاج لتجهيزات أساسية لا وجود لها البتة فى ميناء بور سعيد . ولذلك يضطر ذوو الشأن من تجار ومقاولين لإنجاز هذه العملية أن يستخدموا المواعين التى تجرها القاطرات إلى السفن لتفرغ فيها وتشحن منها هذه البضائع مما يؤدى إلى ارتفاع باهظ فى تكاليف عمليات الأقطرمة بميناء بور سعيد . ولهذا يضطر كثيرون من المصدرين والمستوردين فى البلاد المنتجة والمشترية لهذه البضائع ، كما تضطر شركات الشحن ، إلى الالتجاء لموانى أخرى غير بورسعيد من موانى البحر الأبيض المتوسط تفادياً من هذه التكاليف الباهظة . وهكذا يضيع على المدينة نشاط تجارى كبير ومكاسب وأرباح هائلة بسبب عدم وفاء الشركة بنص جوهرى من التزاماتها وهو توسيع الميناء تمشياً مع الضرورات التى يفرضها تقدم الحركة التجارية .

ويسمع الإنسان فى أبواق الدعاية والنشرات الرسمية التى كانت الشركة تصدرها فى الخارج عن اهتمام الشركة بالقناة وبرامج توسيعها وتعميقها لإعدادها دائماً لاستقبال أكبر السفن فى العالم : فأعلنت الشركة فى هذا الصدد أن البرنامج الثالث سيجعل السفن التى غاطسها ٣٦ قدما تمر فى القناة مروراً طبيعياً . وكانت الترسانات الكبيرة ساعة هذا الإعلان تبنى سفناً ضخمة حمـــولة ٤٠ ألف و ٥٠ ألف طن وبعضها وصل إلى ٥٥ ألف طن مما يبلغ غاطسها ٤٢ قدما . فكأن هذه الشركة توهم العالم بأنها تخدم الملاحة الدولية وتنفذ البرامج التى لا تعوق

سفينـة واحدة عن عبور القنـاة لتتفادى الدوران حول رأس الرجاء الصالح فى الوقت الذى كانت فيه شركات بناء السفن تعلم أن هذه الشركة متأخرة عن متابعة التطور المستمر فى صناعة بناء السفن وخاصة ناقلات البترول .

ولقد تبين أن هذه الشركة كانت تنتهج سياسة تخريبية كشفتها الأيام والأحداث ، إذ ثبت أنها وضعت خطة لجعل مرفق القناة عاطلا عن العمل عند نهاية الامتياز عام ١٩٦٨ . فتتسلمه الحكومة المصرية مرفقاً ميتاً وتلقى عليها المسئولية . . . تدبير جهنمى لجريمة بشعة فى حق مصر وحق العالم ، ولكن ماذا كان ينتظر من تلك الشركة خلاف التدبير المحكم للشر والتخريب ! .

الحقيقة أن شركة قناة السويس لم تحترم فى أى يوم السيادة المصرية أو حقوق الشعب المصرى بل كانت تستخف بقوانين الوطن وترفع نفسها فوقها وتصر على سياستها الاستبدادية رافضة التجاوب مع أمانى المصريين أو التفاوض مع أولئك الصغار البسطاء فى نظرها من حكام مصر ... إن القنـاة شقت بسواعد مصرية ، وأموال مصرية ، وتضحيات مصرية ، فى أرض مصرية ، ولكن الشركة لم تعترف بذلك . أنها جلبت الخير لكل البلاد الأوربية التى تستعملها ومنها تلك البلاد التى كانت تعارض المشروع فى أول أمره فى حين أن مصر التى تبنت المشروع وسهرت عليه لم تجن منه أى كسب أو فائدة . . . والشركة ذاتها التى كانت تدير القنـاة كانت فى الواقع بمثابة مصنع كبير لإنتاج قطع الغيار المختلفة اللازمة لأجهزة الاستعمار فى مصر لكى تصون هذه الأجهزة وتحفظها من التلف أو التوقف عن أداء وظائفها البشعة . إن مصر دفعت كثيراً فى هذا المرفق الغالى.

الذى كان مفروضاً أن يكون هبة لها من الطبيعة كنهر النيل بدلا من أن يكون زوبعة جامحة تعصف باستقلال البلاد وتقتلع حرياتها وتحملها إلى بحر صاخب من الاضطرابات الاقتصادية والسياسية . فكان يجب أن تستوى القناة على الجودى وتعود لمصر والمصريين بأى ثمن . وكان يجب أن يحطم هذا المصنع الاستعمارى الكبير لكى تشعر البلاد بالحرية والأمن والعزة والقومية—وقد كان .

أسباب تأميم شركة القناة

لم يكن سحب تمويل مشروع السد العالى هو السبب المباشر لتأميم شركة القناة كما يظن الكثيرون ، ولكن هناك أسبابا أعمق وأصل من هذا السبب الظاهرى الذى خاله كثير من المراقبين الدوليين سبباً رئيسياً .

لقد كان سحب التمويل فى نظر السياسة المصرية العربية بمثابة « القشة التى قصمت ظهر البعير » وأما الأسباب الأخرى فكثيرة جداً ومنطقية جداً وهى لا تكاد تحصى وإن كان من الممكن إجمالها فى كلمتين اثنتين هما حماقة ساسة الغرب.

ولكن قبل أن ندخل فى هذه الأسباب يجمل بنا أن نطوف بالقارىء سريعاً فى ظروف وملابسات سحب تمويل مشروع السد العالى لما انطوت عليه من براهين تدل على قصر نظر الساسة الأمريكيين وغفلتهم الكاملة عن شئون الأمم ومقدار تيقظها وزحفها فى ركب الحرية والحياة .

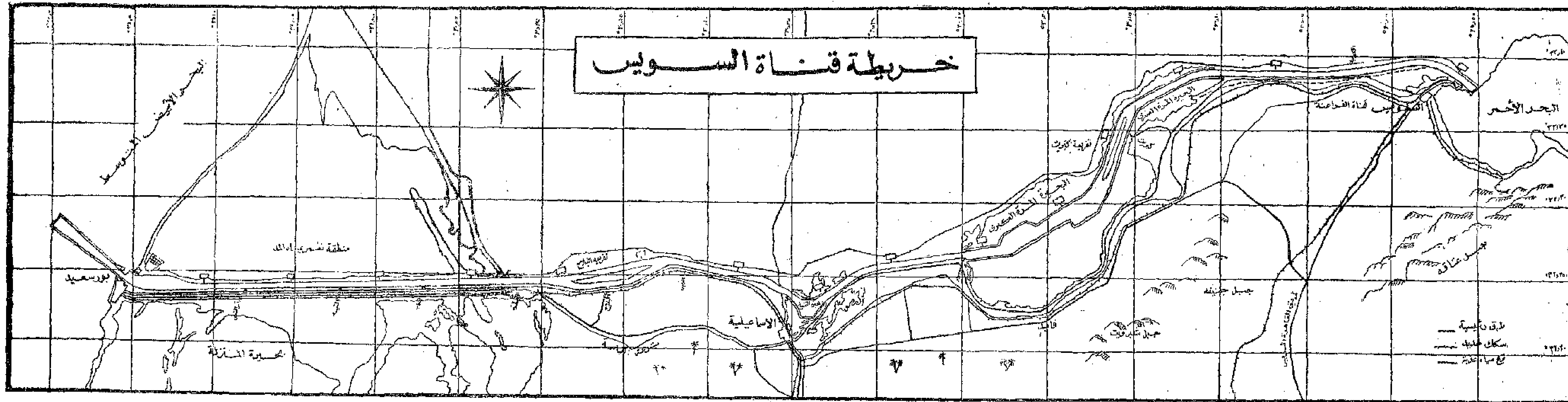
كان لأمريكا أهداف تريد تحقيقها من زمن بعيد بالرغم من أنها لم تكن نفس أهداف انجلترا وفرنسا . فأمريكا كانت غاضبة جداً على مصر قبل التأميم

بسنة كاملة عند ما عقدت صفقة السلاح الروسى فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ . وكان مستر دالاس بالذات ينزعج كل الانزعاج ويفقد أعصابه عندما تأتيه الأخبار بأن شحنات من طائرات الميج ١٥، ١٧ تصل تباعا لميناء الاسكندرية ، لأنه كان يتصور أن مصر أصبحت دولة شيوعية ، وأن الخبراء الروس حتما سيتدفقون وراء السلاح وينتشرون فى كل مدينة وقرية مصرية ، وفى داخل مصالح ودواوين الحكومة ذاتها ثم تنمو بالتدريج حتى تصبح مصر فى النهاية تابعاً للاتحاد السيوفيتى حيث ينزل علمها الأخضر ويرتفع محله العلم الأحمر ذو المطرقة والمنجل... هكذا كان مستر دالاس يتصور الأمور ويتوهمها بخياله الخصيب لأنه مصاب بعقدة نفسية من الشيوعية ، ولأنه لا يفهم شيئاً عن الرأى العام المصرى العربى وأهداف حكومته. فأهداف الحكومة المصرية بعيدة كل البعد عن الشيوعية ، بل أنها تحارب الشيوعية فى وضح النهار وتمنعها من أى نشاط . كما أن شعب مصر يريد صداقة الاتحاد السيوفيتى ومساعداته فقط ولا يريد شيئاً من مبادئه المذهبية ونظمه الماركسية . فلا لوم إذن على شعب مصر وحكومته ما داما ينشدان السلام وصداقة الروس البريئة ولا محل لخوف دالاس من السلاح الروسى لأن الحكومة تشتريه للذود عن حياض الوطن والدفاع عن أراضيه ، فى دنيا لا محل فيها للضعيف ولا مكان لغير الأقوياء .

ومستر دالاس لم يعجبه كذلك أن يرى مصر تصبح قطباً من أقطاب الحياد وداعية بين الدول الافريقية والآسيوية للوقوف بين المعسكرين الشرقى والغربى دون انحياز لأحدهما . فاشتراك مصر مع يوغوسلافيا والهند فى توسيع نطاق هذه

الدعوة ، ووقوف الرئيس جمال عبد الناصر بجانب السيدين تيتو ونهرو فى مؤتمر بريونى فى شهر يولية ١٩٥٦ كان أمراً لا يقره مستر دالاس و يعتبره تحديا لارادة الولايات المتحدة وخروجا على سياستها الدولية ... ولذلك أراد أن يوجه ضربة قوية لمصر تهز كيانها وتعيدها إلى حظيرة الدول الصنيعة التى فقدت شخصيتها وأسلمت قيادها . فماذا يفعل مستر دالاس وكيف يوجه الضربة القوية ؟

كانت مصر محتاجة لمساعدة الولايات المتحدة وللبنك الدولى لتمويل مشروع السد العالى. وفعلا وافقت الأولى على اعطاء مصر ستة وخمسين مليونا من الدولارات كما وافق البنك الدولى على تقديم مائتى مليون دولار ، وحتى انجلترا عرضت على مصر خمسة عشر مليونا من الدولارات لهذا المشروع ، فلما أثير موضوع السد العالى فى مجلس الشيوخ الأمريكى وأبدى الأعضاء رغبتهم فى ضرورة ضغط اعتمادات المساعدات الخارجية وجه مستر دالاس فرصته الذهبية التى كان ينتظرها بفارغ صبر والتى تمكنه من توجيه ضربته القوية لمصر . ثم زاد فى تعلقه بهذه الفرصة موقف أعضاء مجلس الشيوخ الذين يمثلون زراع وتجار القطن فى أمريكا والذين كانوا يعارضون بشدة تقديم أية مساعدة لمصر لتنفيذ هذا المشروع الذى سيساعدها على التوسع فى زراعة القطن الأمر الذى يتعارض مع مصلحة منتجى وتجار القطن الأمريكيين ... فإذا أضفنا لكل هذا أن الرئيس الأمريكى ايزنهاور كان لا يلم إلا الماما سطحياً بحقيقة هذا المشروع مما يضطره إلى تسليم الأمر كله لوزير خارجيته وعدم معارضته أى اجراء يتخذه بهذا الخصوص مهما كان الاجراء على جانب من الحماقة ، لوجدنا الفرصة أصبحت سانحة أمام دالاس من كل الوجوه لأن يفرغ ما يختزن فى نفسه من شماتة وحقد وحفيظة ضد مصر .



خريطة قناة السويس
البحر الأبيض المتوسط
بورسعيد
بحيرة المنزلة
الإسماعيلية
البحيرة المرة الكبرى
البحر الأحمر
قناة الفراعنة
جبل جنيفة
جبل عتاقة

والسد العالى فى الواقع لم يكن مجرد مشروع عادى تريد مصر أن تحققه لتدعيم اقتصادها ، بل كان هذا المشروع ركناً ركيناً فى البرنامج العام للثورة تسلطت عليه الأضواء وتركز فيه مستقبل البلد والتفت حوله قلوب المصريين . . . فكل مواطن كان يردد أن السد العالى هو هدية الثورة للشعب بقدر ما كان تحطيم الإقطاع وطرد الملك هدية للشعب . . وكانت المحاضرات تلقى فى كل مكان عن هذا المشروع ؛ والصحف تكتب عنه يوماً بعد يوم وتنشر له الصور والأرقام حتى بات المشروع — مشروع الثورة — أمل المصريين جميعاً .

فإذا نجح دالاس فى تحطيم هذا المشروع فإنه يكون بذلك قد حطم ركناً من أركان الثورة ووجه ضربة للحكومة وللرئيس جمال شخصياً . وهو عين ما كان يتوق إليه من يوم صفقة السلاح الروسى ومنذ أن أخذ الرئيس جمال يدعو إلى سياسة الحياد . . ولذلك قرر دلاس فى ١٩ يولية سنة ١٩٥٦ أن تسحب أمريكا عرضها السابق تقديمه لمصر بمساعدتها مالياً فى بناء السد العالى . . وليس أدل على شدة شماتة دلاس فى مصر من مخالفته للأصول الدبلوماسية التى يجب أن تراعى وتتبع فى مثل هذه المواقف الدقيقة الحساسة . فبدلا من أن يسلك الطريق الرسمى ويبعث بمذكرة برأى حكومته للحكومة المصرية إذ به يعقد مؤتمراً صحفياً أخذ يصول فيه ويجول — كالغزاة الفاتحين — معلناً فى نشوة السكارى عن هذا القرار الأحمق ، وأخذ البرق ينقل الخبر فى لحظات إلى كل مكان فى الدنيا وإلى مصر التى لم تكن قد تسلمت حتى تلك اللحظة أية مذكرة رسمية من حكومة الولايات المتحدة بشأن هذا القرار الخطير . . وأخيراً لما فرغ دلاس من تشفيه من مصر وأفرغ ما بنفسه من حقد دفين يدخره لحكومة مصر قام بخيلاء المفتون بنفسه

ليخطر السفير المصرى الدكتور أحمد حسين بقرار حكومته . . وفى اليوم التالى سحبت انجلترا عرضها ثم تبعها البنك الدولى فى نفس اليوم . . وهكذا وجدت مصر نفسها تواجه أحرج وأدق مشكلة لم تكن فى الحساب ولم يكن يتوقعها إنسان على الإطلاق . . فما الذى تفعله مصر لحماية كرامتها من هذه اللطمة ولتتمكن فى نفس الوقت من السير قدماً فى تنفيذ هذا المشروع الذى التفت حوله القلوب وعقدت عليه الآمال ؟

إن مشروع السد العالى يمكن مصر من زراعة مليونين من الأفدنة من الأراضى الصحراوية والبور ويحول مساحة ٧٠٠ ألف فدان إلى نظام الرى المستديم ويعطى طاقة كهربائية رخيصة تطلق يدنا فى تصنيع البلاد ويصل سعرها فى المتوسط إلى ½ مليم للكيلوات ساعة فى منطقة أسوان وإلى مليمين فى منطقة القاهرة ، لأنه يولد قوى كهربائية تصل فى مرحلتها النهائية إلى عشرة آلاف مليون كيلوات ساعة مما يقفز بنصيب الفرد فى مصر من الكهرباء إلى أكثر من ٤٠٠ كيلوات ساعة بدلا من ٦٠ فى الوقت الحاضر . ومن مزايا المشروع أيضاً وقاية مصر من الفيضانات العالية وتوفير مئات الألوف من الجنيهات التى تصرف سنويا على تعلية وتقوية الجسور . كما أنه ضمان واف لتوفير الماء اللازم للزراعة فى السنين التى يشح فيها فيضان النيل فضلا عن أنه يؤدى إلى تحسين الملاحة بمجرى النهر على مدار السنة ويزيد غلة الأراضى المزروعة لانخفاض مستوى المياه الجوفية فى الوادى .

هذا المشروع الضخم يوازى فى مجموعه حجم الهرم الأكبر ١٧ مرة . وقد عملت له كل الدراسات الجيولوجية والهيدروليكية وكل ما يتعلق بمسألتى الطمى

والبحر أمام وخلف السد ، كما تمت كافة الأبحاث الخاصة بطرق التنفيذ ومواد الإنشاء اللازمة لجميع الأعمال فى الانفاق والبوابات وغيرها بواسطة الخبراء العالميين من ألمان ويابان وأمريكان .

وبالرغم من أهمية هذا المشروع وحيويته لمصر فقد أراد دالاس أن يوجه إليه قنبلة من قنابله السياسية الحمقاء لتصاب مصر فى آمالها ومستقبلها مشركا معه فى عملية النسف كلا من انجلترا والبنك الدولى . فما الذى كانت تستطيع مصر أن تفعله رداً على هذه المؤامرة الثلاثية الأولى من نوعها لكى تحفظ لنفسها كرامتها بين شقيقاتها الدول العربية وتعيد لنفسها اعتبارها فى نظر الدول الأجنبية ، ولكى تتمكن — وهذا هو الأهم — من تنفيذ مشروعها الضخم ؟... لم يكن هناك إلا سبيل واحدة : هى تأميم قناة السويس .

ومهما يكن فقد كان من الممكن مثلا أن تسحب أمريكا عرضها بتمويل مشروع السد العالى بشكل مهذب كريم ولكنها تعمدت أن تتخذ من هذا السحب وسيلة لطعن الاقتصاد المصرى فى الصميم والتشنيع عليه حتى تضيف حلقة أخرى إلى سلسلة حلقات الحصار الاقتصادى فأعلنت أنها تسحب عرضها بسبب انهيار الاقتصاد المصرى فى الوقت الذى تعلم فيه أمريكا نفسها أن الاقتصاد المصرى كان سليما كل السلامة ، معافى كل العافية . ثم تبعت انجلترا — بمنتهى الغفلة — أمريكا وأعلنت تخليها عن التمويل بعد أربع وعشرين ساعة من سحب أمريكا عرضها ثم جاء البنك الدولى المفترض فيه الحيدة التامة — ولكنه فى الواقع ليس كذلك — فأعلن سحبه للتمويل هو الآخر .

وإذن فقد كانت المسألة عبارة عن مؤامرة واضحة مكشوفة لقتل مصر

اقتصادياً وتجويع الشعب المصرى العربى ومحاربته فى أرزاقه وفى مشروعاته الكبرى التى تنهض به وتقيم له دعائم قوته واستقراره ورفع مستوى معيشته .

وهكذا تبدو الحماقة والغفلة لا فى سحب العرض . ولكن فى طريقة سحبه وماغلف فيه هذا السحب من غلاف شائك مسموم يدل على كراهية عميقة وحقد دفين .

سبب آخر من أسباب التأميم وهو أن شركة القنـاة كانت تتصرف كما لو كانت خالدة باقية إلى الأبد ، فى الوقت الذى ينتهى فيه امتيازها بعد سنوات لا تعدو العشر فضلا عن الحركات المريبة التى كان يقوم بها مدير الشركة والانتقالات المحاطة بالسرية التامة بين باريس ولندن وواشنجطن تمهيداً لإرغام مصر على مد الامتياز مائة سنة أخرى ، وهو أمر يدعو إلى الغرابة فلقد كان المصريون جميعاً مستعدين لأن يطموا القنال بجثثهم ولا تجدد للشركة سنة واحدة ..

هذا فضلا عن أن شركة القنـاة كانت تعتبر دولة داخل الدولة فهى تملك القنـاة وكيلومترين عن شرقها وكيلومترين آخرين عن غربها ممتدة من السويس جنوباً إلى بور سعيد شمالا ؛ ومعنى ذلك أنها تفصل مصر المستقلة إلى قسمين منفصلين عن بعضهما تمام الانفصال ..

فإذا أضفنا إلى ذلك كله الحصار الاقتصادى الذى ضربه الغرب حول مصر وتعويق مشروعاتها ومحاربة تقدمها . والضن عليها فى بعض الأحيان بالقمح الذى هو قوت الشعب .

وإذا ماعرفنا أن القناة تدر سنوياً خمسة وثلاثين مليوناً من الجنيهات بالعملة الصعبة وأن القناة ملك لمصر وأن التأميم حق لمصر ، لم يكن هناك أى عذر لأى إنسان ذكى إذا لم يتوقع مزاولة حق الدولة فى التأميم

والعجيب أن الغرب حينما سحب تمويل السـد العالى وأعلن الرئيس عبد النـاصر أنه سيتولى الرد على هذا السحب يوم ٢٦ يوليو ، أخذت دوائره السياسية تضرب أخماساً فى أسداس محاولة عن طريق الحدس والتخمين معرفة رد عبد الناصر المنتظر ولم يهدهم تفـكيرهم إلى شىء على الإطلاق وكان ينبغى عليهم أن يتوقعوا التأميم لـكنهم قد ألفوا طوال حياتهم السياسية الماضية أن طراز الساسة المصريين أقزام مهما علت قاماتهم ، وظنوا أن عبد الناصر واحداً من هؤلاء ، وكانوا قصار النظر فإن عبد النـاصر طراز جديد من ساسة العرب مؤمن بوطنيته إلى درجة التشبع فزاول حقه بتأميم الشركة بسرعة مذهلة أفقدتهم صوابهم ولو كانوا قد تقبلوا حق التأميم تقبلا منصفاً كريماً وطلبوا أن تراعى مصالحهم فى حق المرور فى القناة لـكان ذلك أمراً طبياً له اعتباره وحسن القبول .

ولـكنهم ركبوا رءوسهم فـكان ما كان من خراب على الغرب وتأمين لسلامة العرب وتأكيد لاستقلالهم وممارسة حقوقهم كاملة فى أرضهم وأخذت القافلة تسير قدماً إلى الأمام .

و بتأميم الشركة أخذت الأموال الصعبة تدخل إلى جيوب أصحابها الأصليين الأحق بها دون غيرهم فأخذوا يبنون بها وسائل المجد للشعب والاستقرار للمواطنين فى شكل مشروعات نافعـة تعود عليهم بالخير والرفاهة وترفع من مستواهم اجتماعياً وثقافياً .

تأميم شركة قنــاة السويس

فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر تأميم شركة قنــاة السويس ، وأصدر بذلك القانون رقم ٢٨٥ . ولم يكن التأميم سوى أمر طبيعى ينطق به ويقره القانون الدولى وتجارب أمم كثيرة سبقت مصر فى التأميم . ففى سنة ١٩٤٦ أممت فرنسا مؤسسات الغاز والـكهرباء التى كان يساهم فيها انجليز وبلجيكيون وسويسريون بجانب الفرنسيين وأقرت حكومات هؤلاء المساهمين إجراءات التأميم كما اتفقت فرنسا مع كل منها على تعويض رعاياها عن حقوقهم فى هذه المرافق .

وبريطانيا ذاتها فى الفترة ما بين ١٩٤٥ — ١٩٤٧ قامت بسلسلة من أعمال التأميم شملت شركات الحديد والصلب وشركات إنتاج الفحم وشركات توليد القوى علماً بأن من بين المساهمين فى هذه الشركات أجانب .

أما الولايات المتحدة فقد وافقت على إجراءات التأميم التى اتخذتها حكومة المـكسيك فى سنــة ١٩٣٨ عند ما أممت شركات البترول ومن بينها عدد من الشركات الأمريكية . وقالت حكومة الولايات المتحدة فى هذا الشأن فى مذكرتها المقدمة للسفير المـكسيكى فى واشنطون فى ٣ ابريل سنة ١٩٤٠ « أن حكومة الولايات المتحدة تعترف بارتياح بحق كل دولة ذات سيــادة فى تأميم مرافقها للأغراض الوطنية » .

إن شركة القنــاة التى يسمونها شركة عالمية ليضفوا عليها هيبة مصطنعة ويحيطوها بهالة مفتعلة لاعتبارات تجارية هى فى الواقع شركة مصرية صميمة .

ففرمان ١٩ مارس ١٨٦٦ بالتصديق على العقد المبرم فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ بين فرديناند دى ليسبس ووالى مصر نص فى الفقرة الأولى من المادة السادسة عشر من هذا العقد على الآتى :

« بما أن الشركة العالمية لقناة السويس البحرية هى شركة مصرية ، فهى خاضعة لقوانين البلاد وعرفها » كما نصت الفقرة الثالثة من هذه المادة على ما يأتى « أما المنازعات التى تنشأ فى مصر بين الشركة والأفراد من أية جنسية كانت فتختص بالفصل فيها المحاكم المصرية تبعاً للأوضاع التى تقررها قوانين البلاد وعرفها وكذا المعاهدات . وتختص المحاكم المصرية بالفصل فى المنازعات التى قد تنشأ بين الحكومة المصرية والشركة ويقضى فيها طبقاً لقوانين البلاد المصرية» .

وقد اعترفت الحكومة البريطانية نفسها مراراً بهذه الحقيقة إذ جاء فى المذكرة المقدمة من وكيلها لمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية عام ١٩٣٩ فى القضية المعروفة بقضية « الوفاء بالعملة الذهبية » مايأتى « إن شركة قناة السويس شخص معنوى بحكم القانون المصرى الخاص وإن جنسيتها وصفتها مصرية بحتة ولا يمكن أن تكون غير ذلك وتسرى عليها حتما القوانين المصرية . حقاً إن هذه الشركة تأسست تحت اسم شركة قناة السويس البحرية العالمية ، ولكن ما هى النتائج القانونية التى ترتبت على هذه التسمية ؟ من الثابت أن هذه التسمية لا يترتب عليها بأى حال من الأحوال سلب الشركة جنسيتها المصرية فهى مصرية بحكم المبادىء القانونية العامة وعلى الأخص بحكم مبادىء القانون الدولى الخاص وعقد تأسيسها . إنها مصرية لأنها منحت التزاما منصباً على أملاك عامة مصرية ولأنه لا يتأتى أن تكون مصرية وغير مصرية فى الوقت ذاته أى أن تكون مصرية

وعالمية فإن ذلك يتنافى والمبادىء القانونية العامة » كما اعترفت الحكومة الانجليزية فى اتفاقية الجلاء المبرمة مع مصر سنة ١٩٥٤ بأن القناة جزء لا يتجزأ من مصر. وكذلك أكد القرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى اجتماعها عام ١٩٤٢ مبدأ « حق الأمم فى وضع ثرواتها ومواردها الطبيعية تحت تصرفها واستغلالها ، غير منازعة فى ذلك » .

ورغماً عن كل هذه الأسانيد القانونية وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره على هذه الصفحات فإن حكومات فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ردت على التأميم ببيان ثلاثى القصد منه تدويل القناة ، إذ جاء فى البند الرابع منه أن هذه الحكومات «ترى أنه يجب اتخاذ تدابير لضمان قيام القناة بوظيفتها وذلك بإنشاء إدارة لها تحت اشراف دولى » كما اقترحت عقد مؤتمر دولى فى لندن يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٦ .

رد الفعل بعد التأميم

بمجرد أن أعلنت مصر تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ بدأت كل من انجلترا وفرنسا تدرسان بعناية آثار التأميم على اقتصادياتهما . فوجدت انجلترا أن النتائج رهيبة وأكثر مما تتصور . لأن ثلاثة أرباع بترولها يأتى عبر قناة السويس وأى تفكير فى الدوران حول رأس الرجاء الصالح معناه زيادة مدة الرحلة أسبوعين وارتفاع تكاليف النقل بنسبة ٣٠ ٪ . كما أن انجلترا كانت تخشى أن تحذو البلاد العربية الأخرى حذو مصر بتأميم شركات البترول الانجليزية الموجودة بها . بل الواقع أن الغرب كله بدأ ينزعج على أمواله المستغلة فى بلاد

الشرق الأوسط والتى تبلغ قيمتها حوالى عشرة آلاف مليون جنيه .

ولذلك تم الاتفاق فى اليوم التالى ليوم التأميم بين كل من إيدن و بينو على استخدام القوة فوراً ضد مصر بدون الرجوع لحلفائهما فى حلف الأطلنطى. ولكن جاءت التقارير العسكرية لحكومة بينو على غير ما يهوى إذ تفيد أن فرنسا غير مستعدة لمهاجمة مصر . فأسطولها المرابط فى طولون يحتوى على حاملة طائرات واحدة بها خمسة وعشرين طائرة نفاثة فقط لا تستطيع الصمود أمام طائرات الميج ١٥، ١٧ المصرية . وأسرابها الأربعة من طائرات مستير المرابطة فى ألمانيا يلزمها عشرة أيام لكى تنقل لمناطق البحر الأبيض وتصبح معدة لشن الهجوم على مصر . كما تبين أن القوات البرية المرابطة فى الساحل الجنوبى الفرنسى وفى الجزائر والتى يبلغ عددها خمسة لواءات مشاة ليست لديها وسائل الهجوم من البحر . وأن لوائى جنود البراشوت اللذين كانا بالجزائر ينقصهما التمرين ويلزمهما أسبوعان على الأقل . فأصبح مؤكداً أن فرنسا غير مستعدة لشن أى هجوم سريع على مصر .

أما بالنسبة لانجلترا فكان لديها ثلاثة لواءات للبراشوت مرابطة فى قبرص ينقصها التمرين ويلزم إعادتها لانجلترا لعدم توفر أدوات التمرين فى قبرص . كما كان بتلك الجزيرة ثمانية لواءات مشاه ولكنها بغير مهمات الهجوم من البحر . وكانت أقرب مدفعية فى متناول اليد موجودة فى ألمانيا ، وجزء من فرقة المصفحات العاشرة موجود بليبيا وبدون وسيلة لنقله . أما قوات المشاه فى عدن وشرق أفريقيا فكانت كذلك بدون وسيلة لنقلها للهجوم على مصر . وفى نفس الوقت كانت انجلترا لا تملك طائرات مقاتلة حديثة بعيدة المدى فى منطقة الشرق الأوسط لأن كل ما كان لديها عبارة عن سربين من قاذفات القنابل كانبرا موجودة فى قواعد

تقع ببلاد عربية لا يمكن أن تسمح حكوماتها باستخدامها ضد مصر . وبالرغم من أن الأسطول البحرى الإنجليزى كان متوفراً بالبحر الأبيض إلا أن الطائرات الملحقة به كانت كلها عتيقة لا يمكنها منازلة طائرات الميج المصرية كما أن جميع الإنجليز الخبراء فى عمليات النقل والهجوم من البحر كانوا مبعثرين فى أنحاء المملكة المتحدة ويلزم استدعاؤهم لهذه العملية من تلك الجهات ، فضلا عن أن هذا الهجوم كان يحتاج لسبعين قطعة من حاملات الجنود **Landing Crafts** ولم يكن لدى انجلترا فى ذلك الوقت منها سوى قطعتين فقط . . . لذلك رأى كل من إيدن وبينو أنهما غير مستعدين للهجوم على مصر هجوما خاطفاً ولابد من تأجيل موعد الهجوم لحين إتمام الاستعداد الكافى له . فاتفق الاثنان على كسب الوقت بالمفاوضات .

فى تلك الأثناء كان ساسة الولايات المتحدة مشغولين بالمعركة الانتخابية لا يعطون أى اهتمام لموضوع تأميم القناة . كذلك فإن بلاد « النذر لاندز » **Netherlands** كانت مشغولة عن التأميم بالشجار العلنى بين الملكة جوليانا وزوجها. يقابل هذا أن بلاد الكتلة الشرقية والبلاد الأسيوية كانت تؤيد مصر فى تأميم القناة . . . وإزاء هذه الظروف كاد إيدن وبينو أن يعدلا عن فكرة الهجوم على مصر ويسلما بالأمر الواقع ، إلا أن الصحف الإنجليزية مثل الإكسبريس والميل والتليجراف والتيمز ظلت تعبىء شعور الإنجليز ضد التأميم وتطالب إيدن باستعمال القوة ضد عبد الناصر ، وحتى مجلس العموم ذاته فى اجتماعه يوم ٢ أغسطس سنة ١٩٥٦ اتضح بعد مناقشته موضوع التأميم أن أغلب أعضائه من محافظين وعمال على السواء يطلبون استخدام القوة ضد مصر . فاتصل إيدن بدالاس يستطلعه

الرأى . فاقترح عليه الأخير عقد مؤتمر من الدول التى تستخدم القناة لبحث التأميم على أساس تدويل القناة . فوافق إيدن بطبيعة الحال على هذا الاقتراح لعلمه بأن مصر سترفض أى قرار يتخذه المؤتمر بالتدويل ... وهكذا جاء اقتراح دالاس بعقد المؤتمر فرصة لانجلترا وفرنسا لكسب عطف أمريكا وكسب الوقت وتوفير المبررات لاستخدام القوة ضد مصر فيما بعد حين تنتهى محاولات المؤتمر بالفشل .

لم تكتف انجلترا وفرنسا بما أصابتاه من توفيق فى خطتهما حتى تلك اللحظة ، بل أرادتا أن تمعنا فى الخطة وتوسعا نطاقها باتخاذ اجراءات استفزازية ضد مصر قد تجعلها تفقد أعصابها وترتكب خطأ ما يساعد على زيادة تأزم الموقف وزيادة تأييد أمريكا لهما فى أى موقف يتخذانه حيالها . فجمدت الدولتان أموال الشركة المؤممة بانجلترا وفرنسا . وجمدت انجلترا أرصدة مصر من الاسترلينى وقدرها حوالى ١٢٠ مليون جنيه ، وكذلك الحسابات التجارية الخاصة بالرعايا المصريين والجارية مع البنوك الإنجليزية . ثم أصدرت الدولتان تعليماتهما للشركات الملاحية التابعة لهما بعدم دفع رسوم عبور القناة للهيئة المصرية أملا فى أن تمنع الهيئة هذه السفن من العبور فيقال أن مصر لا تحترم حرية الملاحة بالقناة . ثم فرضتا حصاراً اقتصاديا قوياً على مصر بمنع بيوتها ومؤسساتها التجارية من البيع لمصر أو الشراء منها بأى شكل وأخذتا تحرضان وتغريان موظفى ومرشدى هيئة القناة على ترك العمل... ولكن هذه الحركات الاستفزازية فشلت على طول الخط لأن مصر وقفت منها موقفاً هادئاً دل على أنها تمالكت نفسها وسيطرت على هدوئها وكأنما وضعت أعصابها داخل ثلاجة محكمة . . . وكان العالم يدهش حقاً لهذا التغير الكبير فى الأوضاع ، فانجلترا الباردة أصبحت تغلى ، ومصر الملتهبة أصبحت كالثلج .

صدى تأميم شركة القناة .

ما كاد يذاع نبأ تأميم شركة القناة حتى كان لهذا القرار دوى هائل فى جميع أنحاء العالم ، وكان أمراً عجيباً هذا الدوى فالمسألة لم تتعد أن دولة مستقلة قد باشرت حقها المشروع فى تأميم مرفق من مرافقها .

فالدول المنصفة غير ذات المطامع الاستعمارية قد رحبت به ترحيباً شديدا والدول الصديقة قد اعتبرته أمراً لا مناص من مباشرته . فرحبت الهند وروسيا ويوجوسلافيا وأندونيسيا والشقيقات العربيات وجميع الدول الحرة فى آسـيا وأفريقية . وعلقت الصحافة المنصفة فى جميع أنحاء العالم على القرار تعليقات عاقلة .

أما دوائر الغرب وخاصة فى انجلترا وفرنسا فقد أصيبت بما يشبه الجنون وأخذت التصريحات غير المهذبة والألفاظ النابية تصدر من أفواه كبار الساسة فى الدولتين الكبيرتين و بدأت صحافتهما تدق طبول الحرب وتدعو إلى التعبئة العامة. وكان بعضها يدعو إلى ذلك عن إيمان والبعض الآخر يدعو بالأجر فلقد نشطت الشركة المنحلة وهى تملك بضعة ملايين من الجنيهات فى بنوك أوربا توزع الأموال على الصحف لكى تلقى الحطب على النار وقد شاء حظها السيء أن جريدة من ذوات الرأى هى جريدة ليبراسيون تتسلم شيكا من الشركة المذكورة بمبلغ مائة جنيه لكى تبيع أقلامها لها ولكن الجريدة النظيفة رفضت قيمة الشيك ونشرت صورته فى صفحاتها الأولى فكانت فضيحة كبرى .

المهم أن انجلترا وفرنسا فقدتا كثيراً من أعصابهما و بدأتا تلوحان بالحرب .

وأما أمريكا فلم يظهر أثرها سريعاً لأن ساستها كانوا مشغولين بحملة انتخابات الرياسة.

أخذت صحافة العالم تنشر العناوين المثيرة على صفحاتها الأولى وكانت الإذاعات على اختلاف ميولها تضع أخبار التأميم وأخبار مصر فى المقدمة دائما .

والواقع أن الدول المناهضة للتأميم ممثلة فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا قد اصيبت بالاضطراب الشديد وكان لابد من عرض المسألة على هيئة الأمم المتحدة طالما أنها تهدد السلام العالمى ومن وجهة نظرهم ولكن الغرب الذى ألف الأمم المتحدة كأداة لتنفيذ أغراضه خشى أن يصاب بهزيمة نكراء ، ذلك أن الأعضاء قد ارتفع عددهم إلى ٧٦ عضوا الأمر الذى جعل دول الغرب تخشى على مشروعاتها إن هى عرضتها فى تلك الظروف ففكرت فى أن تقوم بإنشاء جمعية أمم أخرى تختار أعضاءها على هواها فاقترحت ما أسمته بمؤتمر لندن .

مؤتمر لندن

كان هذا المؤتمر من أعجب المسرحيات الدولية التى مثلتها إنجلترا وفرنسا أو مظهراً جلياً من مظاهر التحيز للمصالح الإنجليزية والفرنسية دون غيرها . فقد وجهت الدعوة إلى ٢٤ دولة فقط من ٤٥ دولة تستعمل القناة . وكان من بين الدول التى دعيت دول غير موقعة على اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨ مثل أثيوبيا والباكستان . ولعل إنجلترا وفرنسا استندتا فى ذلك إلى ماجاء بهذه الاتفاقية خاصاً بحق الدول التى لها مصلحة فى استخدام القناة فى حضور مثل هذا المؤتمر . ولكن إذا كان الأمر هكذا فكان الأولى أن تدعى بولندا ويوجوسلافيا مثلا وهما صاحبتا مصلحة فى استخدام القناة أكثر من مصلحة أثيوبيا والباكستان كما يتبين ذلك بجلاء من مجموعة حمولة سفن هذه الدول التى عبرت القناة عام

١٩٥٥ وهى على التوالى : بولندا ٨٣٦ر٤٢٧ طن ، ويوجوسلافيا ١٨٠ر٣٨٠ طن، الباكستان ١٥٠ر٤٦٦ طن ، أثيوبيا ٢٦ر٣٢٤ طن... فضلا عن أن البلاد العربية كالمملكة العربية السعودية والأردن وسوريا والسودان وليبيا واليمن ومراكش وتونس لم تدع المؤتمر وهى جارات لمصر ودول تقع فى الإقليم المحيط بقناة السويس ويهمها بلا شك الوصول إلى حل سليم فى هذا الموضوع حفظا على مصالحها الاقتصادية والسياسية ... ولكن متى كانت إنجلترا وفرنسا تفكران فى مصالح الغير ؟

سار المؤتمر يتخبط ويجتمع مرة بعد مرة وتنفض اجتماعاته دون الوصول إلى نتيجة ، ولم يكن من الممكن أبدا لأغلب الدول المجتمعة أن تحترم هذا المؤتمر وتحترم تكوينه وأسلوبه ، لأنه فى الوقت الذى وقفت بعض الدول تعلن وتكرر أنه يجب على المؤتمرين أن يعملوا على معالجة الأمور بالطرق السلمية التى تحفظ السلام العالمى وألا تلجأ الدول المتنازعة حول القناة إلى الضغط أو العنف بأى شكل فإن إنجلترا وفرنسا كانتا تتخذان استعدادات عسكرية على نطاق واسع ملموس ، وكان ساستهما يعلنون فى الصحف وفى التصريحات الرسمية عن عزمهما الأكيد على استخدام القوة لتدويل القناة ... بل أكثر من هذا فقد أخذت فرنسا بالذات تعمل على عرقلة الملاحة فى القناة بمحاولة سحب المرشدين والموظفين الأجانب من الشركة بإغرائهم بمرتب سنتين وبوظيفة جديدة إذا ظلوا موالين لها ونفذوا مؤامرة الانسحاب .

أن اعتراف حكومات إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة فى مذكرتهم المؤرخة ٢ أغسطس ١٩٥٦ بحق مصر كدولة مستقلة ذات سيادة فى تأميم مرافقها الخاصة

ينحصر مشكلة القناة بعد ذلك فى نقطتين ، هما حرية الملاحة وتعويض حملة الأسهم . وقد اهتمت مصر بهاتين النقطتين وراعتهما كل الرعاية عندما اقترحت فى مذكرتها المقدمة فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٦ عقد مؤتمر لبحث مشكلة القناة تشترك فيه جميع الدول الموقعة على اتفاقية ١٨٨٨ وجميع الدول التى تستخدم القناة مع تأكيـــداتها المتكررة بتعهدها بالمحافظة على حرية الملاحة بالقناة لجميع الدول .

ويتفق مع مصر فى هذا الرأى ، المشروع الذى قدمته الهند للمؤتمر والذى يعترف صراحة بملكية مصر لقنـاة السويس وحقوق السيادة المصرية ويقترح تكوين هيئة استشارية بجانب الهيئة المصرية لإدارة قناة السويس تمثل مصالح المنتفعين بالقناة وتشكل على أساس المصالح الجغرافية للدول المستعملة للقناة .

أما مشروع الولايات المتحدة فقد نص على أن تدار القناة بواسطة مجلس يشترك فى عضويته بجانب مصر الدول التى يختارها الموقعون على اتفاقية ١٨٨٨ . ومعنى هذا قيام رقابة أجنبية على القناة وتجريد مصر من حقوقها المشروعة .

وبالرغم من أن ١٨ دولة أيدت المشروع الأمريكى فإن المؤتمر فى نهايته تمخض عن لا شىء وذلك باتخاذ قرار وحيد وهو أن طالب المؤتمرون إلى رئيس المؤتمر أن ينقل إلى الحكومة المصرية تقريراً حرفياً عن كل ما دار فى المؤتمر .

ولا عجب فى هذا فإن ثمانين مليوناً من العرب هزوا العالم فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٦ أول يوم للمؤتمر بأن وقفوا متضامنين مع مصر فى كل مكان مضربين إضراباً عاماً احتجاجاً على المؤتمر . . . فكان ذلك هو النذير بفشل المؤتمر .

الواقع أن مؤتمر لنـــدن لم يكن سوى لعبة سياسية يقصد بها إحراج مصر

وتور يطها أمام دول العالم بأن يتخذ المؤتمر قراراً يصيب مصر فى سيادتها وكرامتها ومن المعروف لانجلترا وفرنسا أن مصر لم تكن مستعدة لأن تقبل شيئاً من هذا مهما تكن الظروف والنتائج ، وبذلك تبدو كأنها هى المعتدية على حقوق ومصالح الدول التى تستخدم القناة وتأخذ صورة الدولة العنيدة الممعنة فى عنادها بغير وجه حق فيصبح الجو مهيأ لكل من انجلترا وفرنسا لتنفيذ أهدافهما الحقيقية متسترين وراء هذه الصورة المصطنعة التى اختلقوها وهذا الشعور بالسخط الذى يكون قد انتشر وقتئذ بين أغلب دول المؤتمر نحو مصر .

لجنة منزيس

توجهت بعد ذلك اللجنة التى أوصى المؤتمر بتشكيلها برئاسة منزيس إلى القاهرة وليس معها أى مبدأ للمفاوضة حوله ولا أى تفويض من المؤتمر للتباحث مع مصر فى أى شىء . بل جاءت اللجنة العجيبة لتبلغ مصر ما دار فى المؤتمر وتطلب منها الموافقة على تدويل القناة . أى أنها جاءت للقاهرة لتسمع كلمة « لا » وتعود ، ثم استناداً إلى « لا » هذه يبدأ الهجوم العسكرى على مصر ! وفعلا كان موعد الهجوم موقتاً بانتهاء مهمة اللجنة فى القاهرة . وعين الجنرال تشارلز كيتلى قائداً للحملة الإنجليزية الفرنسية ... ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان وتأجل الهجوم سبعة أسابيع .

جمعية المنتفعين

فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٦ أعلن دالاس عن مشروع جديد يحل أزمة القناة أسماه جمعية المنتفعين . وهو عبارة عن جمعية تضم الدول التى تستخدم القناة وتقدم المرشدين لسفن أعضائها لإرشادها عبر قناة السويس على أن تدفع هذه السفن رسوم العبور لهذه الجمعية ، وتلزم هيئة قناة السويس المصرية بالتعاون معها وإلا تستخدم القوة ضد مصر ... ثم عاد دالاس بعد يوم واحد من هذا الإعلان يغير ويحرف فيه مؤكداً أنه لم يقصد أبداً استخدام القوة لإلزام مصر بالتعاون مع جمعية المنتفعين . بل ذهب لأبعد من هذا فصرح بأن هذه الجمعية ستسير سفنها حول رأس الرجاء الصالح إذا رفضت الهيئة المصرية التعاون معها . وقد جاء هذا التصريح الذى أصاب إنجلترا بامتعاض شـديد كنوع من الدعاية الانتخابية فى معركة الانتخابات التى كانت دائرة فى الولايات المتحدة لترضية الشعب الأمريكى الذى كان يريد أن ينتخب حكومة تحقق السلام العالمى وتبعد شبح الحرب أو أية اشتباكات عسكرية فى العالم . . وفى اليوم التالى أى فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٥٦ اجتمع مجلس العموم البريطانى وناقش مشروع جمعية المنتفعين على ضوء تصريحات دالاس الأخيرة وطلب من إيدن التعهد بعدم الالتجاء إلى القوة ضد مصر والالتزام بعرض الأمر على مجلس الأمن فى حالة رفضها التعاون مع جمعية المنتفعين . فتعهد بذلك على مضض .

وفى مجلس الأمن اتفق على أن يجتمع الدكتور فوزى وزير خارجية مصر مع بينو وسلوين لويد وزيرى خارجية فرنسا وانجلترا اجتماعا خاصاً فى ٩ أكتوبر

سنة ١٩٥٦ حيث استطاع وزراء الخارجية الثلاث أن يصلوا إلى ست نقاط تقرر أن يجتمعوا ثانية لعمل اتفاقية نهائية على أساسها فى جنيف فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦

الغـــدر والإصرار على الحرب

كانت كل من انجلترا وفرنسا تعلمان حق العلم أن مؤتمراً هذه طبيعته لا بد أن ينتهى بالفشل، ولم يكن هدف الدولتين الوصول إلى نتيجة مرضية إذ لو أرادتا ذلك لوجدتاها فى مشروع مينون الهندى ولـكن هدفهما البعيد كان إعلان الحرب على مصر بأى ثمن للتخلص من الحـكم التحررى الذى يقودها ويقود العرب جميعاً معها على نفس الدرب .

انتهى مؤتمر لنـدن بموافقة ثمانى عشرة دولة على المشروع الأمريكى الذى يتلخص فى تدويل القنـاة بإنشاء مجلس يسمى مجلس قناة السويس تـكون مصر عضواً فيه وأن تنال بمقتضاه بعض الفتات من دخل قناتها .

وكان معنى ذلك التنـكر لاستقلال مصر واغتصاب قطعة غالية من أرضها . ثم وقع الاختيار على مندوبى خمس دول من بين التى وافقت على المشروع لـكى تبلغه لمصر واختير منزيس مندوب أستراليا ورئيس وزرائها رئيساً لهذه اللجنة كما أشرنا من قبل وهو شخص استعمارى اشتهر بالحماقة وضيق الأفق وكانت كل مهمته حينما وصل إلى مصر أن يبلغ الرئيس جمـال عبد الناصر مقررات المؤتمر ولم يكن مسموحاً له أى لمنزيس أن يناقش أى نقطة من نقاط المشروع مع المصريين .

وكانت هذه الظاهرة من الظواهر التى تدعو إلى السخرية لا فى مصر وحدها ولـكن فى جميع أنحاء العـالم ، إذ كيف يسمح رئيس وزراء دولة لنفسه أن

يقوم بدور ساعى البريد وقد اصطحب معه أربعة ممثلين لأربع دول أخرى ! !

كانت للجنة منزيس هذه مواقف معينة فى مصر أثارت كثيراً من الإشفاق على الرجل الجسيم المكتنز لحماً الفارع طولا الذى كان يحاول له أن يسمى اللجنة باسمه الشخصى .

كانت انجلترا وفرنسا تعلمان مقدماً أن مشروعاً كهذا الذى يحمله منزيس مصيره الرفض الأكيد ولذلك فقد كانتا تستعدان للحرب .

المهم أن منزيس هذا حينما عاد إلى لندن لكى يقدم تقريره إلى المؤتمر فوجىء بأن المؤتمر قد انفض فلم يجد من يقدم إليه تقريره وأخيراً قدمه إلى غير المسئولين ممن أختاروه لكى يمثل وجهة نظرهم .

إن نذر الحرب كانت فى ذلك الوقت تدق الأسماع فالسفن الحربية وحاملات الجنود تتجه كل يوم إلى قبرص حاملة الجنود الإنجليز والفرنسيين ، والحشود تزداد يوما بعد يوم وتسارع بريطانيا إلى دعوة الاحتياطى العام ، والسيارات الحربية والدبابات تطلى باللون الأصفر لون صحراء السويس ،والأسطول البريطانى يتجمع فى مالطة ، والطائرات الضخمة من طراز كانبيرا وهنتر تترك حظائرها فى ألمانيا المحتلة لكى تتوزع على مطارات قريبة من مصر ، وناقلات الدبابات وكاسحات الألغام تنتفض وتنشط .

وكتائب المشاة الفرنسية تتجمع فى مرسيليا مستعدة للابحار فى أسرع وقت واتفاقات سرية تبرم بين إسرائيل وفرنسا ، وأسراب من طائرات المستير الفرنسية بطياريها الفرنسيين تتجه إلى مطارات فلسطين المحتلة إلى غير ذلك من نذر الحرب الأكيدة التى بدأت تتجمع سحبها فى الأفق القريب والبعيد .

إن الغدر والاعتداء يجرى فى أدمغة الحاكمين فى كل من إنجلترا وفرنسا مهما تفتحت السبل لحل قضية القناة .

المسألة ليست مسألة قناة ولكنها نفوذ استعمارى يريد أن يبسط سلطانه من جديد ومعاول هدم للروح النشطة المتحررة العملاقة التى بدأت تزيح كل ألوان الكسل وأدران العبودية عن كواهلها ومادامت النية مبيتة لإعادة الاستعمار وإطالة ما قد تقلم من أظفار الإمبراطورية فلا سبيل إلى تبصير الحاكمين الغربيين بالنتائج الوخيمة التى تعود على بلادهم وعلى أشخاصهم من جراء جريهم وراء شهواتهم العدوانية .

إنهم يرتبون الغدر وقد ظنوا أن أنظار العالم غير قادرة على كشف خططهم فهم بعد أن تأكدوا من رفض جمال عبد الناصر للمشروع الأمريكى الذى حمله مندوبهم الاسترالى ورفقاؤه رتبوا سحب المرشدين الأجانب الأمر الذى يعطل الملاحة فى القنال فتهدد أوربا مجاعة بترولية مما يجعل تدخلهم العسكرى أمرا محتوما من وجهة نظر مؤيديهم على الأقل ، كل ذلك يجرى والصحافة الاستعمارية ممثلة فى الديلى ميل والديلى إكسبريس والديلى تلجراف والديلى سكتش تمهد للاعتداء ، حتى جريدة التيمز المعروفة باتزانها بدأت تنزلق هى الأخرى نحو تمجيد الاعتداء ثم ما لبثت أن ثابت إلى رشدها فحملت من جديد على فكرة الحرب حملة شعواء ، إلا أن ذلك كله لم يجد فتيلا ، فجيوش الاعتداء على أهبة الاستعداد للانقضاض .

تأخر الهجوم :

الأمر الذى يبدو لبعض المراقبين ، أن أمريكا لم تكن تريد لهذه الحرب أن تأخذ طريقها إلى الوجود بهذه السرعة ، ولم يكن السبب فى ذلك حبها لمصر وقادة مصر ، بل العكس فقد كانت تصرفاتها غير الموفقة حينما سحبت تمويل مشروع السد العالى إحدى الأسباب التى سارعت بالموقف إلى هذه النهاية ، ولكن كراهيتها للحرب العاجلة كانت لأن الجمهوريين جاءوا إلى الحكم سنة ١٩٥٢ على أساس إنهاء حرب كوريا ولذلك انتخبهم الشعب الأمريكى فليس من المعقول إذن أن يتجدد حكمهم وقد ساهموا فى حرب جديدة فى أكثر مناطق العالم حساسية مما يهدد بقيام حرب عالمية طاحنة .

ولذلك فقد عارض دالاس فكرة الحرب بشدة أو على الأقل مثل دور غير الراغب فيها و إن كان طامعا فى الوصول إلى نتيجة يدول بها القناة ويذل بها مصر فليس من شك فى أنه لا يحب مصر ، هذا فضلا عن أن لأمريكا مصالح حيوية فى المنطقة وخاصة فى المملكة العربية السعودية حيث البترول الثمين والسعودية شقيقة لمصر ومجرد اشتراك أمريكا أو تشجيعها لفكرة غزو مصر جدير بتحطيم كل مصالحها فى الشرق العربى فى لمح البصر .

و إذن فهناك عوامل كثيرة جعلت أمريكا تقاوم فكرة الاعتداء فأخذت تفكر وتمكر إلى أن طلعت على دول مؤتمر لندن بما أطلقت عليه جمعية المنتفعين بقناة السويس ، وكان مشروعا سخيفا لا يمكن تنفيذه ، إلا أن إنجلترا وفرنسا أيدتاه أول الأمر وكان بودهما ألا يصادف المشروع نجاحا حتى يسيرا فى شوط العدوان إلى نهايته .

سحب المرشدين الأجانب :

كانت الأمور تسير فى منطقة القناة على مايرام والملاحة منتظمة كأحسن ما تكون فنحن فى شهر سبتمبر أجمل شهور السنة على صفحة القناة فى كل من السويس وبورسعيد ، وإذن فلا بد للدولتين الحانقتين من عمل شيء سريع يبرر تدخلهما المسلح فأوعزتا إلى المرشدين والفنيين الأجانب أن يتركوا أعمالهم حتى تتعطل الملاحة ، وقد رغبوهم إلى ذلك بوعود خلابة وصرف مبالغ طائلة من الأموال. وبالفعل ترك هؤلاء المرشدون المضللون أعمالهم وسافروا إلى بلادهم ، ولم تحاول مصر أن تمنع واحدا منهم من السفر ولكن المرشدين المصريين المخلصين العباقرة واصلوا ليلهم بنهارهم يعاونهم إخوانهم اليونانيون الذين اتخذوا من مصر وطنا ثانيا لهم ، كل هؤلاء بالإضافة إلى بعض المرشدين الوافدين من روسيا والمانيا ويوجوسلافيا قد حملوا العبء بمهارة وإخلاص جعلهم موضع الاعجاب والاحترام بين أمم العالم المنصفة فلم تتعطل الملاحة فى القناة وبذلك ضاعت الفرصة مرة أخرى على المعتدين .

إن الظروف فوتت عليهم كل الفرص التى يمكن أن يغتنموها وكان فى الإمكان أن يذعنوا لمجريات الأمور العادلة فيعرضوا المفاوضة الهادئة العاقلة ، ولكنهم لم يفعلوا بل لم يحاولوا أن يفعلوا .

اسرائيل مخلب قط

كل هذه الاتصالات والمفاوضات لم تكن فى الواقع إلا ستاراً لتغطية نوايا الإنجليز والفرنسيين ، إذ لجأت الدولتان لإسرائيل لاتخاذها مخلب قط فى الهجوم على مصر . ففى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وقعت فرنسا مع إسرائيل اتفاقية عسكرية سرية ، وفى ١٦ أكتوبر تسلم بن جوريون برقية سرية من فرنسا تخطره بأن يستعد لتنفيذ خطة الهجوم على مصر وتطمئنه أنه يمكنه الاعتماد على انجلترا . وقد وقعت صورة هذه البرقية فيما بعد فى يد وزارة الخارجية الأمريكية . فشجعت هذه البرقية بن جوريون على الوقوف فى الكنيست فى اليوم التالى —أى فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ليعلن أن مصر هى العدو الحقيقى لإسرائيل . . . وهكذا أصبح مقرراً أن يبدأ الهجوم يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ طبقاً للخطة السرية والمؤامرة الثلاثية التى كانوا يطلقون عليها « عملية الفرسان » .

الهجوم العام

بدأ الهجوم العام فى الساعة الرابعة والنصف صباح يوم الاثنين الموافق ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ باعتداء اسرائيل على الأراضى المصرية و بذلك تقدم عن موعده تسعة أيام نتيجة لتحذير أيزنهاور لإسرائيل على أثر انعقاد لجنة دول البيان الثلاثى فى يوم ٢٦ أكتوبر مما جعل بن جوريون يعجل بالهجوم قبل أن يتحول تحذير أيزنهاور إلى قرار حاسم يمنع أى تحرش بمصر أو وقوع أية اشتباكات عسكرية بالمنطقة فتضطرب الدول الثلاث المتآمرة وتفوت عليها فرصة العدوان على مصر وتلغى «عملية الفرسان».

بعد هجوم إسرائيل بيوم واحد — أى فى يوم الثلاثاء ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ — أرسلت انجلترا وفرنسا إنذارهما المعروف والذى نص على أنه « على مصر وإسرائيل وقف العمليات الحربية وسحب قواتهما مسافة تبلغ عشرة أميال على جانبى القناة فى خلال ١٢ ساعة تنتهى فى الساعة ٦ر٣٠ من صباح الأربعاء ٣١ أكتوبر. وأنه إذا لم توقف الدولتان المعتديتان — أو إحداهما — القتال فإن بريطانيا وفرنسا ستطلبان من مصر السماح لهما باتخاذ مراكز لهما فى بور سعيد والإسماعيلية والسويس على أن يكون ذلك بصفة مؤقتة.

فى نفس اليوم الذى أرسلت فيه انجلترا وفرنسا إنذارهما لمصر وإسرائيل - أى الثلاثاء ٣٠ أكتوبر — اجتمع مجلس الأمن اجتماعا غير عادى ، وأصدر أيزنهاور تعليماته لكابوت لودج مندوبه فى المجلس أن يعمل على إيقاف التدخل العسكرى من جانب انجلترا وفرنسا بأى شكل ، فاقترح لودج على المجلس أن تنسحب إسرائيل إلى أراضيها وتمنع عنها كل مساعدة فنال الاقتراح سبعة أصوات ضد صوتى انجلترا وفرنسا وامتنعت أستراليا وبلجيكا عن التصويت . ولكن انجلترا وفرنسا أوقفتا العمل بهذا الاقتراح بالفيتو .

ثم تقدمت روسيا باقتراح جديد بوقف إطلاق النار وانسحاب إسرائيل إلى خطوط هدنة سنة ١٩٤٨ . فامتنعت أمريكا وبلجيكا عن التصويت وأيدت باقى الدول الاقتراح ما عدا انجلترا وفرنسا اللتين عادتا توقفانه بالفيتو . . . وهكذا أصبح واضحاً أن انجلترا متمسكة بإنذارها وأنها تعارض كل الحلول المقترحة لوقف العمليات العسكرية ، فانكشفت نواياها ، وثبتت مخالفتها لميثاق الأمم المتحدة ،

وفقدت تأييد الدول الأعضاء فى الـكومنولث وعطف ربة نعمتها أمريكا .

وفى مساء الأربعاء ٣١ أكتوبر اقترحت يوغوسلافيا على مجلس الأمن دعوة الجمعية العـــامة لهيئة الأمم إلى اجتماع غير عادى . فوافقت على ذلك سبعة دول وامتنعت عن التصويت استراليا و بلجيكا ، ولم تتمكن انجلترا وفرنسا فى هذه المرة من إيقاف الاقتراح بالفيتو لأنه « اقتراح إجرائى **Procedural Resolution** » لا يجوز فيه استخدام الفيتو .

ثم فى مساء الجمعة الموافق ٢ نوفمبر ، اجتمعت الجمعية العامة غير العادية لهيئة الأمم وأصدرت قراراً بوقف إطلاق النار فوراً بأغلبية ساحقة — ٤٦ صوت ضد خمسة . ولـكن انجلترا رفضت القرار واستمرت فى هجومها العسكرى على مصر .

وفى صباح اليوم التالى السبت الموافق ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ وقف إيدن فى مجلس العموم يخطر الأعضاء بقرار الجمعية العامة و بأن انجلترا غير مستعدة لوقف العمليات الحربية إلا بثلاثة شروط ، هى: (١) أن توافق مصر و إسرائيل على قيام قوة بوليس دولى لحفظ السلام . (٢) أن توافق هيئة الأمم على استمرار هذه القوة إلى أن تعقد اتفاقية صلح بين العرب و إسرائيل و يتم الاتفاق بشأن قناة السويس . (٣) أن تقبل مصر و إسرائيل مرابطة بعض القوات الانجليزية والفرنسية بينهما لحين اتمام تـكوين قوة البوليس الدولى . فـكان فرض هذه الشروط بمثابة تعبير صريح عن رفض قرار الجمعية العامة . و بهذا الموقف العنيد الذى دل على منتهى تمادى ايدن فى الخطأ وتحديه للجمعية العامة لهيئة الأمم بدأت نهاية االسياسى المتهور إذ أخذ المواطنون الانجليز يعقدون الاجتماعات و يصدرون النشرات احتجاجاً على سياسته . . . وانهالت آلاف البرقيات على « دوننج

ستريت » — مقر الوزارة — تحمل على رئيسها وتتهمه بشتى الاتهامات . . . وأخذت جميع الصحف الانجليزية بدون استثناء تعبر عن امتعاضها لتصرفات ايدن بكل أسلوب ، حتى أن بعضها كتب يقول « أنتونى ايدن يجب أن يذهب » مثل الأوبزيرفر والمانشستر جارديان كما قامت مظاهرات كبيرة فى ميدان الطرف الأغر حضرها ثلاثون ألف مواطن انجليزى وزعماء حزب العمال حيث تناوب الخطباء مهاجمة ايدن وطالبوا « بالقانون لا الحرب » ثم انتهت المظاهرة بهتافات مدوية بأن « ايدن يجب أن يذهب » . . . وهكذا بدأت تتبلور فكرة التخلص من ايدن .

الهجوم على بور سعيد

رغم كل هذ الطعن على سياسة الحكومة البريطانية ومعارضة الرأى العام الانجليزى والعالمى للهجوم على مصر وخاصة بعد أن وافقت مصر و اسرائيل أنفسهما على قرار وقف القتال ، فإن القوات الانجليزية استمرت فى هجومها الغاشم وبدأت تسقط قوات مظلاتها فى بور سعيد صباح الاثنين الموافق ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ إذ هبط حوالى ثلاثة آلاف جندى انجليزى وفرنسى حول المدينة غرباً وجنوباً وشرقاً وحدثت معارك عنيفة سيأتى ذكرها فيما بعد .

وفى نفس اليوم استمرت أخبار القتال تصل إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة . فاقترحت كندا أن يقوم السكرتير العام للجمعية فى ظرف ثمانية وأربعين ساعة بتجهيز قوات بوليس دولى لتحقيق وقف القتال طبقاً لقرار ٢ نوفمبر . ووافقت سبعة وخمسون دولة على الاقتراح وامتنعت تسعة دول عن التصويت .

أما فى مجلس العموم البريطانى فقد دخل إيدن كالظافر المنتصر يعلن فى ذلك اليوم أن محافظ بور سعيد والقائد المصرى بها يبحثان شروط التسليم مع البريجادير بتلر . وبهذا الخبر البسيط الذى أن حمل صدقا فلا أكثر من نصر عسكرى هزيل انطلقت هتافات الأعضاء داخل مجلس العموم منتشية بالانتصار . . فيا عجبا لهولاء الساسة الكبار والسادة الديموقراطيين الذين كانوا من ساعات قليلة يستنكرون تصرفات إيدن الحمقاء ويصيحون فى وجهه بأن ينسحب من الوزارة وهم يندبون حظهم التعس الذى جعلهم محتقرين فى نظر أصدقائهم فى كل مكان وفى نظر زملائهم أعضاء الكومنولث وعند ربة نعمتهم الولايات المتحدة . كل هذه الاحساسات الحزينة وهذا الشعور بتأنيب الضمير انتهى بهذا الخبر الهزيل الذى أذاعه إيدن كما ينتهى موج البحر الصاخب عندما يلمس رمال الشاطىء الناعمة . والواقع أن إيدن كان كاذباً لأن القتال كان مستمراً فى بور سعيد وزادت حدته وارتفعت حرارته وتحول من هجوم من الجو فقط إلى هجوم من البحر والجو معاً مما اضطر القيادة الانجليزية الفرنسية لأن تعلن فى اليوم التالى الموافق الثلاثاء ٦ نوفمبر بأن القتال ما زال مستمراً وأنه ازداد عنفاً . . وهكذا تبين لأعضاء مجلس العموم كذب إيدن مرة أخرى .

ثم بدأت أخبار القتال فى بور سعيد تنكمش وتصبح ثانوية فى المحافل الدولية بجانب تلك الأخبار الجبارة التى انبعثت كالمارد من حيث لا يتوقعون معلنة الانذار الروسى الشهير . وعلى ذلك وقف إيدن يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر فى مجلس العموم يعلن بصفة قاطعة أن الجيوش الإنجليزية ستوقف القتال فى منتصف الليل .

أما فى القاهرة والاسكندرية والاسماعيلية والسويس وجميع مدن وقرى

القطر المصرى فقد كانت بور سعيد قبلة كل مصرى وكان الشعب عن بكرة أبيه يريد أن يفدى بورسعيد . فسار الشباب فى الشوارع فى صفوف طويلة حاملا السلاح يردد فى أصرار و إيمان قوى « سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل . » وكانت نصف مليون قطعة سلاح أو تزيد وزعت على الشعب وأصبحت مصوبة إلى صدور الأعداء تنتظر ملاقاتهم فى كل مكان . وتحولت المنازل إلى قلاع والحدائق والميادين إلى حصون ، وقفت القوات المسلحة بجانب الشعب وأصبحت مصر كلها مستعدة للقتال . وأخذت الإذاعة تنادى على أبطال بورسعيد وتحثهم على القتال وتشجعهم على الصمود أمام الاعداء فازداد اصرارهم على الدفاع ومنازلة المهاجمين حتى سجلت هذه المدينة الباسلة أروع قصص من البطولة والفداء التى جعلتها فى مصاف الخالدين .

موقف أمريكا وروسيـــا

ليس من شك فى أن أمريكا قد ذعرت حينما فوجئت بسرعة نشوب الحرب فى منطقة السويس ووقفت ضد رغبة حلفائها الثلاثة انجلترا وفرنسا و إسرائيل واستعملت حق الفيتو لأول مرة فى التاريخ ضد حلفائها وهى بذلك تبدو معارضة مستنكرة لهذا الاعتداء الذى تم الاستعداد له فى تكتم شديد من وراء ظهرها ثم هى بعد استعمال الفيتو ضد حلفائها قد طلبت إليهم أكثر من مرة أن يمتنعوا عن الاستمرار فى الحرب ولكنهم لم يستمعوا إليها ، هكذا يقول بعض المراقبين .

فهل كانت أمريكا غاضبة حقيقة بسبب الاعتداء أم أنها غاضبة لأنها لم تستشر فى الاعتداء ؟ .

إن الرأى العام العربى والمحايد يقول بالفكرة الثانية وهى أن أمريكا كانت غاضبة على حلفائها لأنها لم تستشر فى الاعتداء والدليل على ذلك أنها لم تحاول اتخاذ إجراءات إيجابية سريعة نحوهم ولم تحاول أن تنزل بهم أى نوع من العقاب السريع وحينما طلبت روسيا إليها أن يتعاونا معا فى إيقاف الاعتداء و إنزال بعض العقوبات بالمعتدين رفضت أيضاً ، وهى إن كانت قد أظهرت الغضب فليس من أجل مصر و إنما من أجل مركز حكومتها الحرج وقت الانتخابات إذ المعروف أن الاعتـــداء حدث وقت انشغال الأمريكيين بانتخاب الرياسة ومعروف أن ايزنهاور قد ربح معركة رياسته الأولى حينما وعد الشعب الأمريكى بإنهاء مجزرة كوريا و إعادة الشباب الأمريكى المحارب فى أتون الحرب إلى أحضان أهليهم فى الوطن ، و إن نشوب مثل هذه المعركة الجديدة تحت سمع ايزنهاور وحكومته يباعد بينه و بين ما عرف عنه كرجل سلام ومن هنا كان له أن يغضب .

وهكذا يبدو أن تجرى عملية الاعتـداء أثناء انتخابات رياسة ايزنهاور يعد بمثابة طعنة خنجر فى ظهر الرجل لكى يخر صريعاً فى معركة الرياسة العنيفة خاصة وأن الصحف الإنجليزية المحافظة والصحف الفرنسية المحافظة طالما حاربت ترشيح الرجل بشكل غير مباشر وهاجمته بشكل غير كريم مشيرة إلى شيخوخته ومرضه بحيث أنه يبدو من الصعب أن يكمل مدة رياسته وأنه قاب قوسين أو أدنى من القبر ، وأن دفة الأمور بعد ذلك ستؤول بالوراثة إلى شخص غير محبوب من دوائر الغرب هو نيكسون نائب رئيس الجمهورية الشاب .

كل هذه الظروف أججت نيران الغضب فى صدر إيزنهاور ووزرائه فجعلتهم ينظرون بعين السخط إلى كل تصرف انجليزى أو فرنسى .

وحجة أخرى لمن يجردون أمريكا من أى فضل نحو وقف القتال تتمثل فى مواقف دالاس المثيرة فى مؤتمر لندن و بعده عن المرونة وعمده إلى الإثارة ومحاولة فرض حلول يقترحها هو دون مناقشة أو دراسة أو سماح لأصحاب القناة فى مجرد مراجعتها فضلا عن التصرف الشاذ الذى ظهر فى شكل تجميد الأرصدة المصرية فى أمريكا البالغ قدرها خمسون مليوناً من الدولارات دفعت كلها من أجل شراء بعض قطع الغيار لبعض المصانع .

يضاف إلى ذلك كله محاولة أمريكا تجويع الشعب المصرى ، تجويعه حقيقة لا مجازاً أى منع الطعام عنه ؛ فقد نفذ المخزون فى مصر من القمح فحاولت أن تطلب من أمريكا قمحاً يصنع الشعب منه خبزاً يأكله فرفضت أمريكا، ولم تكتف بذلك بل حاربت مساعى مصر لدى الدول الغربية المنتجة للقمح حتى يموت الشعب جوعاً لولا أن سارعت روسيا فأمدت مصر بما أرادت من قمح بأثمان رخيصة مع تسهيلات خيالية فى الدفع .

وحجج أخرى كثيرة يعرفها الشعب العربى ليست فى صالح أمريكا على الإطلاق وأمريكا نفسها لاتكاد تملك من وسائل الرد عليها شيئاً ، بل أفحش من ذلك كله أن تصدر إدارة الاستعلامات بالسفارة الأمريكية بالقاهرة فى نفس يوم الاعتداء منشوراً طويلا باللغة العربية تقرر فيه أنها راضية عن تصرفات حلفائها وأنها لن تتخلى عن مساعدتهم وهو منشور رسمى فيه كثير من التحدى، لو أن مثل هذا المنشور صدر من سفارة أمريكا فى انجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو حتى فى اسرائيل لكان أمراً مكتوماً ولكن العجيب أن يصدر من سفارة أمريكا فى الدولة المعتدى عليها و باللغة العربية .

ولكننا مع ذلك وكقوم يكتبون للتاريخ مضطرون أن نسجل أن أمريكا قد استعملت الفيتو ضد حلفائها لوقف الاعتداء وأنها طلبت إليهم ايقاف الحرب وإن كانوا لم يذعنوا لذلك رغم أن ذلك فى الغالب كان كله تمثيلية مرتبة محبوكة الأطراف .

فإذا ما انتقلنا الى موقف روسيا وجدنا الأمر يختلف تماماً ، إن مندوب روسيا فى مؤتمر لندن بمواقفه الرائعة ومؤازرته لمصر فى حق تأميم شركة القناة يستحق التقدير والإعجاب من كل عربى ، وان خطب مندوب روسيا فى مجلس الأمن أثناء الاعتداء وشرح الخطورة التى قد يتعرض لها العالم كله لا مصر وحدها نتيجة لهذه الهمجية أمر يدعو للشكران وان مطالبة روسيا لأمريكا أن يشتركا معاً فى وقف الاعتداء بالقوة لأمر يعترف به كل من يرد الفضل الى أهله .

كل هذا كان يجرى والمتطوعون الروس يسجلون أسماءهم للقتال فى صف الجبهة المصرية بعشرات الآلاف ، وهم على وشك الوصول الى بورسعيد لكى يخوضوها بدمائهم فى سبيل نصرة شعب قد جرى عليه اعتداء بغير ذنب الا اذا اعتبر استعمال الحقوق والمحافظة على الاستقلال ذنباً .

لم توفق روسيا فى تجميع جبهة تشاركها وقف الاعتداء ولذلك قررت أن تعمل وحدها فأرسلت انذارات فى شكل تصريحات من المسئولين الى كل من دول الاعتداء ولكن يبدو أن هذه الإنذارات لم تقابل بما ينبغى أن تقابل به فبعثت بالإنذار المشهور الذى سد على المعتدين كل طريق فقد استدعى بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى مساء ٥ نوفمبر السفير البريطانى فى موسكو وسلمه الإنذار لكى يبلغه الى انطونى ايدن رئيس وزراء بريطانيا وهذا نصه :

«ترى الحكومة السوفيتية ضرورة إلفات نظركم الى الحرب العدوانية المشبوبة على مصر من كل من بريطانيا وفرنسا والتى لها أخطر العواقب على قضية السلام . ما هو المركز الذى تجد بريطانيا نفسها فيه لو أنها هوجمت من دولة أقوى تمتلك كل أنواع الأسلحة الحديثة المدمرة ؟ ان هناك الآن دولا ليست فى حاجة الى ارسال أساطيل بحرية أو جوية الى شواطئ بريطانيا ولكنها تستطيع استخدام وسائل أخرى مثل الصواريخ الموجهة . نحن عازمون عزماً أكيداً على سحق المعتدين و اقرار السلام فى الشرق الأوسط باستخدام القوة ونحن نأمل فى هذه اللحظة الحرجة أن تستعملوا الحكمة المناسبة وتستخلصوا النتائج المترتبة على هذا » .

وفى خلال لمحات البرق كان هذا الإنذار ينزل على أم رأس إيدن نزول الصاعقة ، لقد قضى على كل أمل له فى مواصلة الحرب ونيل النصر المزعوم وتحطيم القومية العربية بابعاد الرئيس عبدالناصر عن قيادتها و بدأ شعر ناصيته ينتفض فزعاً وهو يتصور لندن تضرب بالصواريخ الموجهة وتتهدم على رءوس سكانها . إنه ليس أقوى الحيوانات فى الغابة كما قال ذلك بيفان المتحدث بلسان العمال قبل يومين من هذا الإنذار فى مجلس العموم البريطانى : إن أعصاب إيدن بدأت تنهار منذ هذه اللحظة حتى حمل إلى جمايكا بعد أيام قليلة .

لقد كان هذا الإنذار الضربة القاضيـــة الحقيقية التى أوقفت الحرب بالإضافة إلى تصميم الشعب المصرى على مواصلة القتال فى ضراوة وشجاعة تدعو إلى التقدير .

هناك من يقول إن بريطانيا لم توقف الحرب خشية وفزعاً من الإنذار الروسى ولكن لأن هيئة الأمم قد أنشأت بوليساً دولياً يقف بين مصر و إسرائيل ، وهذا

إدعاء يجافى الحقيقة لأن الأمم المتحدة كانت قد اقترحت هذا البوليس قبل ذلك بأيام فلم ترض به انجلترا ، فلماذا ترضى به اليوم ؟ ذلك لأن الإنذار الروسى مصلت على الرءوس .

وهناك من يشكك فى مدى جدية الانذار الروسى لبريطانيا؛ وهؤلاء أنفسهم إما جاحدون للجميل و إما مغرضون .

وروسيا بالنسبة لنا دولة صديقة ولاشك ،ولا يدخل فى باب الصداقة أن نعتنق مذهبها ، فلكل بلد طبيعة المذهب الذى يلائمه فإذا كانت أرض روسيا ملائمة لاستنبات الشيوعية فليس من الضرورى أن تصلح لها أرض مصر ، وعلى هذا الأساس فهمت روسيا حدود ومضمار الصداقة بينها وبين مصر ، ثم لماذا لا تكون روسيا دولة صديقة ؟ أليست هى التى أمدتنا بالأسلحة فحقنت دماء أبنائنا على حدود إسرائيل التى كانت لاتنى من مهاجمتنا كل يومين أو ثلاثة فيقع من أبنائنا صرعى من يقع ولا نجد السلاح الذى نرد به غائلتها ، أليست روسيا هى التى أمدتنا بالقمح بعد ذلك بعد أن رفضت أمريكا وكدنا أن نموت جوعا ؟ ثم أليست هى التى أمدتنا بالقروض الطويلة الأجل والمصانع والمساهمة فى تعمير وطننا بعد ذلك ؟

إن موقف روسيا الذى ينبغى أن يسجله التاريخ كان موقفا نظيفا رائعا .

همرشولد النظيف

لأول مرة تنجح هيئة الأمم المتحدة فى اتخاذ قرار جرىء مشرف لها منذ إنشائها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ففى مساء الخميس أول نوفمبر اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة واتخذت قراراً بما يشبه الاجماع بإيقاف إطلاق النار

فى الجبهة المصرية فقد صوتت ٦٤ دولة فى صالح القرار وعارضت خمس دول هى إنجلترا وفرنسا واسرائيل واستراليا و بلجيكا .

ولكن ايدن فى عناد من نزلت غشاوة على بصره وبصيرته يظهر عدم الرضا نحو هذا القرار و يصمم على عدم احترامه . وهنا يتحرك سكرتير عام الأمم المتحدة ذلك السويدى النظيف همرشولد ويراجع فى مخيلته الأصوات الأربعة والستين الممثلة لأربع وستين دولة و يفزعه أن دولة كإنجلترا أو فرنسا أو تابعة لهما كإسرائيل أو استراليا لاتحترم هيئة الأمم فينعم النظر جيدا و يمعن فى التفكير جيدا ثم يصدر قرارا كان له هزيم الرعد ، ذلك القرار هو استقالته من منصبه كسكرتير عام للأمم المتحدة .

ولاستقالة همرشولد أكثر من معنى خطير ، المعنى الأول أن هذه الجماعة الدولية مادامت عديمة الجدوى غير محترمة القرارت ممن أنشأوها فلا داعى لوجودها وبالتالى فإنه كشخص واقعى يرى أنه أكرم على نفسه من أن يكون سكرتيرا عاما لهيئة خيالية لاتقدم ولا تؤخر ، والمعنى الثانى أنه باستقالته تلك التى كان جادا فيها مصرا عليها أوقع الأمم المتحدة فى مأزق حرج أشعرها بأنها غير جديرة باسمها طالما أنها لاتملك مجتمعة أن تكبح جماح دولة أو دولتين من دولها فكان أن أصرت الدول على تنفيذ القرار ، والمعنى الثالث أن همرشولد نفسه رجل نظيف له مكانته وكرامته وعزة نفسه فلقد رأى مهزلة تمثل أمامه ووجد مجلس الأمن وسيلة للخداع حينما نظرت قضية تأميم القنال أمامه وانتهى المجلس إلى تحديد موعد للمفاوضة فإذا بهذا اليوم المحدد بدل أن يكون يوم سلام يصبح نفسه يوم بداية الاعتداء ، ووجد هيئة الأمم بجلال قدرها تنهار و يندك بنيانها وتتساقط أحجارها و إذن فلا مناص له كإنسان

يحترم قدر نفسه أن يسارع بالاستقالة .

ولأول مرة نجد سكرتيرا عاما متحررا نزيها لا يميل مع الهوى ولا يباع ولا يشترى ولا يجامل فى غير الحق وهذا يذكرنا بسلف له من قبل ، ولكن ما أبعد ما بين الرجلين فى الخلق وفى التكوين ، فسلفه النرويجى تريجفى لى الذى كان عبدا للدول الاستعمارية وللصهيونية العالمية بشكل جعل أخلاقه تثير الاشمئزاز وجعل تصرفاته تجلب الاحتقار ولذلك لم يكد يطرد من وظيفته حتى اشتغل موظفا فى دوائر الصهيونية العالمية يدعو لها فى مختلف البلدان الأوربية فأصبح بذلك مثله مثل العبيد الذين يشترون من سوق النخاسة فيخلصون لنخاسيهم نظير ثمن لقمة خبز .

أما همرشولد فهو طراز آخر من الرجال لم يحاول أن يحيد عن الطريق السوى ولم يستطع الاستعمار أو الصهيونية العالمية شراءه ولذلك فهو محترم من جميع الدول الأعضاء فى المنظمة رغم أن بعضها لا يكن له حبا ولا ودا ، وليس هناك ثمت تناقض بين الاحترام والكراهية .

و بفضل شخصية همرشولد العظيم المخلص يتكون البوليس الدولى فى سرعة قياسية من دول محايدة ، وتجد إنجلترا وفرنسا نفسيهما مرغمتين على قبول وقف إطلاق النار زاعمتين أن تكوين البوليس الدولى هو السبب فى ذلك ناسيتين أنهما قد رفضتا فكرته قبل ذلك بفترة وجيزة .

وتتجمع وحدات البوليس الدولى فى مدينة نابولى الإيطالية من عدة دول بينها كندا ويوجوسلافيا والسويد والبرازيل وأندونيسيا والهند وتصل على شكل نوافل جوية إلى مطار أبى صوير حيث تنشعب شعبتين ، شعبة إلى بور سعيد لاخراج الإنجليز وشعبه إلى صحراء سينا وغزة لطرد اليهود الإسرائيليين ، ويستقبل الأهالى

فى بور سعيد البوليس الدولى أكرم استقبال وتم بين أفراده و بينهم صداقات رائعة وألفة كاملة ، إذ أن أكثر جنوده من بلاد صديقة وكان المفروض فى بعض هؤلاء الجنود أن يصلوا إلى أرض مصر قبل ذلك بشهر واحد كمتطوعين محاربين فى صف الحرية المغتصبة باذلين دماءهم رخيصة فى سبيل المثل العليا ، ولكن بفضل تصميم الأمم المتحدة و بفضل شجاعة و إخلاص همرشولد جاءوا وقد ارتدوا القلانس الزرقاء وعلى أكتافهم شارات الأمم المتحدة لكى يردوا الحق إلى نصابه و يعيدوا الأرض المغتصبة إلى أصحابها .

التضامن العربى

إذا قلنا إن معركة بورسعيد وخروج مصر ظافرة منها كانت البداية الحقيقية والخطوة التنفيذية لوحدة الأقاليم العربية جميعها فإننا بذلك لا نعدو حدود الحق والتاريخ فلقد أثبتت التجربة أن الشعب العربى سيد مستقل طالما كان متحداً، وأنه مستذل مستعبد مغلوب على أمره طالما كان متفرقا مشتتاً .

ولقد فطنت دول العالم الغربى التى تهدف دائماً إلى استعمار تلك المنطقة، نقول إن هذه الدول فطنت إلى تلك الحقيقة فبدأت تمزق هذا الوطن بمجرد انهيار الخلافة العثمانية.

إن حكم العثمانيين للبلاد العربية كان من أسوأ مامر بها من عهود ولكن الشعب العربى بدأ يسعى إلى التحرر من هذه السياسة المتعفنة فقامت الثورات فى أكثر أقاليمه العربية قامت فى الحجاز ونجد وأجج نارها محمد بن عبد الوهاب وقامت فى اليمن وقادها الإمام يحيى حميد الدين وقامت فى شمال افريقية واتخذت سبيلها إلى الظهور فى مصر والشام والعراق ، وهنا فطنت الدول الغربية إلى أن

الفرصة ستفلت منها لو تركت لهذه الأقاليم أن تستقل ثم تتحد ، فبدأت توجه ضرباتها فى فترات متلاحقة خرجت منها ظافرة، فاستعمرت بريطانيا مصر والسودان والعراق وشرق الأردن وفلسطين، ومنحت فرنسا بقية إقليم الشام أى سورية ولبنان واستولت على شمال افريقية أى تونس والجزائر ومراكش وسمحوا لإيطاليا أن تخرج هى الأخرى بنصيب فكان لها ليبيا .

وكانت دول الغرب تعرف تماما الخطر الذى يمكن أن تواجهه لو سمحت بقيام قليل من الصلات بين مجموعات الشعب العربى فأعدت لذلك برنامجاً طويلا يتلخص فى تمزيق المنطقة ونشر روح العداء والكراهية بين السكان وإشعال نار الحقد بين الحكام وتشجيع العنصرية وإذكاء حقدها والمناداة بالفرعونية فى مصر والسورية فى سورية والبربرية فى شمال إفريقية، ثم بعد ذلك كله تزييف التاريخ فى الكتب المقررة على الناشئة والتلاميذ فى المدارس من أبناء العرب فضلا عن إهمال دراسة المنطقة وتاريخها وجغرافيتها ، فكان الطالب فى المدارس الابتدائية يلقن جغرافية الجزر البريطانية وفرنسا وإيطاليا ولا يعرف شيئاً عن جغرافية العراق أو الشام ، وكان يدرس فى المدارس الثانوية الثورة الفرنسية وتاريخ انجلترا وهو لا يعلم شيئاً عن تاريخ بقية أجزاء وطنه العربى ، ولكن الأمور الشاذة لا يمكن أن تستقر والأوضاع المقلوبة لا يمكن أن تستمر ، ولا بد من عودة الأمور إلى نصابها ، فبدأ الشعب العربى يشعر بقيمته ومابرح يكافح ، يكافح الاستعمار حيناً ، وحكامه ممن فرضهم الاستعمار حيناً آخر حتى نمت الشجرة ونضجت الثمرة وأصبح كل مواطن فى كل جزء من الوطن العربى يشعر أن وطنه أكبر وأرحب من تلك البقعة الصغيرة المحدودة التى يسكنها .

وباختصار بدأت ثورة الجزء المصرى من الوطن العربى تنادى بالقومية العربية وتذكيها وكانت النفوس متعطشة لها والقلة التى لم تكن تحس بها بدأت تنتفض وتفتح أعينها ثم لا تلبث أن تسير فى الركب وأن تنتظم القافلة .

وفى تلك الفترة يقوم القائد جمال عبد الناصر فيرد إلى الوطن العربى أحد أجزائه المغتصبة بل أخطر أجزائه المغتصبة فيؤمم شركة قناة السويس فيشعر العرب فى كل مكان بالعزة والفخر ولكنهم يشعرون فى نفس الوقت بالخطر فالاستعمار لن يسكت ولن يلقى السلاح ببساطة ، ويتحقق ما توجس منه العرب فتقوم قيامة الدول الاستعمارية والدول التى تسير فى ركابها كاستراليا وإسرائيل ويبدأون يجيشون الجيوش ويبيتون النية على الشر والغدر والحرب فيصمم الشعب العربى على موقفه وينذر باتخاذ إجراءات شديدة قد تسبب للدول المعتدية فى متاعب طويلة الأجل ، ولكن الدول المعتدية وقد أعماها الحقد والبعد عن التبصر والعدل تشن الحرب الظالمة التى قامت بها ، وهنا تبدو الوحدة الرائعة فى صفوف الشعب العربى .

ففى سورية يسارع جيشها الى الحدود ينتظر كلمة القائد العام ليدك اسرائيل ، والشعب والحكومة فى سورية العظيمة ينسفون أنابيب البترول التى تعبر أراضيها مما كان له أسوأ النتائج على الغرب كما سيأتى فيما يلى من صفحات . ثم تغلق السفارتان البريطانية والفرنسية وتقطع العلاقات بين الدولتين . وتضرب محطة الإذاعة فى القاهرة بقنابل المعتدين ، فإذا بمحطة الإذاعة فى دمشق تتحدث وتذيع وتقول « هنا القاهرة » ، والشباب يزحف الى صفوف القتال بعشرات الآلاف ، ويحاول المعتدون غزو سورية فى نفس الوقت الذى تكون فيه المعركة دائرة

الرحى فى مصر ولـكنهم ينثنون عن فـكرتهم فاشلين متنبئين بما ينتظرهم من هزيمة وهوان .

وفى الأردن يتحرك الجيش العربى بقيادة ضباطه الأحرار إلى الحدود ، وتنسف أنابيب البترول وتقطع الأردن علاقتها بالمعتدين ، والسعودية تمنع البترول عن دول الاعتداء، وتقطع العلاقات الدبلوماسية معها ، وفى العراق يسير الشعب طالباً الثأر ، متعطشاً إلى خوض المعركة ، وفى اليمن تدق طبول الحرب ، وفى الجزائر يشدد الوطنيون المجاهدون النـكير على جنود فرنسا .

وهكذا يصبح الوطن العربى كله أتوناً مشتعلا ينذر بشر مستطير ، وتفتح مكاتب التطوع للقتال فيتقدم إليها عشرات الآلاف لا من الرجال وحدهم ولـكن من النساء أيضاً . ويشعر الجميع أنهم يخوضون حرباً مقدسة وأن القضية ليست قضية بور سعيد وأن المعركة ليست معركة مصر ، ولـكنها معركتهم جميعاً ،وأن المستقبل بعد المعركة إما لهم إن كانوا ظافرين ، وإما عليهم إن كانوا منهزمين ، ويختلط الزعماء بأفراد الشعب فى شوارع المدن والقرى العربية ، ويتطوع الغنى والفقير وتتحقق الوحدة العربية فعلا أثناء القتال .

التضامن الإسلامي :

لم يقف الأمر عند حدود الوطن العربى وحده بل تعداه الى العالم الإسلامى لإحساس المسلمين أن لهذه الحرب لوناً آخر غير ألوان الحروب العادية ، إن فيها رائحة الصليبية الحمقاء .

ففى أفغانستان يفتح باب التطوع لجميع أفراد الشعب من مدنيين وعسكريين

ويبلغ عددهم مئات الآلاف وقد وقفوا جميعـــاً بسلاحهم — وهم محاربون من الطراز العنيف المرير — ينتظرون الطائرات لنقلهم الى ميدان المعركة فى أرض القناة . بل لم يقف الأمر على الشعب وحده ، فقد كان بعض الأمراء فى مقدمة القادمين المتطوعين . وأكثر من ذلك كله أن أحد ملوك أفغانستان السابقين وهو أمان الله خان يرسل ملحاً متوسلا أن يجىء من أوربا لـكى يخوض المعركة بساعده مع المحاربين . هذا فضلا عن التبرعات المالية والعينية التى قدمها الشعب الأفغانى .

وفى إندونيسيا كان الموقف مجنوناً ، والشعب يغلى كالمرجل ، فعشرات الآلاف يتزاحمون فى صفوف التطوع ومثلهم كمثل الأفغانيين من حكام وشعب ومن عسكريين ومدنيين والمظاهرات تشق عنان السماء وطبول الحرب فى كل مكان وتقف الدولة إذاعتها لقضية القنـاة والحرب المقدسة التى يخوضها إخوانهم فى أرض بور سعيد ، ويقف الجميع منتظرين الوسيلة التى يصلون بها مع أسلحتهم إلى أرض المعركة .

وفى الباكستان لايختلف الموقف كثيراً عن نظائره فى البلاد الإسلامية الأخرى فيوجه المواطنون ضربات قوية إلى الحـكومة لموقفها غير المتـكامل إزاء قضية القناة ويطالبون التطوع والمسارعة إلى ساحة القتال ويجمعون التبرعات لإخوانهم فى أرض بور سعيد وتهدد الدولة إزاء ضغط المواطنين بالخروج من دائرة النفوذ البريطانى المسمى بالـكومنولث **Common Wealth** .

وفى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى تقوم المظاهرات وتسمح الحـكومة الروسية لأول مرة بقيام مثل تلك المظاهرات ، ويقوم فرسان القوقاز المسلمون بالضغط على حكومة روسيا لـكى تيسر لهم سبيل الوصول إلى أرض بور سعيد لـكى يخوضوا

المعركة مع إخوانهم فى بلد الأزهر ومعقل الإسلام ، وتصبح معركة بور سعيد قضية كل وطن إسلامى وكل مواطن مسلم فى أى قطر إسلامى ، لأن ظروف المعركة وملابساتها وما أحاط بها من غدر تنم عن كونها تتشح بوشاح صليبى ، فإنها حلقة من حلقات الحروب الصليبية فى القرن العشرين الذى يفترض فيه السماحة المطلقة وحرية العقيدة لجميع الشعوب والدول والأفراد .

تضامن شعوب السلام فى إفريقية وآسيا وأوروبا :

ولم يكن التضامن مع مصر مقصوراً على المحيطين العربى والإسلامى وحدهما ولكنه تعداهما إلى محيط التفكير الحر فى كل بلد يحب الحرية ويتعشق السلام فقامت فى الهند حركة ضخمة ومظاهرات واجتماعات وخطب من الزعماء تحض على التبرع لمعركة بور سعيد وعلى التطوع للحرب فى صف المعتدى عليهم ووجدت النداءات آذاناً صاغية وكان للبانديت جواهر لال نهرو مواقف رائعة وهدد الإنجليز بالانسحاب من الكومنولث وكان على وشك تنفيذ تهديده .

وقام شعب سيلان هو الآخر يحمل على المعتدين ويجمع التبرعات وامتلأت كشوف التطوع بأسماء من رغبوا فى خوض المعركة مع العرب .

وفى الصين الشعبية تقدم للتطوع للحرب فى صف المصريين العرب نصف مليون مقاتل مدرب أحسن وأحدث تدريب ، وفى روسيا قام الشعب السوفيتى كله يتسابق إلى مراكز التطوع وبدأت الحكومة الروسية بالفعل تمهد السبيل لمواطنيها المتطوعين لكى يصلوا إلى أرض المعركة بأسلحتهم فضلا عن التبرعات التى جمعت من كل من الصين الشعبية وروسيا :

وما يقال عن شعبي روسيا والصين يقال عن شعب يوجوسلافيا وألبانيا وتشكوسلوفاكيا . وهكذا بدت أكثر شعوب العالم تقرر الزحف إلى أرض المعركة ، إنهم لايعدونها معركة بين الانجليز والفرنسيين واليهود من جانب والعالم العربي المتحرر من جانب آخر ، ولكنهم يعتبرونها معركة الحرية واغتصاب الشعوب وتحكيم شريعة الغاب بدلا من القانون فى وقت افترض فيه أن كل أنواع النزاع بين مختلف الأمم ينبغى أن تعرض على المنظمات الدولية صاحبة الحكم الأول والأخير .

وهكذا تنبه المعتدون فجأة فوجدوا أنفسهم فى أحرج موقف صادفوه فى حروبهم الاستعمارية على مدى الأجيال منذ عرفت دولهم نطاق الاستعمار وفرضته على الشعوب المستضعفة ، فشعوب العالم الحر كلها بالإجماع ضدهم ومئات الآلاف من المتطوعين بأسلحتهم تتأهب لضربهم فى أرض المعركة ، وشعوبهم نفسها بدأت تكتشف إلى أى مدى كانوا ضحية لمغامراتهم وقد فطنوا إلى ما يمكن أن تنتهى إليه المعركة من حرب عالمية ليسوا على استعداد لخوضها على الأقل فى هذا الوقت فضلا عن الأيام السوداء التى تنتظر أوطانهم من الناحية الاقتصادية حتى لو خرجوا من المعركة ظافرين .

وجن جنونهم حين وجدوا أن بذور الفرقة التى أخذوا يبذرونها منذ عشرات السنين بين أطراف الأقاليم العربية لم تظهر آثارها كما توقعوا واشتهوا ، بل أتت بعكس ما كانوا يتوقعون وكانت أكبر صفعة أطارت صوابهم نسف أنابيب البترول فى سورية ومنع بترول السعودية والعراق من التدفق عبرها شهور عديدة حتى يتم إصلاحها ، ومعنى ذلك أن أوربا كلها ستقضى شتاء من زمهرير ومن أسوأ وأقسى ما مر عليها من أنواع الشتاء .

لم يكن عجيبا ، والحال كذلك أن تصاب رؤوس من فكروا فى الحرب بالدوار وأن يجدوا أنفسهم وقد وقعوا فى برزخ ضيق بين بحرين مزبدين من الفشل والندم واضطروا أن يبحثوا عن أسباب أو ذرائع يتخذونها وسيلة مشرفة لتراجعهم فلم يجدوا منها شيئاً ، لأنهم كانوا فى سورة غضبهم قد أحرقوا جميع الجسور التى تمكن لهم من التراجع لو أرادوا ، ففاجأوا أنفسهم إن لم يكونوا قد فاجأوا العالم بوقف إطلاق النار تمهيداً للتراجع والانسحاب بعد حرب مريرة جندوا فيها كل ما يملكون من أسباب الدمار البرية والبحرية والجوية لم يتمكنوا خلالها من الاستيلاء على مدينة بورسعيد جميعها وإنما استولوا على ثلثيها فقط ، فلما وافقوا على قرار وقف إطلاق النار ، ووافقت مصر كذلك انتهزوا الفرصة لكى يحفظوا ماء وجوههم أمام شعوبهم فاحتلوا الجزء الباقى من المدينة و بضعة عشر ميلا على شاطىء القناة قرب بلدة صغيرة يقال لها الكاب .

المصريون فى الخارج أثناء المعركة

ماذا يمكن أن نتصوره عن أبناء الوطن الذين قضت الظروف أن يكونوا بعيدين عنه أثناء المعركة ، لو كانوا فى الوطن لحملوا السلاح كما حملته الملايين من إخوانهم ، ولأعدوا أنفسهم لخوضها شارعاً شارعاً ومتراً متراً وخطوة خطوة ، ولكنهم بعيدون والصحافة العالمية غير قادرة على متابعة المعركة حتى تعطى لهم فكرة صحيحة عن سيرها ، فقد كانت المعلومات تملى على الصحفيين فى قبرص مقر الحملة لكى يرسلوا بها إلى الصحف فى جميع أنحاء العالم كما يريد قائد الحملة لا كما هو حادث فى الميدان حقيقة ، وفرضت الرقابة فى قبرص على البرقيات الصادرة جميعاً

ومن أراد من الصحفيين أن ينشر بعض الحقائق عن المعركة ، كان عليه أن يهرب من قبرص إلى أى بلد آخر ثم يرسل بمعلوماته وتحقيقاته وأخباره إلى جريدته لدرجة أن الانجليز فى بلادهم لم يكن لديهم أى معلومات صحيحة عن المعركة بل كانت الحكومة نفسها التى دبرت الحرب تحت رحمة قائد الحملة يعطى لها من المعلومات ما نجده متفقاً مع ميوله الشخصية ، وليس من المعقول أن يذيع هذا القائد أو يسمح للصحفيين أن يذيعوا حقائق تضعه موضع السخرية والهوان .

ومما زاد الطين بلة أن المعتدين ضربوا محطة الإذاعة المصرية وأصابوها بالفعل ولم يكن يخطر ببال أحد أن يضربوا الإذاعة ، فالإذاعات لها قداستها بمقتضى الاتفاقيات الدولية ، ولكن الحملة كلها كانت بعيدة عن المنطق الدولى فلم يكن غريباً أن تنتهك كل المقدسات فتضرب محطة الإذاعة وتهدم المساجد والكنائس ويعدم الأسرى رمياً بالرصاص وسحقاً تحت الدبابات .

ولكن ضرب الإذاعة المصرية قد كشف عن بعض معانى الشرف الكامن فى الشعب العربى ومسح عنها ما قد حجبته السنين الطوال ، ونحن نسوق على ذلك مثلين من بين آلاف الأمثلة ، المثل الأول أن الإذاعة حينما ضربت فى ضاحية أبى زعبل ضرب معها السجن فتهدم بناؤه وقتل من المسجونين من قتل وجرح من جرح ونجا من نجا وكانت الفرصة سانحة كل السنوح لهؤلاء المساجين الذين نجوا من الموت أن يهربوا مما فرض عليهم من عقاب السجن لفترات يبلغ بعضها المؤبد ، ولكنهم لم يهربوا بل تواروا عن منطقة الضرب وبعدوا عنها عدة كيلو مترات ثم ما لبثوا أن قدموا أنفسهم بمحض إرادتهم من جديد إلى سلطات البوليس لكى تعيدهم إلى حيث يستوفون المدد التى حكم عليهم بها من قبل القضاء .

بل هناك ما هو أروع من ذلك ، فمنطقة السجن والإذاعة كانت محاطة بمجموعة من بطاريات المدافع المضادة للطائرات ، ونتيجة لتركيز الأعداء الضرب على هذه المنطقة من الجو كان يقع بعض الشهداء من جنود البطاريات بطبيعة الحال فكان مما يدعو إلى الإعجاب والاعجاز أن المساجين أنفسهم كانوا يحلون فى الحال محل القتلى من الجنود لكى يساعدوا الجنود الأحياء و يساهموا فى تسديد الضربات إلى الطائرات المغيرة .

والمثل الثانى حينما خربت الإذاعة وتوقف الإرسال من مصر نهائياً وظنت الشعوب الصديقة بالمعركة الظنون وشمتت الشعوب المعادية ، سارعت الإذاعة العربية السورية تلتقط الراية فى الحال من الإذاعة الشهيدة فى المعركة وتذيع باسم محطة القاهرة و باسم صوت العرب وكأن لم يحدث فى الأمر أكثر من أن فارسا قد سقط فخلفه فى الحال فارس آخر وذلك مصداق لبيت الشاعر العربى الخالد الذى صور قومه:

نجوم سماء كلما غاب كوكب　　　بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

نعود إلى مشاعر المصريين خارج مصر وكيف كانوا يتميزون غيظا أو يشتاقون حنيناً أو يبذلون ما يستطيعون للدعاية لقضيتهم وخدمة وطنهم .

كان أحد الوزراء المفوضين لدى إحدى دول حلف بغداد يفكر فيما يمكن أن يقدمه لوطنه المعتدى عليه ، لقد كان متابعا المعركة رغم بعد الشقة ، وكان يعلم أن وطنه سيخرج من المعركة ظافرا بفضل المقاومة المستميتة التى تبذلها بور سعيد والتى يحملها الأثير وتطيرها وكالات الأنباء ، وكانت مشاعر دول حلف بغداد فيها شماتة وفيها غدر ، وكان أحد رجال السلك السياسى العربى ممن تشترك دولته فى الحلف المذكور (سفير العراق) يطارد الوزير المفوض المصرى فيما يشبه الشماتة

و يكرر على سمعه عبارات الشفقة والتشفى ، و يطلب إليه فى حركات سمجة ألا يحزن أو ييأس لأنه مستعد أن يسعى لدى حكومته أن يعتبره لاجئا سياسيا ، الأمر الذى جعل الوزير المصرى يحاول أن يصفعه فى كل مرة يقابله ، ولـكنه أى الوزير المصرى كان رجلا رقيقا مهذبا مثقفا وأستاذا سابقا بإحدى الجامعات المصرية .

وفى إحدى الليالى السوداء التى كان الوطن فيها يكافح المعتدين ببسالة و يصمد أمام هجماتهم الوحشية يرد الصاع صاعين ، تصادف أن كان الوزير المفوض مدعوا إلى حفل فى وزارة خارجية الدولة التى يمثل مصر لديها ، وهى كما ذكرنا من دول حلف بغداد ، ولم يتخلف وزيرنا عن حضور الحفل المذكور حتى لا يؤول تخلفه تأويلا ما ، وفى ثقة تامة ، ثقة بنفسه و بمواطنيه و بالنصر الذى لابد واصلون إليه ، دخل الحفل المعادى ، وكانت كؤوس الشمبانيا تتأرجح فى أيدى الدبلوماسيين السكارى يشربون علنا نخب هزيمة مصر كما صورها لهم سكرهم أو كما رسمتها الخمر التى لعبت برءوسهم . وكانت أصوات الـكؤوس تصطدم مع أصوات موسيقى الجاز المجنونة ، والوزير المصرى ساهم وكل عواطفه مع وطنه الذى يخوض معركة الحرية والحياة .

وفجأة يسارع تشريفاتى وزارة الخارجية المذكورة ويهمس فى أذن الوزير المصرى أن هناك من يطلبه على التليفون ، ويتوجه الوزير إلى التليفون وإذ بالمتحدث هو السفير الروسى فى تلك الدولة ، وإذا به يقول :

— لقد وصلنى الآن من حكومتى أنها أرسلت إنذارا إلى الحكومتين الإنجليزية والفرنسية بضرب لندن و باريس بالصواريخ الموجهة إن لم يتوقف القتال فى بور سعيد خلال اثنتى عشرة ساعة .

— هل يمكنني أن أذيع هذا التصريح الآن على المحتفلين هنا ياسيادة السفير؟

— نعم يمكنك .

— شكرا .

— إلى اللقاء .

وفى هدوء يضع الوزير المصرى سماعة التليفون ويتوجه إلى حيث القوم يسكرون ويرقصون ويعربدون ويشمتون ويذيع خبر الإنذار على المحتفلين . فلا يكاد حديثه يصك أسماعهم حتى يكادوا يصعقون ، فإذ بالكؤوس تتهاوى من أيديهم ، والموسيقى تتوقف عن العزف ، والخذلان يصبغ محياهم والوجوم ينزل على رءوسهم ، وينقلب الفرح إلى مأتم والشماتة إلى غم وحزن .

ولكن للدبلوماسية حكمها ونفاقها ، فيجتمع فى الحال وزير خارجية البلد المذكور مع سفراء دول حلف بغداد ويطلبون إلى الوزير المصرى أن ينضم إليهم لكى يشارك فى صيغة بيان يستنكرون فيه الاعتداء «الوحشى» على بور سعيد .

غير أن الوزير المصرى ينظر إليهم نظرة معناها : لقد فاتكم القطار أيها المنافقون ، وأين كنتم قبل الآن ؟ ثم يقول لهم بكل أدب : أشكركم على حسن مشاعركم ، فيلح السفير العراقى عليه أن يستجيب للرجاء بشكل قذر ممجوج ، ولكن الوزير المصرى يخرج عن صبره ويقول له : سيدى لقد انتصرنا وربحنا المعركة ، أما أنت فنحن غير مستعدين لقبولك لاجئا سياسياوقت اللزوم!!

وينصرف الوزير المفوض المصرى « ويبوظ » الحفل وتنقلب كؤوس الشمبانيا إلى دموع ندم وموسيقى الجاز إلى ألحان جنائزية وثياب السهرة إلى ملابس حداد .

لقد تصورت دول حلف بغداد المعادية للقومية العربية أنها تحتفل بوأد القومية العربية المنطلقة من الشرارة الزاحفة من القاهرة وبور سعيد ولكن تصميم الشعب العربى ومساندة الدول الصديقة قضت على أحلامهم السوداء .

هذه صورة حقيقية نوردها كما حكاها محايد شاهدها بنفسه فى إحدى عواصم حلف بغداد المنحوس كان بطلاها دبلوماسى مصرى شاب و إنذار من بلد صديق .

أما المصريون غير الرسميين ، وأما بقية شباب العرب غير الرسميين المغتربين عن وطنهم فكانوا أحسن عنوان وأقوى دعاية لقضية الوطن العربي ممثلة فى معركة القناة ، كانوا ينظمون المظاهرات و يخطبون فى ميادين البلاد الأجنبية التى يعيشون فيها و يجمعون التبرعات يؤازرهم فى ذلك كل من أحب الحرية أو تعشق الكرامة من أبناء مختلف شعوب الأرض .

مجاعة البترول فى أوربا

ترتب على هجوم الطائرات على المواقع العسكرية ببور سعيد أن غرقت واحدة وعشرين قطعة بحرية من القطع المملوكة لهيئة قناة السويس . فسد مدخل ميناء بور سعيد من أول حجر سعيد حتى حوض عباس .كما غرقت أيضاً مهمات أخرى على طول مجرى القناة أوقفت الملاحة فيها تماما وحجزت ثلاث عشرة سفينة من عدة جنسيات عند الكيلو ٦٢ .

إن سد القناة وتعطل الملاحة فيها كان أمراً مزعجاً لكل من انجلترا وفرنسا

اللتين لم تقدرا العواقب منذ بدء عدوانهما على مصر . فقد كانت هاتان الدولتان تعتقدان أنه مهما نكلتا بمصر وتمادتا فى عدوانهما عليها فلن تصاب القناة بسوء . ولكن المعركة كانت بالنسبة لمصر معركة حياه أوموت، إذا لم يدافع فيها المصريون عن وطنهم بشرف و يستعملوا فيها كل سلاح فذلك هو القضاء على كفاحهم الطويل وجهادهم المرير الذى بدأه قادتنا وأجدادنا منذ ثمانين سنة . وكانت الدول الأوربية الأخرى التى تعتمد اعتمادا كبيرا على القناة والتى ليست لها مصلحة فى هذا العدوان بل والتى كانت فى الوقع تعارضه وتدعو للتفاهم مع مصر حفاظا على السلام فى منطقة الشرق الأوسط ، كانت تعلم علم اليقين ما سوف يصيبها من متاعب ومشاق بسبب سد القناة ، وتلوم انجلترا وفرنسا على همجيتهما الدولية التى لاتعرف قانونا ، وأنانيتها المطلقة التى لا تحترم الرأى العالمى ولا تهتم بمصالح الدول التى تعتمد على القناة فى نقل البترول والخامات المختلفة والبضائع المصنوعة إلى بلادها وأسواقها .

وفعلا أصيبت دول أوروبا الغربية بأزمة حادة فى اقتصادها بسبب تعطل الملاحة فى القناة . وكأنما تلك الغارات المستمرة على قناة السويس وميناء بورسعيد التى لم تنقطع طوال الفترة من ٢٩ أكتوبر حتى ٥ نوفمبر غارات موجهة إلى تلك البلاد الأوروبية التى بيننا و بينها مئات وآلاف الكيلومترات . فالقنابل التى تساقطت على قناتنا وفوق رؤوسنا ومنازلنا لم تلحق بنا من الأذى بقدر ما ألحقت بتلك البلاد الصديقة لبريطانيا وفرنسا والحليفة معهما فى حلف الاطلنطى . و يكفى أن نرى تلك الدول تبيت أياما طويلة فى ظلام حالك من الحيرة والاضطراب فى

انتظار شتاء بارد ومصانع متوقفة عن العمل بعد نفاد المخزون من الوقود والخامات ولانقطاع المواصلات بينها و بين منابع البترول فى الشرق الأوسط .

فالبلاد العربية عبارة عن بحيرة كبيرة تروى صناعة أوربا بالبترول وخاصة انجلترا وفرنسا . فانجترا مثلا يأتيها ٨٠ ٪ من بترولها من بلاد الشرق الأوسط . وهى وإن كانت تستطيع الحصول على احتياجاتها من البترول من الولايات المتحدة الأمريكية بدلا من بلادنا إلا أن ذلك يقلب ميزان الدفع بينها و بين الولايات المتحدة رأسا على عقب لتحولها إلى الدولار فى هذه الحالة بدلا من الاسترلينى . ونفس الشىء يقال عن فرنسا التى يأتى ٩٠٪ من البترول الذى تستهلكه من بلاد الشرق الأوسط ... والبترول الذى يذهب لكل من إنجلترا وفرنسا وسائر دول أوربا الغربية يمر ٦٠٪ منه عن طريق قناة السويس ، ٤٠ ٪ عن طريق خطى الأنابيب اللذين يمران بلبنان وسورية .

أما السفن التى تدور حول رأس الرجاء الصالح فإنها تقطع ١١٫٠٠٠ ميل إلى سوثهامبتن بانجلترا . أما عن طريق قناة السويس فالمسافة ٦٫٤٠٠ ميل فقط . ويتكلف البرميل عبر الطريق الأولى أضعاف ما يتكلفه عن طريق القناة . فضلا عن قدرة ناقلات البترول على نقل كمية أكبر على مدار السنة من الطريق الأقصر لزيادة عدد رحلاتها .

وهكذا بدأت أهمية القناة تظهر كاملة لأول مرة فى تاريخها بين دول أوروبا الغربية ، إذ أخذت المصانع فى تلك البلاد تحسب حساب كل قطرة من السولار والمازوت لديها وتربط بين مستقبلها وعدد هذه القطرات ... وأخذ رجال الصناعة

يرفعون التقارير لحكوماتهم عن خطورة الحالة وضرورة فتح باب يأتى منه الوقود عصب الصناعة. بل بدأت فعلا مصانع كثيرة تضغط إنتاجها وتقلل عدد الساعات والأيام التى تدورها آلاتها لتكسب شيئا من الوقت على حساب عمالها ومستخدميها الذين استغنت عن عملهم بها. فكان ذلك هو النذير ببطالة مزعجة قد يطول مداها وتتسع رقعتها فتقع تلك البلاد فى أكبر كساد عرفته منذ الأزمة العالمية ١٩٣٠ وما بعدها.

وكان المرء يشاهد منظرا ظن الناس أنه مضى ولن يعود من بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وزوال آثارها. فقد عادت الصفوف الطويلة تظهر أمام محطات البنزين وموزعى الكيروسين فى انتظار الطاقة التى تسير السيارات وتنقل أصحابها إلى مقار أعمالهم والتى تدخل الدفء للمنازل وتجعل الحياة فيها ميسورة فى شتاء قارس يقف على الأبواب ويذكر الأوروبيين بعواقب عدوانهم الهمجى على مصر، ذلك العدوان الذى كانوا يصفونه بأنه مجرد حملة تأديبية لن تستغرق أكثر من بضع ساعات. ثم أخذ أصحاب المحلات التجارية فى الدولتين المعتديتين يرفعون الأسعار لعلمهم بأن مايباع من بضائعهم اليوم لن يجدوا غيره بسهولة إلا بعد شهور وشهور، بعد أن يتم انتشال السفن التى تسببت فى إغراقها حكومتاهما فى القناة فسدت الدنيا فى وجوههم وجلبت عليهم المشاكل. وكان المشترون يدخلون تلك المحال ويدفعون الأسعار العالية وهم يسبون إيدن ويلعنون بينو وذلك اليوم الأسود الذى اندفعت فيه جيوش انجلترا وفرنسا نحو مصر كالسهم المضطرب الذى يطيش فيصيب قاذفيه ومن حولها... كل ذلك كان بسبب البترول الذى أرادت

دول أوروبا الغربية أن تستغنى عنه فى يوم من الأيام وتقاطعه طبقا لبرنامج وضعوه لهذا الغرض منذ مدة كى يورطوا الشرق الأوسط كما ورطوا إيران من قبل .

بترول الشرق الأوسط :

ولكن هل يتمكن الغرب أن يقطع عن نفسه بترول الشرق الأوسط ! ... .

إن الغرب يستثمر ألف مليون جنيه فى هذه البلاد لإنتاج ثلاثة ملايين ومائتى ألف برميل يوميا ، أى ما يعادل ربع إنتاج الدول الغربية مجتمعة بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية . والغربيون يعلمون أن « المخزون من البترول » تحت أرض و بحر بلاد الشرق الأوسط يكون كميات ضخمة خيالية لا يكادون يصدقونها لولا أنهم أنفسهم الذين قاموا بحصرها وتقديرها . فإلى عهد قريب كانوا يقدرون المخزون فى حقول بلادنا بحوالى ١٢٦ ألف مليون برميل — أى حوالى أربعة أمثال المخزون فى الولايات المتحدة والذى قدره ٣٠ ألف مليون برميل .. ثم تبين أخيرا بعد تقدير جديد أن هذا المخزون يصل فى الحقيقة إلى ٢٣٠ ألف مليون برميل .. وهو ما يعادل ٣/٤ البترول المخزون فى العالم كله !! ومن هذا يتبين مدى اعتماد مستقبل الدول الأوروبية والولايات المتحدة على بلاد الشرق الأوسط لأن الصناعة فى تلك البلاد عطشى لبترول الشرق وتشرب منه فى كل يوم جرعة إضافية نتيجة لنموها المستمر وقد يأتى وقت قريب — ربما بعد ثلاثين سنة فقط — فيصبح الشرق الأوسط هو المورد الوحيد الذى يغذى صناعة تلك البلاد ، إذ أن الطلب على البترول بصفة عامة يتزايد يوما بعد يوم ، وقد قدر الخبراء أنه سيصل فى سنة ١٩٦٥ إلى ٢٦ مليون برميل يوميا وفى سنة ١٩٧٥ إلى ٤٠ مليون برميل يوميا ..... ومن يدرى كم

يكون بعد ذلك! كل هذا سيحدث فى الوقت الذى يتناقص فيه المخزون من البترول فى الولايات المتحدة الأمريكية مما يجعل بترول الشرق الأوسط هو وحده الذى سوف يحرك الصناعة فى أوروبا .. وهذه حقيقة رهيبة بالنسبة للبلاد الأوربية التى لا تريد أن تعطى بلادنا حقوقها وتعيش معنا فى سلام، تنتفع منا وتنفعنا، وتتعامل معنا معاملة شريفة ليس فيها قرصنة وغش وخداع . . .

ليست كميات المخزون من بترول الشرق الأوسط هى كل العناصر التى تكسبه أهميته وقوته بل هناك أيضاً إنتاجيته وتكاليف استخراجه . فكل خمسة آبار تحفر فى هذه المنطقة يخرج البترول من بئرين منها . . . وهذه نسبة عالية جدا تكاد تكون خيالية وخاصة بالنسبة للمعنيين بشئون البحث والتنقيب عن البترول فى أنحاء العالم، ولذلك فإن الشركات الأوروبية والأمريكية لم تصدق منذ سنين التقارير التى بعثها مهندسوها وخبراؤها فى الشرق الأوسط الذين جاءوا هنا يبحثون وينقبون . . . لم يكن من السهل على تلك الشركات أن تصدق هذه التقارير التى كأنها كتبت عن حقول بترول ليست فى هذا الكوكب بل فى كوكب آخر، والتى حملت من البيانات ما فاق كل ما كان يمكن أن يكتبه المرء بأسلوب الراجى المتمادى فى الأمل والتفاؤل ... فأخذت الشركات ترسل المزيد من خبرائها المختارين من بين الفطاحل وذوى الخبرة العالية ليتأكدوا من صحة ما جاء فى هذه التقارير عن تلك النسبة العالية التى ليس لها مثيل فى بلادهم ولا فى أى مكان آخر، وهى أن كل خمسة آبار تحفر يخرج البترول من بئرين منها بكميات رهيبة فاقت كل وصف .. ...

ونتيجة لهذه الإنتاجية العالية فإن مجموع عدد الآبار الموجودة بالمملكة العربية

السعودية هو خمسة وثلاثين بئرا فقط علما بأن منابع البترول فى الولايات المتحدة يوجد بها عشرات الآلاف من الآبار مما يزيد تكاليف الاستخراج عندهم بشكل باهظ . . . إن كل بئر تحفر تكلف مئات الآلاف أوالملايين، وقد يخرج منهابترول غزير أو قليل وقد لا يخرج منها إلا الماء . وهذا هو ما يؤثر بطبيعة الحال على تكاليف الاستخراج . ولذلك كلما زاد عدد الآبار التى تحفر لاستخراج كمية ثابتة من البترول زادت تبعا لذلك التكاليف . وهذا سر من أسرار قوة بترول الشرق الأوسط . ففى هذه المنطقة كلها حفرت للآن حوالى ألف وخمسمائة بئر . أما فى الولايات المتحدة فقد حفرت فى العام الماضى وحده ٥٦ ألف بئر . . . فلا عجب إذن أن يكون بترول الشرق الأوسط أرخص بترول فى العالم وأن تكون منطقته أخصب منطقة للبحث والتنقيب وأن تكون حقوله أضمن مورد للمستقبل. ويكفى أن يعلم المرء أخيراً أن مجمل الأموال المستثمرة فى البترول فى الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية تبلغ حوالى ٦٣ ألف مليون دولار ، فى حين أن ٥٪ فقط من هذه الأموال — أى ثلاثة آلاف مليون دولار — هى كل المال المستثمر فى بترول الشرق الأوسط . ورغم هذا فإن الشرق الأوسط ينتج فى الوقت الحاضر ٢٥٪ من بترول تلك البلاد ! !

تطهير قناة السويس

أحس الغرب بخطورة الحالة واضطراب وضعه وكيف أنه أصبح مهددا لتوقف وصول الوقود إليه بسبب سد القناة ونسف أنابيب البترول فى لبنان وكذا محطات الدفع فى سورية، أحس أنه أصبح كالمريض المحموم الذى فقد قوته وأصبح ضعيفا

لا حول له ولا قوة يتصبب العرق من جبينة وجسمه وترتفع درجة حرارته باطراد حتى يكاد ينفجر ... وماذا يحدث لو استمر الحال هكذا سنة كاملة حسب تقدير بعض الخبراء للمدة اللازمة لتطهير القناة ؟ بل وماذا يحدث لو أن مصر رفضت تطهير القناة بنفسها أو السماح لغيرها بتنفيذ هذا العمل ؟ إن انجلترا يجب أن تركع لمصر وتشبك أصابع يديها وترفعهما مستجدية مستعطفة مسترحمة فى طلب التطهير حتى يأتيها الوقود قبل أن (يخرب بيتها) . . . هذا هو ما كانت تعلمه مصر علم اليقين والعالم كله يفهمه . وكانت مصر تستطيع أن تعاند وتصلب رأسها وتراوغ بدافع من رغبتها فى الثأر من انجلترا لكل ما فعلته بها . وكانت مصر تستطيع أن تحافظ أطول وقت ممكن على هذا الوضع الذى قلب ميزان القوى بين الغرب والشرق وعرض سلام العالم لخطر جسيم إذا حدث وقامت فكرة حرب خاطفة.. ولكن مصر ليست الدولة التى تضر أحدا أو تعمل ضد السلام ، لأننا نؤمن بالتعايش السلمى و بخطر الحرب على البشرية وندعو بكل قوانا لسلام دائم ترفرف أجنحته على هذا الكوكب من حيث تشرق الشمس إلى حيث تغرب . . . ولذلك لم تضع أمامنا هيئة الأمم على مائدة التفاوض حول تطهير القناة غير موضوع واحد وعرض واحد هو مستقبل انجلترا . . . وضعته أمامنا هيئة الأمم على المائدة كقالب الكعك الذى يستطيع المرء أن يفركه بأصابعه فركا فيفتته بغير عناء . . . ولكننا دائما شرفاء كرماء ؛ ننسى الإساءة ونغفر للعابثين لعبهم بالنار والبارود ، فقلناها مجلجلة مدوية ؛ قلناها من وحى شهامتنا الأصيلة : فلتطهر القناة ؛ و بأسرع ما يمكن ؛ وتحت إشراف هيئة الأمم ؛ و بأكبر قسط من مساعدة مصر . . . وعلى الجيوش المعتدية أن تنسحب كالبرق ؛ من مصر

ومن سيناء ، ولم يكن ذلك اشتراطا أو ثمنا لقبول التطهير ؛ بل كان كرما كل الكرم ؛ ودليلا قاطعا و برهانا ساطعا على تمسكنا بالسلام وحيادنا التام .

ايدن ينتهى

يفشل الاعتداء على بور سعيد وتنتصر المدينة الخالدة وتنتصر القومية العربية وتنتصر روح باندونج وتنتصر كل المبادىء التى تنادى بالسلام وحرية الشعوب ، ويفشل الاعتداء و يخذل مدبروه وتبدو أمامهم أشباح مخيفة تمنع النوم عن جفونهم فلقد «مرت السكرة وجاءت الفكرة » وتبين أن الخطة التى أعدها إيدن وسماها حملة بوليسية سريعة قد فشلت فشلا ذريعاً ، وقد ظهر أن كثيراً من الأنباء التى كان يذيعها فى البرلمان الإنجليزى أثناء المعركة كانت أنباء كاذبة، ولأول مرة فى التاريخ تذاع على أعضاء البرلمان البريطانى أنباء كاذبة ، ثم يلمس إيدن كيف أنه أساء إلى حزبه إساءة بالغة وأنه فقد من رجاله وزيرين استقالا احتجاجا على حماقته ، فضلا عن سوء مستقبل حزب المحافظين فى أية انتخابات قادمة ، هذا فضلا عن تصدع الكومنولث لأول مرة بحيث أن الصدع الذى أصابه نتيجة لغضب الهند وسيلان بسبب الاعتداء لن يعالج فى يوم من الأيام، يضاف إلى ذلك تلك الأموال الضخمة التى بلغت ملايين الجنيهات وانفقت على الحملة الفاشلة وكلها من دافع الضرائب الإنجليزى ، ومجاعة البترول التى لا تهدد بريطانيا وحدها ولكن تهدد أوربا الغربية كلها مما جعل إيدن يلعن فى كل مكان فى أوربا ، ثم هذه الدماء الإنجليزية التى سالت لأول مرة فى أرض القناة ، هؤلاء الجنود الإنجليز الخلص الذين قتلوا ؛ ماذا سيحتج به إيدن لآبائهم وأمهاتهم ، إن الإنجليز على مدى التاريخ الطويل

كانوا يخوضون الحروب بجنود من غير أبنائهم ، أما هذه المرة فالقتلى من صميم أبناء الشعب الإنجليزى ، لو أن الحرب انتهت بنجاحهم لوجد إيدن ما يبرر به تدفق دمائهم على أرض المعركة ولكن الحملة قد فشلت فالويل له من مواطنيه .

ثم خروج جمال عبد الناصر الذى يعتبره إيدن عدواً شخصياً من المعركة ظافراً وتدهور العلاقات بين أمريكا وانجلترا نتيجة حملة صحف إيدن على ايزنهاور أثناء معركة الرياسة الأمريكية .

إيدن فتى الإمبراطورية المدلل الذى ربى لبضعة وعشرين عاما طوالا لكى يتسنم كرسى رياسة الوزارة ، فإذا به يفجع شعبه ويظهر أنه أفشل رئيس وزارة شهدته بريطانيا، ونتيجة لذلك ينتهى نفوذ بريطانيا ومصالحها فى الشرق الأوسط إلى الأبد .

كل هذه المصائب تحل على رأس إيدن ويشهدها بعينيه فى لحظة واحدة ودفعة واحدة ، إن واحدة من هذه المصائب كافية أن تطيح به فما باله وقد تجمعت كلها فوق أم رأسه ، إن من حقه أن ينهار ، بل من واجبه أن يصاب بالجنون .

إلى جمايكا

وهكذا لم يستطع السير أنطونى إيدن أن يصمد للمصائب فانهار بعد المعركة مباشرة أو على حد تشخيص أطبائه أصيب بانهيار عصبي شديد وأخذوا يبحثون له عن مكان خال من الناس ومن المشاكل ومن اسم جمال عبد الناصر فكانت رحلته المشهورة إلى . . . جمايكا ،

وهنالك حاول أن يسترد أعصابه المنهارة على بلاج منبسط رحيب وتحت أشجار جوز الهند وبمساعدة طبيبه الخاص ،ولكن أعصابه كانت قد قررت الرحيل إلى مكان بعيد . . . إلى الأبد . . . إلى غيرة رجعة ، فعاد إلى بريطانيا و بوده لو لم يعد ، واستقبله الشعب البريطانى أسوأ استقبال ، ولم يلبث أياماً حتى أقيل من منصبه على ندرة ما يحدث فى بلاد الإنجليز من إقالات ، حدث ذلك فى شهر فبراير سنة ١٩٥٧ أى بعد انسحاب الإنجليز من بور سعيد بأقل من شهر ، وما يحدث فى بريطانيا يحدث له صدى مباشر فى فرنسا فتسقط وزارة جى موليه شريك إيدن فى الاعتداء كعلامة أخيرة على انتصار بور سعيد وعودة القناة إلى العرب وانتصار سياسة الحياد وسقوط سياسة الأحلاف الاستعمارية التى كان إيدن نفسه صاحب فكرتها ومخرجها .

بور سعيد بعد المعركة

تنسحب الجيوش المعتدية من المدينة الخالدة ، و إذا بجيوش شباب ما بعد المعركة تزحف إليها لتقدير الخسائر المالية والمادية ، وتشكل اللجان من خيرة شباب الدولة لدراسة تعويض الأهالى عن خسائرهم وترميم المبانى التى أصيبت وتشييد مدينة جديدة مكان حى المناخ الذى احترق عن آخره وأصبح أثراً بعد عين لا يرى فيه الناظر إلا أطلالا لا تشير إلى أن هذه البقعة كانت فى يوم ما مسرح حياة ،وتسير الإنشاءات بسرعة قياسية تدعو إلى العجب والإعجاب على ما سنبينه فيما بعد بشىء من التفصيل، وتطهر القناة وتدب الحياة من جديد فى المدينة . إن شعب بور سعيد شعب ذكى نشيط ، لقد واجه الموقف بعد المعركة بشجاعة كاملة فأخذ يجد و يعمل

إلى أن عادت الأمور إلى ما كانت عليه ، نسى مصائبه فيمن فقدهم من الشهداء وإن كان لم ينس الشهداء أنفسهم ، لقد بكاهم لأنهم جزء من قلبه وفلذة من كبده ، ولكنه اعتبرهم خالدين واعتبر تضحياتهم ثمناً للمجد وعربوناً للبطولة وسلماً للخلود .

ويمضى عام على تحرير المدينة وفى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٧ يذهب القائد المنقذ جمال عبد الناصر لزيارة بور سعيد فلا يحمل على الأعناق وإنما تحمل سيارته كلها على الأكف ويلقى خطابه التاريخى الذى أزاح فيه الستار عن مؤامرات الاستعمار ويعلن فشلها جميعها ، بل يعلن تأميم المؤامرات أسوة بتأميم شركة القناة ويتبرع بإيراد المؤامرة وثمنها مضافاً إليه نصف مليون جنيه من ميزانية الدولة لإعادة الحياة النشطة إلى المدينة وإنشاء صناعات بها وبداية العناية الإيجابية الكاملة بأهلها .

وهكذا يذهب المعتدون وتخلد بور سعيد .

أسباب الحملة

لم يكن تأميم شركة قناة السويس السبب الرئيسى للحملة العسكرية على مصر فقد ذكرنا فى صحيفة سابقة أن التأميم عمل مشروع تمارسه أى دولة مستقلة ذات سيادة ، ومصر بطبيعة الحال دولة مستقلة ، وبالتالى فمن حقها أن تؤمم ما تراه مناسباً من مرافقها شأنها فى ذلك شأن أية دولة رأت فى عمليات التأميم مصلحة محققة لها ، فباشرت حقوقها المشروعة فى ذلك .

أما الأسباب الحقيقية للحملة العسكرية على مصر فهى أكثر من أن تحصى ، وكانت عملية التأميم ولاشك إحدى هذه الأسباب لأن امتداد عدواها خطير على الأستعمار الغربى(١) . ولكننا سنحاول أن نضع تحت الأنظار بعض هذه الأسباب .

(١) والكتاب ماثل للطبع أممت إندونسيا جميع الشركات الهولندية والبقية تأتى . . . إن الخير فى الطريق .

١ — صفقة الأسلحة الروسية :

درج الغرب منذ أن وطد أقدامه فى الشرق على أن يجعله أمماً ضعيفة متفرقة لا يحميها جيش من أبنائها ولا يعززها سلاح إلا ما تجود به دول الغرب من السلاح القديم البزيل الذى مضى زمانه وأصبح غير صالح للاستعمال ، وقد كان من نتيجة ذلك أن عصابات قليلة العدد من الصهيونيين فى فلسطين تمكنوا فى ظل حماية الاستعمار من هزيمة سبع جيوش عربية ، ومكنوا لأنفسهم فى أرض غير أرضهم بعد أن طردوا أصحابها الأصليين مما لم يسبق له مثيل فى التاريخ .

فلما قامت دولة إسرائيل فى تلك الظروف الشائنة بمساعدة الاستعمار الغربى لم يجد بدا من مناصرتها والاستمرار فى التهديد من أجل المحافظة عليها ، وأخذ فى تدليلها واستعدائها على الدول العربية بحيث لم يكن يمر أسبوع واحد إلا وتعتدى فيه على دولة عربية فلا تملك تلك الدولة العربية المسكينة إلا أن تجأر بالشكوى إلى خالقى إسرائيل و باعثيها إلى الوجود ، و بهذه الوسيلة أصبحت إسرائيل أداة إذلال للعرب وركيزة للاستعمار ينطلق منها على الدول العربية فى الوقت الذى يحس فيه بادرة من بوادر القوة لدى واحدة من هذه الدول المستضعفة .

ظلت إسرائيل متمادية فى الاعتداء على العرب بمناسبة و بغير مناسبة ، لا تفتأ ترتوى من دمائهم على طول حدودها ، وهو كما يبدو أمر شاذ حقيقة ، إذ كيف يتسنى لدويلة صغيرة خلقت من سفاح لا يزيد تعدادها على نحو مليون ونصف مليون نسمة أن تعتدى على مجموعة من الدول يزيد تعداد سكانها على أربعين

مليوناً من البشر ثم لا يجد هؤلاء الملايين الأربعون من وسيلة لصد الاعتداءات المتوالية المتكررة إلا بالشكوى وكظم الغيظ .

جربت الدول العربية أن تطلب سلاحاً من المعسكر الغربى وألحت وعرضت أثماناً مغرية ، ولكن النية كانت مبيتة للحيلولة دون تسليحها، ولم يكن يخطر على بال الدول الغربية أن لدى الدول العربية المتحررة من الشجاعة ما يجعلها تتسلح من المعسكر الشرقى ، ولكنها أصيبت بما يشبه الذهول حينما صحت من غفوتها فوجدت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد باشر حقوقه المشروعة فى تسليح وطنه المستقل من أية دولة تبيعه السلاح فعقد صفقة أسلحة كبرى مع روسيا وتشكوسلوفاكيا جعلت جيش مصر أقوى جيش فى المنطقة ثم تلت سورية مصر فعقدت بدورها صفقة مماثلة مما أطار لب المعسكر الغربى أو بالأحرى — وكما نسميه فى بلادنا — المعسكر الاستعمارى ، فأخذ يهدد ويرعد ويزبد ويدفع إسرائيل إلى التلويح بما أسماه حرباً وقائية ، ولكن القطار كان فات وأصبحت كل من مصر وسورية أقوى دولتين فى المنطقة كلها الأمر الذى أظهرهما أمام الغرب بمظهر المتمرد الخارج على الطاعة الذى ينبغى أن يؤدب بأسرع ما يمكن حتى لا يقلدهما غيرهما من جيرانهما فيفلت الزمام من السادة المستعمرين المتحكمين المستغلين.

٢ — المحافظة على إسرائيل :

إن دول الاستعمار الغربى لا تحب اليهود بل إن كراهيتها لهم لا تقل عن كراهية هتلر لهم ، وحتى أمريكا نفسها التى تعتبر حصن الصهيونية الحصين لا يقف الأمر بها عند كراهيتهم وحسب ، بل إنها تحتقرهم وتمعن فى الاستهزاء بهم ،

وأكبر شاهد على ذلك تلك اللافتات التي تعلق على أبواب كثير من المطاعم والمحال العامة وقد كتب عليها بخط واضح « ممنوع دخول اليهود والكلاب ». وما يقال عن احتقار الأمريكان لهم ينسحب على الانجليز والفرنسيين والايطاليين والألمان بطبيعة الحال، وبالتالى فليس إنشاء دولة اسرائيل انعكاساً لحب أو تقدير لليهود وإلا فقد كان من الممكن لو حسنت النيات إنشاؤها فى أواسط أفريقية مثلا أو جنوبها أو فى أمريكا الجنوبية أو أية بقعة من بقاع أرض الله الواسعة، وإنما وقع الاختيار على هذا المكان حتى تكون هذه الدويلة بمثابة رأس حربة موجهة بصفة دائمة للشعب العربى، تحول بينه وبين النهضة والتيقظ، ومصوبة إلى صدور المسلمين الذين يكرههم الصليبيون من عهد الاستعمار لكى يظل سكان المنطقة عبيداً للغرب وموطئاً لنفوذهم وسوقاً لبضائعهم وضيعة تصدر إليهم الخامات المعدنية والزراعية والبترول .

فلما عقدت بعض الدول العربية المتحررة مثل سورية ومصر (اللتين اتحدتا وعادتا إلى الوضع الطبيعى فى الاندماج كمقدمة لتوحيد الشعب العربى جميعه) صفقة الأسلحة الروسية ثارت ثائرة الاستعمار . إنهم لم يثوروا خوفاً على أنفسهم، فليس مما يدور بخلد العرب أن يذهبوا إلى أمريكا فيحاربوها بالأسلحة الروسية أو أن يذهبوا إلى انجلترا أو فرنسا لنفس الغرض، كما أن ذلك فيما نعتقد لم يدر بخلد زعماء الغرب وإلا كانوا من البلاهة وسخافة التفكير بحيث ينبغى لهم أن يذهبوا إلى مصحات المجاذيب، وإذن فميم كان الخوف ؟ الجواب لا يحتاج إلى كثير من التخمين . لقد كان الخوف على اسرائيل، الركيزة الأخيرة للاستعمار، اسرائيل التى لم تنقطع شحنات الأسلحة عنها يوماً واحداً منذ أن أنشئت، وفى

نفس الوقت ضرب حول البلاد العربية حصار جبار للحيلولة دون وصول طلقة رصاص واحدة إليها ، واسرائيل كما ذكرنا هى مخلب القط الذى يهدد البلاد العربية و يحول بينها و بين الاستقرار ، ووصول الأسلحة الروسية نذير بالاستقرار فى المنطقة إن لم يكن نذيراً بالقضاء على الدويلة التى خلقت من سفاح وفى ذلك الخطر كل الخطر على السيادة الغربية ، و إذن فلتفكر الدول الغربية سريعاً ولتقدح زناد عبقريتها لتتصيد الفرص وتضرب ضربتها حتى تقضى على الانتفاضة الجبارة التى تهدد ما تسميه مصالح لها فى المنطقة ، وليس لها من ذريعة تسعفها وتتذرع بها إلا التأميم. وحتى التأميم نفسه لم تجعله الدول الاستعمارية سبباً ظاهراً، و إنما جعلت السبب الظاهر هو تهديد الملاحة فى القناة نتيجة للحرب التى شنتها إسرائيل على مصر بإيعاز واتفاق مع كل من انجلترا وفرنسا والتى كان يقود جيشها أثناءها ضباط انجليز وفرنسيون بل أكثر من ذلك كانت الطائرات التى ضربت الأهداف المصرية العربية طائرات انجليزية وطائرات فرنسية يقودها طيارون انجليز وفرنسيون مسيحيون وليسوا يهودا .

وهكذا كان من أسباب الحرب محاولة القضاء على القوة الجديدة التى ظهرت بوادرها فى مصر وسورية حتى تظل إسرائيل حادة الأظافر صامدة فى المنطقة كتابع يأتمر بأوامر سادته من دول الاستعمار وهم يعلمون علم اليقين أن وجود إسرائيل لفترة طويلة أمر شاذ خارج على نواميس الطبيعة وقوانين الحياة لأنها جسم غريب عن المنطقة تسبب فى تشريد أصحاب البلاد الأصليين وطردهم من وطنهم مما لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، و إلا فما الرأى لو تمكنت قوة من القوى من تجميع زنوج أمريكا مثلا باعتبارهم جنساً مضطهدا ومنحتهم قطعة أرض فى أوروبا

ولكن هولاندا مثلا بعد أن يطرد الهولنديون من ديارهم و يشردوا فى بقاع الأرض و يصبحوا من اللاجئين المشردين تحت خيام بالية يفتك بهم الجوع والبرد والمرض .

هل يكون إخراج الهولنديين من د يارهم أمرا عادلا ؟ وهل يكون إسكان الزنوج مكانهم أمرا معقولا مقبولا غيرشاذ؟ وهل ينتظر لهذه الدولة الزنجية الجديدة البقاء والاستقرار خاصة إذا استعملت مع جيرانها وسائل الغدر والاعتداء والاستفزاز مهما ساندتها أقوى الدول وأكثرها عتوًّا ؟ إن الجواب يكون نفيا بطبيعة الحال .

إن وضع إسرائيل ليس أقل شذوذا و إن مولدها ووجودها بين الشعب العربى ليس بأقرب إلى المنطق من وجود دولة للزنوج مكان هولاندا .

٣ — الروح الاستعمارية الكامنة فى إنجلترا وفرنسا :

إن ساسة انجلترا من أقل ساسة العالم فهما لطبائع التطور الهائل الذى يكتسح العالم للسير قدما فى طر يق الاستقلال والحر ية ، فلا زال هؤلاء الساسة يفكرون بعقلية القرن التاسع عشر الذى كانت الشمس لاتغيب فيه عن مستعمرات الامبراطور ية ، وكانت قناة السو يس بالنسبة لهذه الامبراطور ية فى الماضى وبالنسبة لأطلالها فى الحاضر بمثابة الشريان الحيوى الذى بدونه تختنق ويذوى عودها وتذهب أدراج الرياح .

ومن العجيب أن الانجليز شعب منصف داخل بلادهم ولكنهم خارجها لايحاولون أن يتمشوا مع طبيعة الأحداث العالمية ولذلك فإنهم يصفون أنفسهم حينا بالبرود وأحيانا أخرى بالغباء .

وإن تأميم شركة قناة السويس يعد من وجهة نظرهم جرأة على هيبة الامبراطورية فضلا عن أنها سابقة توحى إلى بقية دول المنطقة بالمسارعة إلى تأميم مابها من شركات أجنبية خصوصا شركات البترول فى العراق والكويت والبحرين والسعودية ، وهنا تكون الطامة الكبرى على مستقبلهم خاصة وأنهم لم يفيقوا بعد من أثر الكفاح الطويل الذى بذلوه لإسقاط الرجل الذى لوى ذيل الأسد البريطانى فى إيران ونعنى به محمد مصدق الذى أذلهم وانتصر عليهم فى هيئة الأمم وفى محكمة العدل الدولية ، ولو أنهم كانوا يسايرون الزمن لحاولوا الاتفاق مع هذا الرجل الذى كانت كل مطالبه معقولة وكانوا حينئذ فى غنى عما لحقهم من إهانة أدبية لازالت بريطانيا تعانى من آثارها حتى اليوم .

وما يقال عن انجلترا يقال عن فرنسا فقد ظلت تصر على اعتبار قناة السويس مرفقا فرنسيا ، فاللغة الرسمية فرنسية وجميع مشتريات الشركة سواء أكانت تافهة كالدبابيس والمكانس أو ثمينة كالماكينات والكراكات لا تشترى إلا من فرنسا إلى غير ذلك من الأخطاء التى لا سبيل إلى حصرها ، يضاف إلى ذلك موقف فرنسا الاستعمارى فى المغرب العربى وإصرارها على اعتبار الجزائر جزءا من الأراضى الفرنسية وضياع هيبتها فى الحرب الماضية حينما اكتسحتها جيوش هتلر ، ثم هزيمتها فى حرب الهند الصينية الأمر الذى أثر على هيبتها ، كل ذلك جعلها تحاول أن ترأب ما انصدع من أمرها فشمخت بأنفها وحاولت أن تظهر شيئا من القوة أو الجبروت ، الأمر الذى جعلها تفكر نفس التفكير الانجليزى فى الاعتداء على مصر لاسترداد القناة واستعادة شىء من المجد الضائع والفت فى عضد المجاهدين الجزائريين .

٤ — فقدان انجلترا هيبتها فى الشرق الاوسط :

أحست إنجلترا منذ سنة ١٩٥٤ أن نفوذها بدأ يتبخر من الشرق الأوسط فحاولت أن تستعيده بربط البلاد العربية كلها بحلف تشده إلى عجلتها وتحاول عن طريقه أن تبسط ولايتها من جديد على دول المنطقة فأنشأت ميثاقاً أطلقت عليه « حلف بغداد » ضم العراق وتركيا وإيران وباكستان بالإضافة إلى إنجلترا نفسها بطبيعة الحال ، ولقد كانت إنجلترا مطمئنة كل الاطمئنان إلى النتيجة التى أملت الوصول إليها خصوصاً وأن لها سابقة فى ذلك حينما أنزلت وحيها على بعض الزعماء العرب إبان الحرب العالمية الثانية فأنشأوا جامعة الدول العربية التى تكونت من عملائها فى أول الأمر ثم ما لبثت أن أصبحت قلعة من قلاع القومية العربية بعد تحرر أكثر البلدان العربية تحرراً كاملا .

أصيبت إنجلترا بصدمة كبرى حين فوجئت بأن دولة عربية واحدة لم تقبل أن تنضم إلى هذا الحلف الشرقى الإسلامى شكلا ، الاستعمارى الصهيونى موضوعاً اللهم إلا بغداد التى كان يحكمها بالحديد والنار بعض الخونة من عملائها .

تحيرت إنجلترا بعض الوقت ثم أنعمت النظر فاذا به يقع على الأردن الصغير الذى وقف شبه متمرد على الحلف الجديد فأعملت فكرها لكى تضم الأردن إلى هذا الحلف الجديد ، وهداها تفكيرها الذى لا يتمشى أبداً مع الزمن أن ترسل قائد جيوش الإمبراطورية الجنرال تمبلر إلى عمان لكى يقوم بهذه المهمة العنيفة التى تحتاج إلى شيء من هز العضلات ، ولكن إنجلترا تفاجأ أن قائد جيوش الإمبراطورية يطرد من الأردن شر طردة ويشيع بالطوب والحجارة وتدهش لذلك بل تفغر فاها من هول المفاجأة وتعض على نواجذها غيظاً .

ولا تكاد تمضى أيام على ذلك الحادث حتى تفاجأ إنجلترا مرة ثانية بطرد رجلها وابنها البار ملك الأردن غير المتوج الجنرال الإنجليزى «جلوب» ووضعه فى طائرة بعد عزله بساعات و إرساله إلى لندن كسير البال كسيف الفؤاد، لم يتحمل الساسة الإنجليز هذه الخبطات ، وما كادوا يفيقون من هولها حتى أصيبوا بإهانة أبلغ وأخطر حينما كان سلوين لويد وزير خارجية الإمبراطورية يقوم بزيارة البحرين الإمارة العربية المتواضعة فإذا به يضرب بالطوب والحجارة من عامة الشعب فيفر كما يفر الكلب الأجرب تحت وطأة مطاردة الناس له خوفاً من أذاه واشمئزازاً من مرآه .

ماهذا التبدل السريع العجيب؟ ماهذه الإهانات المتوالية التى تلحق بالإمبراطورية فى شخص وزرائها وجنرالاتها ومبعوثيها ؟ إنه حلم ثقيل مزعج ، إنه تبدل مخيف، من الذى يدفع هذه القافلة ؟ إنها مصر وإنه زعيم جديد من طراز جديد ، من أبناء الشعب ، إنه بعينه الذى أمم شركة القناة . فلا بد إذن من ضرب مصر و إسقاط هذا الزعيم الجديد .

٥ — مركب النقص عند إيدن رئيس وزراء انجلترا :

سبب آخر لإشعال حرب السويس ، سبب شخصى محض ، إن إيدن ابن الإمبراطورية المدلل ورئيس وزرائها الأنيق بدأ يتلقى هذه الضربات المتوالية فى الأردن وفى البحرين وفى حلف بغداد الذى أنشأه ففشل فيه .

أصبح إيدن فى نظر الإنجليز أفشل رئيس وزارة فى تاريخ الإمبراطورية ، هاجمه معارضوه ، وهاجمه أبناء حزبه من المحافظين ففقد الرجل الأنيق أعصابه وهو بسبيل أن يفقد زعامته على الحزب ورئاسته للوزارة التى لقى الأمرّين من تشرشل حتى تنازل له عنها. وكأنه لم يكن واثقاً فيه .

نظر إيدن حوله ليرى أسباب تلك النكبات وكان من الممكن لو أنه يفكر بعقلية القرن العشرين وضع أصابعه على أسبابها ، إنها تطور الشعوب وتحركها من سباتها ويقظتها التي لم يكن بد منها .

ولكن أنطونى إيدن كما ذكرنا لم يكن ينظر نظرة الحكيم ، فلم يجد أمامه إلا مصر ورئيس مصر فجعل من المسأله مسألة ثأر شخصى بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر فرتب الاعتداء ، وقد كان مؤسفاً لأنصار إيدن أن يروا زعيمهم ينتهى إلى الأبد ، تركله دنيا السياسة بحذاء غليظ بينما يتسنم عبد الناصر أعلى درجات المجد بخطوات سريعة ..

٦ — الذهب الأسود :

أن منطقة الشرق الأوسط التى تتزعمها مصر هى منطقة البترول أو الذهب الأسود كما يسميه رجال الاقتصاد الغربى ، وبمعنى أوضح هو عصب الصناعات فى دول الغرب فهو الذى يدير المحركات الضخمة التى تسيّر المصانع ، وهو الذى يولد الكهرباء وهو الذى يسير السيارات والطائرات والدبابات ، وهو الذى يولد الدفء فى زمهرير الشتاء الأوربى الثلجى إلى غير ذلك من الفوائد التى لا تعد ولا تحصى .

هو فى الجملة عصب حياة أوروبا فى السلم والحرب على السواء . إن هذا البترول فى أرض العرب الغافلين منذ مدة طويلة ثم جاء هذا الشاب جمال عبد الناصر فايقظهم من غفلتهم وأشعرهم بكرامتهم وحقهم فى الحياة الكريمة . إنهم جائعون والخير فى أرضهم ممتنع عليهم يستمتع به غيرهم ، إنهم كما يقول الشاعر :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمولُ

فأولى بهذه العيس أن ترتوى من الماء الذى يثقل ظهورها، وبالتالى أولى بهؤلاء العرب أن ينالوا خير بترولهم، إنه ينبع من أرضهم وهو حق لهم فإذا ما تنبهوا بشكل أو بآخر لن يدخروا وسعا فى تأميم هذا البترول كما أمم عبد الناصر شركة قناة السويس، وهنا الطامة الكبرى بالنسبة للغرب، إنهم والحالة تلك مهددون بالتأخر والتعطل والجوع والإظلام والموت من البرد، فليضربوا سريعا على يد عبد الناصر وليخمدوا حالا تلك الجذوة المقدسة التى هى بسبيل الاشتعال لتحرقهم حتى يؤمّنوا ظهورهم ويأمنوا غوائل المستقبل فيظل البترول لهم وتظل القناة فى يدهم وتحت إمرتهم.

هذا إذا ضربنا صفحا عن النهضة الشاملة التى ستشمل الشرق العربى والتى ستجعل منه منتجا مزاحما بعد أن كان سوقا مستهلكا.

إن الأخطار التى تنتظر الغرب أبشع وأسرع مما يتوقعون، وحكامه بعقلياتهم الاستعمارية يرفضون أن يخضعوا تفكيرهم للمنطق ولمقتضى طبائع الزمان الذى يسير إلى الأمام وما كان ليسير إلى الخلف فى يوم من الأيام.

٧ — الحروب الصليبية :

وهذا سبب آخر خطير لا نقول به نحن العرب ولكن يقول به بعض المعلقين السياسيين من الغربيين، يقولون إن العملاق الإسلامى لو تيقظ فإنه سيصبح من الصعب علينا نحن الغربيين أن نستحل أرزاق العرب وأرضهم ويستحيل علينا أن نستذلهم، فهيا إلى ضربه بقسوة قبل أن ينتصب قائما، ومن هنا كانت حرب بور سعيد ليست إلا غزوة صليبية كسابقات لها من قبل فلقد غزت الجيوش الصليبية منذ حوالى سبعة قرون دمياط والمنصورة فى الأقليم المصرى كما غزت سواحل فلسطين ولبنان وسورية واستمرت هذه الحروب قائمة ولكن بشكل

مستتر ، فلا غرابة على الإطلاق أن يقوم الغرب الصليبي بضرب بور سعيد وهى لا تبعد كثيرا عن دمياط على النحو الذى جرى منذ سبعة قرون من الزمان .

نحن — العرب — نعرف حق المعرفة الفرق بين الصليبية والمسيحية ، فالمسيحية كلها سماحة وحب وسلام ، وأما الصليبية فهى مذهب الاستعمار والدماء والشذوذ والتعصب ولاشك أن المسيحية منها براء .

والواقع ان الحرب الصليبية لازالت مستمرة حتى اليوم تقودها إنجلترا وفرنسا ، وإلا فمن يستطيع تفسير قول الجنرال الانجليزى اللنبى حينما فتح بيت المقدس سنة ١٩١٧ ووقف عند مسجد الصخرة قائلا « الآن فقط أستطيع أن أقول إن الحروب الصليبية قد انتهت » من يستطيع تفسير هذا القول فى إطار خارج عن إطار الصليبية ؟ وما معنى ذلك !!

وما معنى تصرف الجنرال الفرنسى جورو سنة ١٩٢٠ حينما دخل دمشق على أشلاء الشهداء من السوريين فيتجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبى فيركل باب الضريح بقدمه ويردف قائلا : « لقد عدنا ياصلاح الدين » ما معنى ذلك ؟؟

وما معنى أن تبيد فرنسا فى أحد أيام أغسطس سـنة ١٩٥٢ ستين ألف مراكشى مسلم فى بضع ساعات ؟؟ وما معنى أن تبيد فرنسا فى أحد أيام سنة ١٩٤٥ خمسة وأربعين ألف جزائرى مسلم فى يوم واحد ؟ وما معنى حرب الإبادة القائمة الآن فى الجزائر المسلمة ؟

ثم يتساءل بعض المتتبعين للسياسية العالمية : كم من المجاهدين القبرصيين قتلوا فى حرب الاستقلال حتى الآن مع أن كلا من الشعبين يطالب باستقلاله وماهى نسبة القتلى من الطرفين ؟ لا سبيل إلى المقارنة والسبب كما يقال إن شعب قبرص

مسيحى وأما شعب الجزائر فهو مسلم .

ثم لماذا ثارت ثائرة الدول الأوربية المسيحية بشدة وعنف إزاء أحداث المجر مع أن الذى يحدث فى الجزائر أفحش وأبشع ومع ذلك لم تحاول دولة أوربية واحدة أن تستنكره ؟ كما أن الذى حدث فى بور سعيد بعد ذلك كان أخس وأفظع . هل لأن المجر مسيحية والجزائر ومصر شعوب إسلامية ؟

الواقع أن علامات استفهام كثيرة ترتسم على سطور سياسة الدول الغربية إزاء دول الشرق العربى بصفة خاصة والدول الإسلامية بصفة عامة .

إذن الحرب على بور سعيد كانت حربا صليبية باعتراف بعض دوائر الغرب نفسها إذ أننا نحن العرب لانحب أن نسميها بهذ الاسم ، وإنما نسميها حرب الاستقلال والإنقاذ ، غير أن جميع الملابسات التى صاحبت هذه الحرب والتصرفات التى اتسمت بطابع التعصب الدينى من قبل بعض حكومات الغرب وصحافته — حتى تلك الدول التى لم تشترك فى الحرب اشتراكا مباشرا — قد كشفت كثيرا من الأقنعة ولم تدع سبيلا للاعتقاد بأن الاعتداء على بور سعيد كان حلقة من سلسلة حلقات الحروب الصليبية التى اعتقد الجنرال الإنجليزى اللنبى أنها انتهت سنة ١٩١٧ حينما سقطت القدس فى يده والتى ظن الجنرال الفرنسى جورو أنها انتهت سنة ١٩٢٠ حينما أصر على زيارة قبر صلاح الدين وقال قولته المشهورة نحن هنا يا صلاح الدين .Nous sommes là Saladine .

المعركة سبب أصيل للاتحاد العربى والتخلص من الأذناب

خرج العرب من معركة بور سعيد ظافرين ، وحللوا أسباب الظفر وإنزال الهزيمة بالمعتدين وردوها إلى أسباب كثيرة ، وكان من أهم أسباب النصر اتحادهم وتضامنهم ، إن الإجراءات التى اتخذتها سورية شعباً وحكومة وبخاصة نسف أنابيب البترول قد أوقعت الرعب فى قلوب المعتدين ومنعت عنهم تموين البترول الذى هو عصب الحروب فى الوقت الحاضر ، وإن ما بدا من شعب الأردن ولبنان والعراق والجزيرة العربية ممثلة فى الحجاز ونجد واليمن والكويت كل ذلك كان بمثابة تجميع العصى التى يسهل كسرها فرادى ويصعب كسرها مجتمعة .

ثم نظر العرب بعد المعركة فإذا بمحاولات جديدة تحاول استغلالهم وسوقهم سوق السائمة واتخــاذهم منطقة نفوذ ، لقد خرجوا من المعركة وقد ضربوا بيــد من حديد على النفوذ الإنجليزى والفرنسى فى المنطقة فانتهت السيطرة الإنجليزية والفرنسيــة إلى الأبد ، ولــكنهم لا يــكادون يلتفتون إلى أنفسهم ويرتبون بيتهم كقوم أحرار متحررين ، حتى يفاجأوا بمن يريد أن يرثهم وأن يرث أرضهم ويتخذهم من جديد مطايا تركب أو عبيداً تشترى ، ظهر من يقول إن منطقة الشرق العربى أصبحت منطقة فراغ ولا بد من ملء هذا الفراغ ولم يــكن ملء هذا الفراغ إلا فى شــكل استعمار جديد ، استعمار مقنع لا سافر

وكان الشخص الذى ابتكر هذه النظرية الجديدة هو بــكل أسف المستر أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة الأمريــكية وأطلق على مشروعه هذا « مبدأ أيزنهاور » ولم يكن هناك بد من رفضه بحزم وحسم .

وبدأت مناورات أمريكا فى فرض مشروعها فعزلت العناصر الوطنية عن الحكم فى الأردن بمؤامرة مشهورة يعرفها جميع العالم، وشددت الحصار الاقتصادى على مصر ، وحاولت أن تعزلها عن رفيقة جهادها وتوأم كفاحها « سورية » فقامت بعدة مؤامرات بغية عمل انقلاب كذلك الذى نجحت فيه فى الأردن مستعينة بالخونة الذين انتقم منهم شعب العراق والخائن كميل شمعون وغيرهم من خدام الاستعمار، ولكن الشعب العربى والحكومة العربية فى سورية كانا من التماسك واليقظة بحيث لم تنجح محاولة واحدة من تلك التى حاولتها أمريكا فبدأت فى عمل حركات استفزازية جديدة فطردت السفير السورى من عاصمتها وأوعزت إلى الحكومة التركية أن تلقى بكل جيشها على حدود سورية و إجراء بعض المناوشات والتهديد بالهجوم على الأراضى العربية بحجة زائفة هى أن سورية قد أصبحت مصدر خطر يهدد تركيا بما زعمته من أن فيها اتجاهاً شيوعياً .

وكانت أمريكا نفسها تعلم أن سورية أبعد عن الشيوعية أكثر من بعد تركيا عنها، ولكن أمريكا ظلت تضغط على الجيش التركى لكى يقوم بهجوم على الأرض العزيزة ، وهنا فوجئت مفاجأة مذهلة حينما بوغتت بأن بعض كتائب الجيش العربى المصرى تصل إلى سورية وتتخذ مكانها فى خنادقها على حدود الجبهة الشمالية المقابلة لتركيا وعلى حدود الجبهة الجنوبية المواجهة لفلسطين المحتلة .

ويكون وقع الخبر على أمريكا وتركيا وإسرائيل كالصاعقة و ينتفض الشعب العربى من جديد و يؤمن بألا فكاك وألا مناص من الاتحاد فى الاتحاد حياته وقوته وسيادته ومنعته .

ثم ينظر الشعب العربى إلى الوراء بعيداً و يستعرض تاريخه ، إنه حينما كان

موحداً أمكنه صد الصليبية الأوروبية وظل يلتحم معها ويوقع بها الهزائم حتى ردها إلى ديارها بعد أن عاشت فى بعض مناطق الشرق العربى زهاء مائة عام أو تزيد ، لقد بعثرها وهزمها بقيادة صلاح الدين .

وينظر الشعب العربى مرة ثانية إلى تاريخه البعيد فيجد أنه باتحاده أمكنه أن يقضى على التتار وأن يفرق شملهم وأن يبدد صفهم وأن يذيقهم الهزيمة فى وقت لم يكن هؤلاء الغزاة يعرفون طعماً إلا للنصر والزحف والاكتساح .

وينظر الشعب العربى مرة ثالثة إلى تاريخه البعيد فيجد أنه باتحاده قضى على إمبراطوريتين عظيمتين عاديتين هما أمبراطورية الأكاسرة فى الشرق والقياصرة فى الغرب ، وهكذا كلما نظر الشعب إلى الوراء وتفحص فى تاريخه وجد أمره عجباً .

فلماذا يستذل إذن ؟ ولماذا يقسمه البريطانيون والفرنسيون مناطق استعمار واستغلال فإذا حصل على بعض حقه فى الحياة عادوا مرة أخرى بجيوشهم لضربه فى بورسعيد لكى يتسللوا منها إذا أصابوا نجاحاً إلى بقية أجزاء الوطن العربى .

ولماذا وقد خرج العرب من المعركة بفضل اتحادهم ظافرين تحاول أمريكا تحت ستار مبدأ أيزنهاور استعمارهم واستعبادهم .

وفكر العرب من جديد وانتهوا إلى أنه لا بد من الانتهاء من الاستعمار إلى الأبد سواء أكان هذا الاستعمار سافراً فى شكل احتلال عسكرى أو مقنعاً فى شكل مبدأ أيزنهاور ، وخلصوا إلى نتيجة واحدة لا تقبل الجدل وهى جمع الشمل ورأب الصدع ولم الشتات وتجميع القوى . . . خلصوا إلى العمل على الاتحاد .

ولم يكن الاتحاد ليتم بين البلدان العربية دفعة واحدة بل كان لا بد أن تبدأ به بلدان ، وكان طبيعياً أن يتم بين أقرب هذه المناطق اتفاقاً فى الجهاد والكفاح وحمل رسالة الوطنيـة وخوض غمار المعركة ، أى سورية ومصر ، وأعلنت تصريحات رسمية من المسئولين فى الشطرين العربيين تؤكد حـدوث الاتحاد قبل انقضاء عام على هذه التصريحات .

ولـكن دوائر الاستعمار لم تصدق سرعة إتمام هذا الأمر ، ومع ذلك بدأت تدس من جـديد وتحاول أكل سورية قبل أن تتوحد مع شقيقتها مصر ، وأحس المسئولون فى البلدين بالتيارات الخبيثة ، وكان لا بد من اتخاذ قرار سريع حاسم .

إن الجانبين مؤمنان بالاتحاد الذى لا مفر منه نزولا عن رغبة الشعب العربى وصوناً لمصالحه ، وإن هناك إجراءات تحتاج إلى مدة حتى تنضج وحتى تتسق بعض الأنظمة فى كل من القطرين ، ولـكن ما الذى يمنع — سداً للطريق على كل متآمر — من إعلان الاتحاد الفعلى ثم إجراء الشكليات الصغيرة على مر الزمن طالما أن الاتحاد لا مفر من تنفيذه .

وتمت الأمور بسرعة مذهلة وفوجىء العالم بإعلان الاتحـاد الـكامل أو بعبارة أخرى الاندماج الـكامل بين الشطرين العربيين سورية ومصر فى دولة واحدة ورياسة واحدة وسياسة واحدة .

وذهلت دوائر الاستعمار التى أرادت أن تأكل مصر وسورية كلاً على حدة وبدأت تذيع الأكاذيب حول هذه الخطوة الجبارة ولـكن رحلة مفاجئة لرئيس الجمهورية الجديدة إلى دمشق واستقباله فيها أروع استقبال عرفه التاريخ ألقم

هؤلاء جميعا حجرا ومرغ أنوفهم فى الرغام .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل يسارع جزء عزيز من الوطن العزيز وهو اليمن فيعلن انضمامه إلى الاتحاد الجديد ويسير الركب إلى الأمام وتتقدم القافلة بخطوات واسعة، رحيبة وتلمع الجمهورية العربية المتحدة فى سماء العالم وتنتهى المؤامرات من دمشق و يضرب عليها بيد من حديد فى القاهرة ، وتظهر فى خلال ذلك كله مؤامرة هزيلة لايقاف السيل و تعويق الزحف فيغمرها السيل و يدوسها الزحف و ينكمش رب المؤامرة فى جحر سحيق وتنفق الأموال التى افترض أن تمول المؤامرة بها على مشروعات صناعية تعود على المواطنين بالخير .

و ينظر العرب إلى الأمام فلم يعودوا ينظرون إلى الخلف ، وتفتح الجمهورية العربية المتحدة ذراعيها فإذا بها تلمح أجزاء أخرى من الوطن العربى تسعى إليها فى الطريق ... إنها تزحف ... وإنها لابد واصلة إلى الصدر الرحيب .

ولكن الاستعمار لا ييأس فلا زال له أعوان فى لبنان فى شكل رئيس للجمهورية اسمه شمعون ووزير للخارجية اسمه شارل مالك ورئيس للوزاء اسمه سامى الصلح .

ولا يزال للاستعمار أيضا خدام أمناء فى العراق الحبيب ، إنهم الأسرة الهاشمية الحاكمة ونورى السعيد و بعض الأولاد الصغار من أطفال السياسة ظلوا يعملون على تقويض الزحف العربى المقدس .

ولكن الشعب العربى الأصيل فى لبنان لم يسكت فلم يلبث أن قام بثورة تاريخية كبرى هى فخر ثوراته فصرع الاستعمار الانجليزى الأمريكى فى شخص شمعون وشارل مالك وسامى الصلح وركلهم بأقدامه وألقى بهم بعيدا عن الحكم

فقروا من وجه الشعب وعاد لبنان العظيم إلى حظيرة العروبة .

ولكن الشعب العراقى والجيش العراقى لم يكن ليستمر سكوته طويلا على الخيانة والخونة فقام الجيش الباسل بقيادة القائد العربى عبد الكريم قاسم وقدم الخونة من حكام العراق السابقين أعداء العرب ولمة للطيور الجارحة بعد أن فتك الشعب بهم وجر أشلاء جثثهم فى الشوارع وقدم من نجا منهم إلى المحاكمة بتهمة خيانة الوطن العربى كيف لا وقد كانت مدافع الخونة هؤلاء تحصد الشعب حينما قام بمظاهراته احتجاجا على الاعتداء على بور سعيد وعلى تموين الطائرات الانجليزية بالبنزين من مطار الحبانية العراقى العربى لكى تضرب الشعب العربى فى بور سعيد .

إن القافلة تسير .. تسير قدما إلى الأمام .. إن القوة الكاملة فى الطريق .. وإن السيادة الكاملة فى الطريق .

ويتأمل العرب الظافرون السبب الذى دفع إلى هذا الاتحاد السريع وهذا التحرر السريع وهذا التخلص السريع من الخونة والفتك بهم والقضاء عليهم . . . يتأمل العرب كل ذلك فإذا بهم يقفون على السر المقدس ، إنه المعركة . . . معركة بور سعيد ، إنها بور سعيد التى حققت الوحدة العربية .

أرباحنا وخسائرهم

إن النهاية التى انتهت إليها معركة القناة والنتائج العجيبة التى تمخضت عنها ليست من البساطة بمكان ، إنها أغرب معركة غدر فى التاريخ ، لقد تصور المعتدون بأفكارهم السوداء أو صور لهم غرورهم وقصر نظرهم أنهم فى معركتهم تلك سوف يقضون على كل أثر للانتفاضة الكبرى التى انتفضها الشرق العربى فكانت

النتيجة كلها خسائر بالنسبة لهم وكلها أرباح بالنسبة لمصر والقومية العربية وهانحن نسرد على سبيل المثال بعضا من هذه النتائج .

١ — فسخ الاتفاقية المصرية البريطانية :

كم حاولت مصر أن تتخلص من الاحتلال البريطانى وكم أجريت من مفاوضات كانت نتيجتها دائما الفشل لإصرار بريطانيا وعنادها فى سرعة العودة إلى أرض مصر بجيوشها بمجرد تحرج الحالة الدولية ، وهو شرط عجيب حقا ، فمتى كانت الحالة الدولية هادئة ؟ إنها دائما متحرجة ودائما تنذر بحرب وشيكة أو قريبة ، ومعنى ذلك حسب تقدير بريطانيا أن تظل محتلة للديار المصرية أبد الآبدين .

وكان لابد لنا لكى نستريح من كابوس الاحتلال البغيض أن نتفق معهم على السماح لهم بالعودة فى حالة وقوع اعتداء على البلاد المجاورة وكان من حقهم بمقتضى هذه الاتفاقية أن يعودوا وكانوا لابد عائدين يوما ما، فمنطقتنا كالمرجل الذى يوشك على الانفجار ، وكان المفروض أن يعودوا على أنهم حلفاء أصدقاء ، فلما حدث الاعتداء منهم أنفسهم لا من غيرهم كان معنى ذلك فسخ المعاهدة التى ارتبطوا معنا بها إذ المفروض أنهم كانوا سيعودون لحمايتنا ، أما وقد أصبحوا المعتدين فليذهبوا إذن هم ومعاهدتهم إلى الجحيم ولنخرج من المعركة وقد تخلصنا من كل ما يربطنا بهم من حبال الود التى نخرها السوس والتى كانت حبال كراهية وثأر قديم مغلفة فى غلالة كاذبة من حب وصداقة لا تحمل من معناها قليلا أو كثيرا .

وهكذا أصبحنا كالذهب الأصيل الذى خرج من نيران البوتقة خالصا من

كل شائبة نظيفا من كل خلط ثمينا براقا ، سيد نفسه وسيد سوقه ، لا معاهدات ولا أحلاف .

٢ — الاستيلاء على القاعدة :

لقد ترك الانجليز قبل جلائهم عن منطقة القناة قاعدة عسكرية كبرى مجهزة أحدث تجهيز مستعدة لاستقبالهم فى أى وقت، وهم من أجل ذلك كانوا قد تركوا فيها — بمقتضى أحكام المعاهدة الموءودة — بضعة مئات أو آلاف من المهندسين فى ثياب مدنية والله وحده يعلم ، هل كانوا مدنيين حقا أم عسكريين .

فحينما وقع الاعتداء الغادر لم يكن هناك ثمت تردد فى أن يقبض على هؤلاء المهندسين الذين يحافظون على القاعدة لكى يكونوا أسرى حرب ، وتبعا لقوانين الحرب فى العالم كله أصبحت القاعدة الكبيرة وما تحوى من معدات حربية كثيرة وفيرة وما تحوى كذلك من خيرات مدنية ضخمة ، أصبح كل ذلك غنائم حرب غنمتها مصر غنيمة باردة حلالا فى كل شريعة وفى كل قانون وأنف المعتدين راغم ملوث بالتراب الذى لعقوه نادمين على فعلتهم الغادرة وسوء تقديرهم للأمور وتفكيرهم بعقلية القرن الثامن عشر فى النصف الثانى من القرن العشرين .

٣ — هبوط بريطانيا وفرنسا إلى دول من الدرجة الثانية والثالثة :

مهما اختلف فى كيفية نهاية معركة بور سعيد فالذى لا شك فيه أنها كانت هزيمة نكراء لدولتين كانتا تعتبران كبيرتين ، فقد كان من المعروف — ولو على سبيل الخطأ الشائع — أن بريطانيا دولة عظمى ، والواقع أنها كانت كذلك فى

وقت ما ، أما قبل الاعتداء على مصر فلم تكن دولة عظمى ، وكثير من الدول كانت تعرف حقيقتها ، ولكنها أى بريطانيا كانت تصر على أنها كذلك اجترارا للذكريات البعيدة وسرحانا فى الأحلام السعيدة ، وكانت بعض الدول المنافقة تتظاهر بتصديقها وتعاملها على أنها كذلك ، وكان من الممكن أن تظل بريطانيا معروفة فى الأوساط الدولية على غير حقيقتها ، ولكنها ابتليت بقصار النظر من ساستها الذين دفعوها دفعا إلى هذا المأزق الحرج وقد صدقوا أنفسهم لكثرة ما كذبوا على أنفسهم ولكثرة ما كذب عليهم المنافقون من أنهم أصحاب دولة عظمى فكانت الكارثة ، وكانت « العلقة » التى أكلتها بريطانيا فهزت كيانها ومزقت شرفها العسكرى تماما كما مزق فى دنكرك ، وخرجت من معركة بور سعيد مهينة جريحة فقد لوت بور سعيد ذيل الأسد العجوز الذى لم يعد قادرا حتى على الزئير إلا إذا كان زئير استغاثة ونجدة بتسولها من حلف الأطلنطى وما شاكله .

وهكذا جنى ساسة بريطانيا على سمعتها التقليدية وأصبح ينظر إليها على أنها دولة صغيرة تتعلق بأذيال أمريكا ، وأصبحت دولة كبرى مثل الاتحاد السوفيتى تعاملها على أنها طفل عربيد ولقد تمثل ذلك بشكل لا يقبل الجدل فى صيغة الإنذار الروسى إليها ، إنه لم يكن إنذارا من دولة كبيرة إلى دولة أخرى كبيرة ولكنه كان بمثابة عصا المعلم التى لا يكاد يراها التلميذ المارق حتى ترتعد فرائصه فينزوى سريعا وقد ارتجفت أطرافه وأخذ منه الرعب كل مأخذ ، وقد كان كل ذلك واضحا فى تصرفات « البطل » إيدن حينما وقع الانذار الروسى على أم رأسه فانهار بسرعة لم يتوقعها أحد ولم يقدر حتى على التظاهر بالتماسك وحمل سريعا إلى

« جمايكا » بحيث لم يتحمل بعدها ركلة من القدم الصغيرة الحريمى قدم ملكة انجلترا فأطاحت به إلى خارج نطاق الحكم حاملا معه البقية الباقيه من سمعة بريطانيا وعظمتها المزعومة .

وندم الإنجليز على « عظمة » دولتهم التى انتهت رسمياً و إلى الأبد ، ولكن « لات ساعة مندم » كما يقول الشعراء ، ولا زالت بريطانيا حتى الآن تحاول أن تطفو على مسرح الحوادث الدولية كدولة لها وزنها ، ولكن يبدو أن كل ما تبذله من جهود فى سبيل بلوغ غايتها يدفعها إلى أسفل بدلا من أن يرتفع بها إلى أعلى . فهى إن كانت قد خرجت من معركة بورسعيد كدولة من الدرجة الثانية فهى اليوم وبعد هزيمتها بأكثر من عام ونصف عام قد أصبحت بعد كفاح مرير فى المعترك الدولى دولة من دول الدرجة الثالثة ، وهو أمر مؤسف حقاً فى نظر البعض ولكنه الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها وسبحان من له عاقبة الأمور .

أما فرنسا فأمرها أوضح من أن يتناوله قلم ، فما من شك فى أن فرنسا كانت فى يوم غير بعيد وقبيل الحرب العالمية الثانية تعتبر عروس العالم ، وكانت باريس عاصمة النور ، وكانت اللغة الفرنسية تحتل مكانتها الدولية بجدارة وتجرى على كل لسان فى المجتمعات الدولية ، بل لقد كانت اللغة الدبلوماسية الوحيدة التى يجرى التخاطب بها فى جميع المحافل العالمية ، وظل أمرها كذلك إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية واستسلمت فرنسا دون أية مقاومة ، فانطفأ نورها كدولة كبرى ، ولكنها عرفت فى المحافل الدولية بعد ذلك كدولة من دول الدرجة الثانية ، وكان من الممكن لو حافظت فرنسا على مبادئها الخالدة ، مبادىء ثورتها الكبرى أقول إنه كان من الممكن أن تسترد مكانتها فى سرعة لو ظلت تحتضن مبادىء

ثورتها الخالدة ، ولـكن بدلا من ذلك أسلست قيادها لبعض الحكام من ذوى العقليات الاستعمارية المستترين وراء أقنعة من المبادىء الجذابة كالاشتراكية مثلا فأخذت الضربات تكال لها فى سورية ولبنان وفى الهند الصينية التى انتهت بمعركة « دين بين فو » المشهورة ثم فى الجزائر وانتهت البقية الباقية من سمعتها فى بور سعيد.

وهكذا وبسبب معركة بور سعيد تنزل دولتان كبيرتان وتنحدران فى السلم الدولى إلى هوة سحيقة بحيث أصبحت بعض الدول التى لم يـكن ينظر إليها بعين الجد تحتل مكانة مرموقة فى العالم وأصبحت حديث كل المحافل الدولية ، ومن عجائب القدر أن تـكون إحدى هذه الدول الذى قفزت إلى قمة السلم الدولى هى نفس الدولة المعتدى عليها أى الجمهورية العربية المتحدة التى أصبحت أخبارها والاهتمام بها يحتل الصدارة فى كل مكان فى العالم... وسبحان مغير الأحوال ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

٤ — تمصير البنوك والشركات الاستعمارية :

لم نكن فى مصر بعد الاعتداء من البلاهة بحيث نترك مكامن الخطر على حياتنا ومستقبلنا واقتصادنا رابضة هادئة متحفزة للعودة إلى سابق سيرتها من تدمير حياتنا وتمزيق اقتصادنا ، ولذلك فقـــد سارعنا إلى وضع أيدينا على بيت الداء وبجراحة بسيطة سليمة ناجحة من مبضع جراح ماهر تمت العملية الصغيرة الـكبيرة لقد تم تمصير البنوك الأجنبية التى لم يكن لها رأس مال فى مصر و إنما كانت تعمل بأموال المودعين المصريين ومن عجيب أن هــذه البنوك الأجنبية ذات الأموال المصرية لم تـكن تقدم أى نوع من أنواع المســاعدة لمصرى واحد بل كانت كل

خدماتها للأجانب فضلا عن مساهمتها فى تهريب النقد المصرى إلى الخارج الأمر الذى يودى باقتصاديات البلاد ، وما دامت أموال هذه البنوك الأجنبية أموالا مصرية ، وما دامت تحرم المصريين من خدماتها ، وما دامت تشكل عنصراً مدمراً من عناصر الفتك باقتصادياتنا فلم يكن هناك بد من إجراء تلك العملية الصغيرة الكبيرة المشار إليها ، عملية تمصيرها أو بالأحرى عملية تعريبها .

وما يقال عن البنوك المذكورة وعن نشاطها المدمر ، يقال عن الشركات الأجنبية أو عن بعضها وقد تم تمصيرها هى الأخرى .

٥ — إعادة بناء بور سعيد .

لقد تفنن المعتدون فى ضرب مدينة بور سعيد من البحر والجو بل ومن البر أيضاً ، لقد صبوا على المدينة آخر ما اخترعته العقول الشريرة من أدوات الحريق فى الحرب ، لقد استعملوا أفتك ما فى أسلحة حلف الأطلنطى من أدوات الدمار والحريق فصبوا نيرانهم على الأحياء الشعبية من المدينة فأحرقوها بمن فيها من إنسان وحيوان إلا من تمكن من مفاداة النار وذهب بعيداً عنها ، وكان طبيعياً أن تصبح هذه الأحياء الوطنية الكبيرة أثراً بعد عين .

و إذن فقد خسرنا هذه الأحياء وخسرنا معها بعض الأرواح الزكية لمواطنين أغلبهم من الأطفال أو العجائز الذين لم يتمكنوا من النجاة بأنفسهم وخسرنا بعض الحيوانات البريئة التى يقيمون لها فى بلادهم « المتحضرة » جمعيات للرفق بها والعناية بشأنها .

ولكننا نعود ونقول — وهو شعار لنا فى هذا الكتاب — رب ضارة نافعة، فقد كان من أهداف ثورتنا الكبرى إزالة هذه الأحياء التى أحرقتها نيران حلف الاطلنطى المشاركة فى الاعتداء ، وكانت النية إعادة بنائها من جديد ، وكل الذى حدث أن الاعتداء عجل بإزالة هذه الأحياء وقدم عملية الإصلاح بعض الوقت ، ولكن فى سرعة قياسية أعيد بناؤها فى شكل عمارات سكنيه زاهية الألوان باهرة الأشكال تتخللها الحدائق الخضراء وتمر خلالها الشوارع الواسعة العريضة المشجرة فعاد المواطنون الأبطال إليها ينزلون منازل صحية مريحة وهكذا نالوا أحسن العوض وأجمل الجزاء نتيجة لبطولتهم وتضحياتهم . وسيأتى تفصيل هذه العملية السحرية فى مكانها عند الحديث على تعمير المدينة .

٦ — ظهور أهمية قناة السويس فى المحافل الدولية :

حرصت كل من انجلترا وفرنسا على أن تظل قناة السويس كماً مهملا فى المحافل الدولية أو على الأقل حرصتا على أن تجعلاها مبعدة فى زاوية من زوايا النسيان طالما أن الأولى تسيطر عليها عسكريا بما نثرته على ضفتيها من معسكرات الاحتلال التى تمتد من السويس جنوبا حتى بور سعيد شمالا وطالما أن الثانية تسيطر سيطرة فعلية على إدارة القناة والانتفاع بمواردها وجعل مقرها فى باريس وانشاء مصانع خاصة لتوريد احتياجاتها من فرنسا دون غيرها .

ولقد ظلت هذه الخطة خطة « تنكير » القناة فترة طويلة ، وكلما حاولت مصر رفع صوتها تمكنت الدولتان بوسائلهما الخاصة فى الماضى من إخماد هذا الصوت أو إسكاته ، وكانت الدول الأوربية شريكة فى هذه المؤامرة عن رضى ومشاركة

ولعل ما كتبته الصحف الأوربية الغربية من إيطالية وهولندية وبلجيكية وغيرها وإظهارها العداء السافر والحض على الاعتداء نتيجة تأميم شركة القناة لأكبر شاهد على تآمر هذه الدول على حقنا فى قناتنا .

ولم تكن مشاركة أمريكا فى « تجميد » مشكلة القناة فى الماضى مجرد مجاملة لحليفتيها بريطانيا وفرنسا وإنما كانت عن لؤم ودهاء وسوء نية ، فإن أمريكا بدورها تعتبر مغتصبة للقناة الثانية فى العالم وهى قناة بنما ، وإذا كانت قناة السويس تربط الشرق بالغرب وتقرب بين آسيا وأفريقية وأوربا فإن قناة بنما تربط بين المحيط الأطلسى والمحيط الهادى وبالتالى تربط بين المياه الأمريكية فى الشرق والغرب ، ولكنها أى قناة بنما تجرى فى أرض دولة مستقلة ذات سيادة ، وإن أمريكا تفرض سلطانها على هذه القناة بالقوة « والبلطجة » تماما كما كانت تفرض إنجلترا سلطانها على قناتنا قبل التأميم ، وإن مجرد تأميم شركة قناة السويس ونجاحنا فى هذا التأميم يعتبر خطراً كبيراً على الولايات المتحدة الأمريكية لأن ذلك سينبه الشعب البنامى إلى حقه فى قناته ومن ثم سينطلق كالسهم المارق مطالبا بقناته وإبعاد الولايات المتحدة الأمريكية عنها وفى ذلك ما فيه من الخسارة على أمريكا .

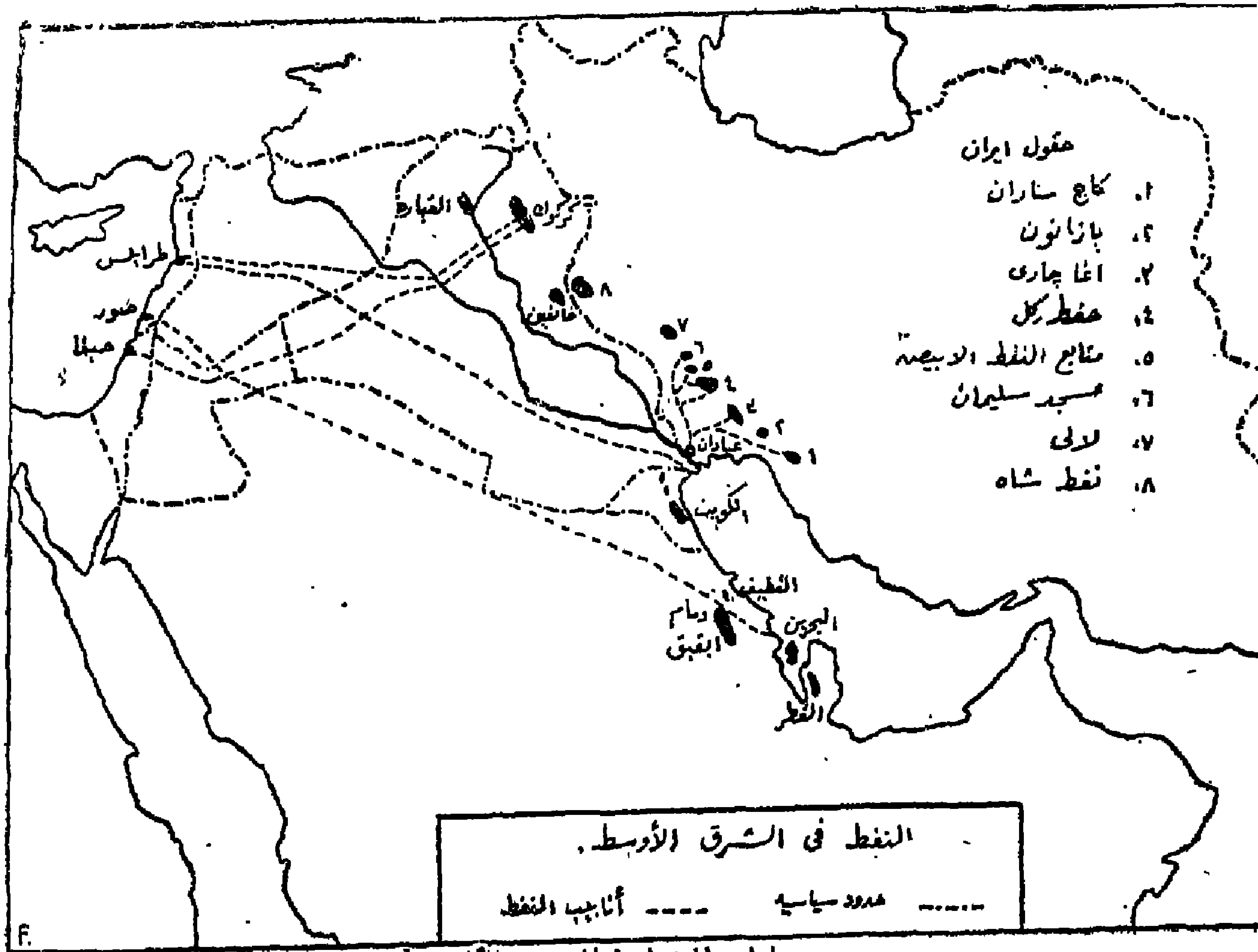
وإذن فموقف دالاس من مسألة التأميم ، ذلك الموقف العدائى السافر ، لم يكن مجاملة لانجلترا أو فرنسا ، فطالما دبر المخلوق المذكور المقالب لكل من فرنسا وإنجلترا ، وطالما حاول أن يطرد نفوذهما من كل بقعة من بقاع العالم لكى يغرس النفوذ الأمريكى مكانه ، وإنما موقفه العدائى كان سببه عدم ضمانه الميراث التقليدى من ناحية وخوفه من المصير الذى ينتظر قناة بنما الرازحة تحت الاحتلال الأمريكى فى حالة نجاح العرب فى استرداد قناتهم المغتصبة من ناحية أخرى .

المهم فى ذلك كله أن قناة السويس قد أصبحت شيئا خطيرا ظاهرا و باطنا بعد أن كانت خطيرة ولكن فى زوايا الكتمان ، وتبعا لذلك شعر الغرب بخيبة أمل إزاء استردادنا لها، ولكننا لم نستردها لنحارب أحدا بها أو لنجوع شعبا بذلك، ولكن استرددناها لأنها قناتنا ، أرضنا ، نحن حفرناها ، ونحن أجرينا ماءها على اشلاء آبائنا وعظام أجدادنا الذين هلكوا فى حفرها بالآلاف المؤلفة تلهبهم ناران ، نار الصحراء القاسية ونار السياط التى كانت تلفح ظهورهم العارية من مأجورى الأفاق العاتى دلسبس .

وتبعا لظهور أهمية القناة فى المحيط الدولى بدأنا نعمل على توسيعها وتعميقها لكى تسمح بمرور ناقلات البترول ذات الحمولات الكبيرة ، وتبعا لظهور أهمية القناة بدأنا نفكر فى إنشاء أنابيب موازية لها تحمل البترول من السويس إلى بورسعيد حيث تنقله الناقلات الضخمة إلى الغرب مما يساهم فى تخفيض نفقات نقل البترول و بالتالى فى تخفيض أسعاره ، وهذه كلها مشروعات لم تكن تخطر لمغتصبى القناة على بال ، ذلك لأن مهمتهم كانت الاستغلال والربح الحرام ولا شىء غير ذلك ، وشتان الفرق بين تفكيرنا وتفكيرهم وسلوكنا وسلوكهم ، إن تفكيرنا ومشروعاتنا نحو توسيع القناة وتعميقها و إنشاء أنابيب البترول على ضفتيها سيعود بالرخاء على شعوبهم قبل أية شعوب أخرى .

٨ — ظهور أهمية بترول الشرق الأوسط :

كانت الدول الاستعمارية تلقى غلالة من الإهمال المفتعل للحيلولة دون ظهور خطورة بترول الشرق الأوسط ، تماما كما كانت تحول بين مشكلة القناة و بين



مناطق النفط فى الشرق الأوسط

الظهور ، ولكن بترول الشرق الأوسط بغزارته وكمياته ونفاسته يفرض نفسه فرضا على وجه المشكلات الدولية ، إن البطل الإيرانى محمد مصدق قد أظهر مشكلته على حقيقتها حينما أمم بترول بلاده ، ولكن أيدى الاستعمار تتدخل فلا تكتفى بإبعاد البطل و إنما تتهمه بالخيانة وتدخله إلى السجن و ينتصر الاستعمار وتعود المشكلة الخطيرة تغط فى نوم عميق ، ولكن إلى حين ، فإن بترول المسلمين فى إيران والكويت والجزيرة العربية والعراق لاينبغى أن يذهب إلى الغرب الصليبى الصهيونى لكى يحار بنا به ، الأساطيل التى دكت ديار العرب والمسلمين فى بورسعيد كان وقودها بترولا إسلاميا استخرج من أرض المسلمين فى الجزيرة و إيران و إن الطائرات التى صبت نيرانها على أطفال المسلمين ونساء المسلمين بترولها كان بترولا عربيا إسلاميا عراقيا .

وهكذا حين تعود قناة السويس إلى أيدى أصحابها يثور الغرب الصليبى ويسارع ليضرب ضربته ، إن قناة السويس ليست الشريان إلى المستعمرات كما كان يقال فى الماضى ، فإن وسائل الانتقال قد تغيرت واستراتيجية الحروب قد تبدلت ، بل والمستعمرات قد استقلت ، و إذن فخطورة القناة قد تطورت هى الأخرى فأصبحت الصمام الذى يتحكم فى البترول ، بترولنا نحن ، وقناتنا نحن .

القناة العربية قد عادت إلى أهلها و إذن فقد خشى الغرب أن تتحكم القناة فى هذا الذهب الأسود المغتصب وخشى أكثر من ذلك ، خشى أن يؤمم أصحاب البترول وهم الشعب العربى بترولهم وهنا تكون الكارثة الكبرى بالنسبة للغرب .

ولكنهم مساكين فى تفكيرهم فأى كارثة فى أن يستعيد قوم حقهم ، وأى خطر فى أن نسترد بترولنا ؟ إنه بترول العرب ، بترول المسلمين ؛ ينبع من أرضهم

بكميات وفيرة من ذكرها ، فأى خطر فى ذلك ، إن الشعب العربى بعد أن أمم قناته سيؤمم بتروله عن طريق عزمه وحقه ونعتقد أن الغرب سيواجه المشكلة حينئذ بشجاعة ويكون قد راض نفسه على أن العرب حينما يستردون حقا من حقوقهم فإن ذلك لايسترعى حماقة كتلك التى ارتكبت فى بور سعيد وكانت نتيجتها وبالا عليه وأوشكت أن تكون شرا مستطيرا .

٨ — ظهور القومية العربية :

وكان من حسنات الاعتداء على أرض العرب فى بور سعيد ظهور القومية العربية فى أكمل صورة وأتمها ، لقد نادى جمال عبد الناصر بالقومية العربية قبل الاعتداء بعدة سنوات ولقد لاقت دعوته صدى سريعا فى نفوس العرب من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ولكن كانت هناك بعض الفئات التى لم تكن عقيدتها العربية قد تبلورت بعد ، تبلورا كاملا ، فلما وقع الاعتداء انخرطت هذه الفئات القليلة فى بوتقة القومية فصهرتها وأصبح كل عربى فى كل بقعة من بقاع الأرض يشعر أن أرضه تضرب وأن دماء أهله تسيل وأن أرواح إخوته تزهق وهو لذلك قد تشهى أن يصنع أى شىء فأقبل على التطوع فى سبيل الدفاع عن الجزء الغالى من وطنه العربى المعتدى عليه وهو فضلا عن ذلك نسف أنابيب البترول فى سورية وثار فى العراق والأردن وفلسطين والحجاز ونجد والكويت واليمن ونظمت كتائب الدفاع تنظيما جديا دقيقا واتسع نطاق القومية العربية حتى كون اللبنة الأولى فى بناء العزة العربية الموحدة

ولم يقف تيار القومية العربية الثائرة الجارفة على المشرق بل انتقل إلى المغرب العربى فدخلت ثورة الجزائر العربية فى دور حاسم لكى يستعيد الجزائريون أرضهم ويحصلوا على استقلالهم وتركزت موجات قوية من الشعور بالعزة العربية فى كل من تونس ومراكش وسارت هذه الموجات قدما إلى الأمام فطالبت كل من تونس ومراكش بمزيد من معالم الاستقلال وجلاء الجيوش الفرنسية عن أراضيهما .

كل ذلك قد ظهر بفضل العقيدة السحرية التى أشاعها جمال عبد الناصر وإثارته العزة فى نفوس العرب حتى جعلهم يؤمنون بأنفسهم ويعرفون قيمتهم فجعلوا يزحفون إلى التجمع والتآخى وتوحيد صفوفهم حتى أتم توحيد الاتجاهات الشعبية فى عصر أصبحت القيمة العليا فيه للشعوب . ومن هنا فقد أصبحت الحكومات العربية جميعا فى طريقها إلى السير فى الاتجاه الجديد راضية أو كارهة. والحكومة التى ترى نفسها غير قادرة على الانسجام مع موكب العروبة عليها أن تعتزل وتفسح الطريق لغيرها وإلا فستلقى مالقيته حكومة كميل شمعون وسامى الصلح فى لبنان . فلقد اثبتت الاحصائيات اللبنانية المستقاة من مراكز الحدود اللبنانية السورية أن اللبنانيين الذين توجهوا لرؤية الرئيس جمال عبد الناصر وتحيته إبان زيارته لدمشق بمناسبة الوحدة المصرية السورية بلغ عددهم ستمائة وخمسين ألف مواطن ، فإذا عرفنا أن تعداد الجمهورية اللبنانية لا يزيد كثيرا عن المليون نسمة بما فى ذلك النساء والأطفال أدركنا على الفور أن الشعب اللبنانى كله ذهب إلى دمشق لتحية الرئيس عبد الناصر وأن رحلة هذه الأمواج الضخمة تعنى التأييد الصريح لسياسته والسير فى الطريق التى رسمها الأمر الذى اضطر حكومة لبنان المشايعة للغرب المعادى للقومية العربيه أن تتحرش بالشعب اللبنانى العربى وكان

ما كان من الثورة الشعبية الضخمة المظفرة التى أطاحت بكل سمعة للغرب وبالرمق الأخير بحسن الظن به عند بعض البسطاء القليلين من أبناء الشعب العربى .

وهكذا رسمت القومية العربية طريقها وعمقت مجراها واندفعت جارفة كاسحة كالسيل المنهمر .

٩ — كشف المؤامرات والقضاء عليها :

انتهت معركة القناة بالعرب إلى سيادة قوميتهم العربية وزرع الإيمان بها فى قلوبهم وغرسها فى كل جارحة من جوارحهم وفى ذلك ما فيه من الأخطار القاتلة للاستعمار والصهيونية وأعوان الاستعمار والمرتزقة على فتات موائده من بعض من يحملون أسماء عربية .

وهنا نشط الاستعمار فى خلق المؤامرات المتوالية للقضاء على هذه القومية والدعاية ضدها وتوجيه الاتهامات المختلفة إليها وتأليب أعوانه عليها ، ولما كانت كل من مصر وسورية هما مصدر الإشعاع الفعلى لهذه القومية الكاسحة فكان لابد للاستعمار من نسج المؤامرات ضدها ، ولابد له من أن يستعين ببعض أبناء الأقطار العربية حتى تترابط خيوط المؤامرة تمهيداً لتنفيذها .

ولكن فات الاستعمار والمتآمرين أن كل عربى أصبح بعد إيمانه بقوميته وزحفها حصناً لا يسهل فتح ثغرة واحدة فيه ، ومن هنا بدأت المؤامرات الكثيرة تفشل وتتهاوى فى شكل فاضح وأسفرت كل مؤامرة عن فضيحة كبرى تكشف عن مجموعة أخرى من اللصوص المرتزقة ومجموعة أخرى من الأغنياء الأغبياء البلهاء الذين يرمون الأموال فى الفضاء .

ومن عجب أن أكثر هذه المؤامرات كانت تدبر فى بيروت عاصمة لبنان مما أساء كثيراً لوضع لبنان السياسى ، إذ أن وضع لبنان بين الدول العربية يعتبر إلى حد كبير كوضع سويسرا بين الدول الأوروبية ، ولكن بعض المأجورين من أعوان الاستعمار فى لبنان قد أعماهم الحقد والكسب الحرام من أثمان المؤامرات ونسوا قدسية وضع وطنهم فجعلوا منه وكراً للمؤامرات الاستعمارية والصهيونية .

دبرت فى لبنان مؤامرة قلب نظام الحكم فى سورية قبل اتحادها ومصر فى الجمهورية العربية المتحدة ولكن المؤامراة فشلت نتيجة للوعى العربى .

وفى لبنان دبرت مؤامرة المراغى لقلب نظام الحكم فى مصر من حكم استقلالى إلى عودة أنصار الاستعمار . ولكن القومية الزاحفة كشفت المؤامرة . ودبرت مؤامرة لعزل قطاع غزة عن مصر ، ولكن القومية الزاحفة كشفت المؤامرة وأسقطتها .

ثم دبرت المؤامرة الكبرى القذرة التى كانت تهدف إلى قلب نظام الحكم فى سورية والحيلوله دون انضمامها فى اتحاد مع مصر وقتل الرئيس جمال مما نشرته الجرائد وساهم فى المؤامرة عربى كبير بمبلغ مليونى جنيه استرلينى دفعت فعلا لمن تخياوه قائداً للمؤامرة ، ولكن القومية العربية كشفت المؤامرة وفضحتها وأفشلتها .

وإذن فظهور القومية العربيــة بهذا الشكل العظيم كان نتيجة لمعركة قناة السويس ، وإن قوة هذه القومية ورسوخها فى النفوس قد حال دون نجاح جميع المؤامرات التى دبرت للقضاء على هذه القومية بعد الاستيلاء على الأموال التى رصدت لها وتوجيهها إلى التعمير .

لقد تناول الرئيس جمال عبد الناصر هذه المؤامرات فى بعض خطبه ، وأشار

مازحاً إلى فشلها بأن القومية الزاحفة الظافرة قد أممت المؤامرات لصالح الشعب العربى أسوة بتأميم شركة قناة السويس .

وإذن فعلى أصحاب المؤامرات أن ينفضوا أيديهم منها فلا سبيل إلى نجاح واحدة منها بعد أن وصلت القومية العربية و بلغت من النفوس مبلغها من العمق والقوة والتمكن الذى وصلت إليه .

١٠ — القضاء على أعوان الاستعمار فى لبنان وعودته إلى الحظيرة العربية

منذ أن قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ والاستعمار فى ذعر شديد فقد آمن بنظرية بالمرستون التى تنادى بإضعاف مصر وعزلها عن البلدان العربية لأن وجود دولة قوية فى مصر سيؤدى إلى تقوية العرب وتعريض الاستعمار للخطر ، ومن هنا لعبت بريطانيا دورها ببراعة فى لبنان لكى تأتى برئيس لجمهوريته من رجالها الذين يتمتعون بثقتها والذين ساهموا فى التجسس لحسابها وانضووا تحت لواء مخابراتها . فكان أن ساعدوا فى تنصيب عميلهم المدعو كميل شمعون .

بدأ شمعون منذ توليه رياسة جمهورية لبنان يكيد للحركة العربية بشكل مستور وجعل من لبنان مركزاً للمؤامرات على كل مصر وسورية باعتبارهما رائدتين للتحرر العربى ، ولكن هذا الكيد أخذ ينكشف شيئاً فشيئاً حتى حدث الاعتداء الثلاثى على مصر فدعا شمعون إلى مؤتمر لملوك ورؤساء العرب فى بيروت بحجة بحث الموقف ولكنه فاجأ الأعضاء باقتراحات تدعو إلى التخلى عن سياسة عبد الناصر التحررية وساعده فى ذلك ملك العراق فيصل بن غازى ونورى السعيد عميل بريطانيا الأول فى الشرق العربى .

لم يكن عبد الناصر موجوداً بشخصه فى هذا المؤتمر . ولـكنه كان موجوداً بشخص أخيه وشريك كفاحه المواطن العربى الأول السيد شكرى القوتلى الذى ذهل حينما أحس بلعبة شمعون الخسيسة فانسحب من المؤتمر ومعه وفد سورية ففشل المؤتمر الذى أقيم لوأد التحرر العربى .

لم يقف الأمر بشمعون عند هذا الحد بل أخذ يعلن فى كل مكان عن تبعيته للاستعمار الغربى وأخذ يضع العقبات فى طريق الوزارات الوطنية مثل وزارة البطل رشيد كرامى والدكتور عبد الله اليافى الأمر الذى دعاهما إلى الاستقالة لاستحالة التعاون معه .

ولما كان شمعون هذا يمثل الاتجاه الانجليزى فلابد له من أن يأتى بشخص يمثل الاتجاه الأمريكى لـكى يشد من أزره و بالفعل أتى برجل يشتغل بالتدريس فى الجامعة الأمريكية ببيروت ويدين بالولاء لأمريكا اسمه شارل مالك وولاه وزارة الخارجية ضارباً بأصول الدستور اللبنانى غير المـكتوب عرض الحائط . إن المتواضع عليه أن يكون وزير الخارجية مارونى المذهب ، وشارل مالك أرثوكسى بروتستانتى ، ولـكن شمعون لم يجد من بين الزعماء الموارنة زعيما واحداً يدين لأمريكا بالولاء فكان أن أتى بهذا الوزير غير المارونى .

ولـكن كيف يجمع شارل مالك بين مذهبين وهذا أمر غير جائز ؟ الجواب أن شارل مالك أرثوكسى المولد والأسرة ولـكنه اعتنق المذهب البروتستانتى حباً فى الأمريكان وولاء لهم .

وهكذا أصبح رئيس الجمهورية عميلا انجليزياً ووزير الخارجية عميلا أمريكياً أما رئيس الوزراء الذى لابد أن يكون مسلماً فقد وجد شمعون ضالته فى رجل عجوز

ناهز الخامسة والسبعين لكنه متصابٍ لا يلبس إلا الألوان الفاقعة ولا يجالس إلا سيئى السمعة من الرجال والنساء ، واسم هذا الرجل سامى الصلح الذى قبل أن يتعاون مع الخونة ويمالىء دول الاستعمار من أجل شهواته لا من أجل عقيدته رغم أنه قاب قوسين أو أدنى من القبر .

فسدت الحياة السياسية والاجتماعية فى لبنان من جراء هذا الحكم الفاسد الممالىء للاستعمار وزاد الطين بلة أن المستر ايزنهاور رئيس جمهورية الولايات المتحدة أراد أن يرث النفوذ الانجليزى فى العالم العربى بعد هزيمة الانجليز فى معركة السويس فطلع على العالم العربى بما أسماه « مشروع ايزنهاور » لملء الفراغ الذى زعم أنه موجود فى المنطقة ، وهنا هلل العميل الأمريكى الذى يمثل وظيفة وزير خارجية لبنان للمشروع ، وأعلن موافقته عليه قبل أن يوافق الكونجرس الأمريكى عليه مما أثار غضب الشعب اللبنانى الذى غضب لموقف رئيس جمهوريته من المعتدين على بور سعيد فلم يقطع علاقة حكومته بهما كما فعلت الدول العربية الأخرى ، وجاءت حماقة وزير الخارجية فقضت على البقية الباقية من صبر الشعب الذى أخذ يهاجم الحكومة عن طريق الصحافة الحرة ، فعمد رئيس الجمهورية إلى كبت الصحافة والقبض على الصحفيين والزج بهم فى السجون ثم أخيراً لجأ إلى الاغتيال فأرسل بعض أجرائه فاغتالوا الشهيد الصحفى نسيب المتنى بالمدافع الرشاشة ، وهنا فاض الكيل وقامت حرب التحرير فى لبنان وتولى قيادتها صائب سلام فى بيروت ، ورشيد كرامى فى منطقة طرابلس ، وكمال جنبلاط فى منطقة الباروك والشوف ، وصبرى حمادة فى منطقة البقاع وأحمد الأسعد فى منطقة صيدا والجنوب وزحفت القوات التى سيطرت على أربعة أخماس لبنان فاضطر شمعون ووزير خارجيته إلى

الاستعانة بالجيش الأمريكى الذى سارع إلى تلبية دعوتهم واحتل لبنان ضاربا بجميع القوانين عرض الحائط .

ولكن ذلك كله لم يمنع الشعب من أن ينتصر فى النهاية فأسقط شمعون الانجليزى ورئيس وزرائه سامى الصلح العجوز المتصابى ووزير خارجيته الأمريكى شارل مالك وعاد لبنان عربى الوجه والقلب واللسان بفضل معركة السويس وقضى فيه على الاستعمار وأعوانه .

القضاء على أعوان الاستعمار فى العراق

الشعب العراقى شعب عريق فى عروبته وهو أحد دعائم القومية العربية منذ زمن طويل ولكنه قد ابتلى فى الثلث الأول من هذا القرن بالأسرة التى تسمى بالأسرة الهاشمية والتى تعتبر دعامة من دعامات النفوذ الانجليزى فى شرقنا العربى ، وقد انسلك فى تيارها بعض الخونة أمثال نورى السعيد والفئة القليلة من الخونة الذين يجرون فى ركابه .

كانت الأسرة الهاشمية ونورى السعيد يدعون للاستعمار علناً فى العراق وكأن شعب العراق متاع مباح لهم يتحكمون فى مصيره ، فقام الشعب المجيد بعدة ثورات أهمها ثورة رشيد عالى الكيلانى التى لم يكتب لها النجاح فكان رد الفعل الذى نشأ عن ذلك قاسياً على الشعب العراقى الذى كلفه كثيرا من التضحيات .

ظلت الأمور تتأزم فى القطر العربى والخونة من حكامه يفتلون له كل يوم قيداً جديداً حتى أصبح وكأنه سجن كبير والويل لمن ينادى بالقومية العربية فيه .

فرض حكام العراق من عملاء الاستعمار عليه حلف بغداد الذى قضى على البقية

الباقية من استقلاله وحاول التمكين لإسرائيل ، ثم جاءت معركة السويس فكان الخونة من حكام العراق يسمحون للطائرات الانجليزية أن تأخذ تموينها من البنزين من قاعدة الحبانية لضرب بور سعيد والقاهرة . وقد حاول بعض الضباط العراقيين الأمجاد الاحتجاج على ذلك فأطلق عليهم الرصاص فى الحال ، وظلت إذاعة هؤلاء الحكام الخونة تذيع أخباراً مضللة عن المعركة لتثبيط همم الشعب وعزائمه فضلا عن أغانى الشماتة مما جعل الشعب يثور عن بكرة أبيه فقامت حكومة الخونة تحصده بالرصاص كأنه قد اقترف ذنباً أو ارتكب خيانة .

غير أن الشعب العراقى قد أنهى بواسطة جيشه حكم هؤلاء الخونة بثورته المجيدة يوم ١٤ يوليه سنة ١٩٥٨ .

ولقد كشفت محاكمات محكمة الشعب ببغداد الكثير من مساخر حكم خدام المستعمرين . ومن يراجع مضابط الجلسات أو يستمع إليها يهوله ما يقرأ وما يسمع .

ونقتطف على سبيل المثال جزءاً من شهادة المحامى الأستاذ نجيب الصايغ فى محاكمة مختار بابان أحد أعمدة الاستعمار فى العراق . يقول الشاهد :

« عندما ألف نورى السعيد وزارته سنة ١٩٥٤ كان معروفاً أنه سيعقد حلف بغداد ولهذا حل مجلس الأمة بعد شهرين من انتخابه ، ثم زور الانتخابات ، وقاطعها المعارضون ، وجاء مجلس نجح غالبية أعضائه بالتزكية . وأصدر نورى السعيد قوانين تقييد الحريات ، ومنعت صحافة الدول العربية المتحررة من دخول العراق ، ووضعت آلات تشويش على إذاعات الدول العربية لكى لا يسمعها العراقيون . وقد استاءت كل الدول العربية من حلف بغداد لأنه ربط العراق بالاستعمار وبذلك

انعزل العراق عن العرب ، وقد جرى ذلك فى الوقت الذى كانت فيه مصر وسورية تسيران نحو التحرر والسيادة ، وكانت القومية العربية فارضة نفسها على العالم كله . وكان نورى السعيد يعتبر تحرر أى بلد عربى انخذالا له شخصياً ، وعندما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس وقع النبأ كالصاعقة على الحاكمين فى العراق وكان أثره عليهم أكبر من أثره على الانجليز ، ولما هاجم الانجليز وإسرائيل مصر بعد ذلك ، فرح نورى السعيد وكان يأمل القضاء على جمال عبد الناصر فى أيام معدودة ، ولما وقف القتال فى مصر صعق الحاكمون فى العراق لأن مصر خرجت ظافرة بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر وفى ذلك الوقت كان نورى السعيد يتآمر على مصر فى طهران هو ودول حلف بغداد .

وكانت الإذاعة العراقية تهزأ وتسخر فى الوقت الذى كانت فيه بور سعيد تتلقى الضربات من الإنجليز ، وقد أشيع فى ذلك الوقت أن الطائرات الإنجليزية كانت تتزود بالمؤن من الحبانية فى العراق ، بل إن إذاعة العراق أذاعت استبسلام بور سعيد مراراً وفى ابتهاج مع أن بريطانيا أذاعت النبأ وكذبته بعد ذلك .

والسياسيون المعارضون كانوا يقدمون احتجاجات ومذكرات للجهات العليا وعلى أثر العدوان على بور سعيد تقدم المعارضون بمذكرة فضحوا فيها موقف نورى السعيد وطلبوا من الملك إقالته ، إلا أن الملك حول المذكرة لنورى السعيد فقبض على الذين وقعوا المذكرة وأحيلوا إلى المجلس العرفى للمحاكمة » .

هذه فقرات من شهادة الأستاذ الصائغ أمام محكمة الشعب العراقى [redacted] .

وهكذا كان العراق يحكم حكماً شاذاً ، وعملاء الاستعمار هم أصحاب الكلمة فيه الأمر الذى كان السبب المباشر فى قيام الثورة العراقية الكبرى بقيادة الزعيم

عبد الكريم قاسم فقتلوا الملك المخنث فيصل بن غازى وقتلوا خاله الخائن عبد الإله، أو بالأحرى عدو الإله الذى كان عدواً لدوداً للشعب ولم يكن يشبع دماء ولا تقتيلا فسحب الشعب جثته فى الشوارع وصلبها فى ميدان عام . وقضى على كل أفراد الأسرة الخائنة . كما قتل كبير عملاء الاستعمار فى التاريخ المدعو نورى السعيد وأخذ الشعب يحاكم بقية الخونة الذين وقفوا فى قفص الاتهام كأنهم الأقزام ، وأصدر حكمه على أكثرهم بالإعدام .

وهكذا استرد الشعب العراقى حريته وعروبته وكان كسب العروبة لا يقدر ، وكانت خسارة الاستعمار أيضاً لا تقدر .

كل هذه المكاسب التى كسبها الشعب العربى كان سببها معركة بور سعيد ، وكل هذه الخسائر التى خسرها الاستعمار كان سببها أيضاً معركة بور سعيد والبقية آتية فى الطريق .

الفصل الثاني

الجانب الحربي للمعركة

الجانب الحربى

مقدمات الاعتداء

انتهت شكوى انجلترا وفرنسا فى مجلس الأمن حين اتفق طرفا النزاع على نقاط ست ارتضوها كأساس لحل قضية السويس ، ولكن المسألة فى الواقع لم تكن — كما ذكرنا فى صفحات سابقة — قضية القناة وإنما كانت مجموعة من الأسباب ذات الجذور العميقة دفعت كلاً من انجلترا وفرنسا لشن الحرب على مصر .

وفى سرية تامة أخذت الاجتماعات المريبة تتم بين الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين طوال شهر اكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وأخذت شحنات الطائرات المستير الفرنسية تتجه بكثرة إلى المطارات الإسرائيلية ، وأخذت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والمشاة وفرق الهابطين وقطع الإنزال البحرية كلها تتجمع فى قبرص التى نسعى اليوم جاهدين لتحريرها وإعطائها إلى أهلها حتى لا تكون ركيزة غدر مرة أخرى على وطننا العربى .

جسر العدوان :

اتفقت كل من انجلترا وفرنسا مع إسرائيل ركيزة الاستعمار الأولى فى قلب الوطن العربى على أن تبدأ الأخيرة هجوما على مصر رغم أن هناك ما يسمى بالبيان الثلاثى الذى أصدرته كل من أمريكا وانجلترا وفرنسا سنة ١٩٥٠ والذى يقضى بأن تساند الدول الثلاث أية دولة يعتدى عليها من الدول التى تربطها حدود مشتركة مع إسرائيل ، غير أن الذى حدث هذه المرة أن دولتين من دول البيان الثلاثى

هما اللتان أوعزتا إلى اسرائيل بالاعتداء ، ودفعتاها إلى مهاجمة مصر عن طريق صحراء سينا .

ففى صباح الاثنين ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ تحركت قوات ضخمة مدرعة من الجيش الإسرائيلى زاحفة نحو الأراضى المصرية عبر منطقة سينا يقودها ضباط انجليز وفرنسيون ، فتصدت لها قوات حراسة الحدود المصرية والتحمت معها فى قتال مرير وفى تلك الأثناء كانت القاهرة قد علمت بأن الجيوش الإسرائيلية ليست للمناوشة وإنما هى جيوش ضخمة تقوم بعملية انتحارية .

شارع الجيش المصرى بالزحف إلى أرض القتال فى سينا وبدأ يؤدب الجيش الإسرائيلى المتهور ، وحينئذ أرسل قواد الجيش السورى والجيش الأردنى يطلبون توجيهات القائد العام ، فقد كانت القيادة العامة للجيوش المصرية والسورية والأردنية واحدة ، ولكن القائد العام طلب إليهم التريث مع الاستعداد والتحفز حتى تظهر تيارات المعركة واتجاهاتها .

أخس إنذار فى التاريخ :

بدأ الجيش المصرى بمدرعاته ومشاته وطيرانه يسيطر على أرض المعركة فى سيناء وبدأ ينزل بالجيش الإسرائيلى خسائر فادحة وصرع كثيراً من الجنود والضباط اليهود وكاد أن يقضى على فرقهم المدرعة ، فلما وجد اليهود أن الدائرة بدأت تدور عليهم استغاثوا بلندن وباريس لكى تكمل حلقة الغدر وتنفذ الخطة الخسيسة ، فإذ بالموقف يتمخض عن إنذار بريطانى فرنسى إلى كل من مصر وإسرائيل هذا نصه « يجب على الطرفين أن ينسحبا ١٠ أميال من القناة فى ظرف ١٢ ساعة ،

وعندئذ ستحتل القوات البريطانية والفرنسية بور سعيد والإسماعيلية والسويس. إذا لم يتم هذا الانسحاب فستبدأ بريطانيا وفرنسا فى العمل » .

إن الأمريكيين حلفاء الإنجليز وصفوا هذا الإنذار بأنه أفظع إنذار فى التاريخ الحديث ، أما المنصفون فإنهم يصفونه بأنه أخس إنذار فى التاريخ القديم والحديث معاً ، ومعنى ذلك بمنتهى البساطة أن تترك مصر سينا وقطاع غزة بسكانه العرب لإسرائيل ما عدا عشرة أميال عرضا بطول القناة من الشرق وعشرة أميال بطول القناة من الجهة الغربية أى من مديرية الشرقية وصحراء السويس وأن تسلم القناة بمدنها إلى الإنجليز والفرنسيين ! ! .

ليس من شك فى أنه إنذار مجنون صدر عن مجانين ، وهم يعلمون سلفاً أن هذا الإنذار سترفضه مصر و بذلك يعلنون عليها الحرب .

وقد كان ، رفضت مصر الإنذار فى إصرار ولكنها فى نفس الوقت بحثت موقف الجيش فى سيناء و بعد مشاورات جادة حاسمة تقرر سحب الجيش ، ونجحت عملية الانسحاب بأقل الخسائر فقد كانت هناك قوات انتحارية تحمى العملية الكبيرة وأتى أفرادها من ضروب البسالة والفداء ما لا يخطر على البال وما يليق بهم كأحفاد لخالد وصلاح الدين ثم أصبحت البلاد جميعها تغلى كالمرجل انتظاراً للقاء مرحلة أخرى من مراحل الحروب الصليبية الحديثة .

الهجوم الجوى :

كان لا بد للأسطول الإنجليزى الفرنسى لكى ينزل جنوده فى بور سعيد أن يطمئن إلى أنه شل جميع وسائل الدفاع عن المدينة الباسلة ، ولهذا فقد بدأت العملية

بإرسال أفواج ضخمة من الطائرات لضرب المواقع العسكرية فى المدينة كالمدفعية الساحلية ومحطات الرادار ، وأخذت الغارات المتلاحقة تشنها طائرات المهاجمين ليل نهار و بشكل مستمر فى النور والظلام فى هجوم أحمق مستميت ، فضلا عن أنها أقامت سياجا حول المدينة لمنع وصول الإمدادات والتموين إليها من الشريط الضيق المحاذى للقناة أو عن طريق المراكب عبر بحيرة المنزلة .

كانت معركة باسلة تلك التى خاضها المدافعون من رجال البطاريات المضادة للطائرات فقد أصلوا الطائرات المهاجمة ناراً حامية ، وكانت البطاريات لا تطلق النيران على الطائرات المغيرة إلا عن قرب حتى تكون فرصة إصابتها كبيرة وظل الحال كذلك وأطقم البطاريات المضادة مستميتون على مدافعهم وكان « الطقم » يتغير على البطارية الواحدة أربع مرات فى اليوم حتى خشى على المدافع أن تنصهر من كثرة ما أطلقت من قذائف فى فترات متواصلة ليل نهار .

أما المواطنون فكان موقفهم موقف المتربص فى شجاعة تدعو إلى الإعجاب وأعصاب من فولاذ بعد أن مهدوا السبيل للعجائز وكثير من النساء أن يهاجروا من البلدة حتى يخلو الميدان للقتال .

استمرت هذه الغارات الجوية خمسة أيام ليل نهار تمكن فيها المغيرون بحكم معرفتهم بجغرافية المدينة أن يركزوا الضرب فى شكل توزيع اختصاص ، البعض يضرب البطارية الموجودة بمبنى البحرية ؛ والبعض الآخر يضرب بطارية مبنى هيئة القناة ، والسرب الثالث يضرب الطوابى على رصيفى ديلسبس وحجر سعيد ثم بطارية الرسوة و بطارية بور فؤاد و بطارية الجميل ، كانت السماء مليئة بقوات الدمار التى جاءت لتحارب الآمنين ، لتقتلهم وتسرق أرزاقهم .

وهكذا و بعد كفاح مرير بين مقاومة المدينة وسلاح طيران بريطانيا وفرنسا ومن ورائهما طيران حلف الأطلنطى أمكن لبطاريات المدينة المضادة للطائرات أن تصمـــد خمسة أيام كاملة أسقطت فيها عددا كبيراً من طائرات الدولتين ، وطائرات أخرى تحمل شارة حلف الأطلنطى وكانت الطائرات تتهاوى فى البحر والنار تلتهمها بينما الناس يهللون و يصفقون للأبطال من جنود المـدافع المضادة للطائرات . إنهم عباقرة حقاً ، وليست عبقريتهم بنت اليوم بل إنها ترجع للحرب العالمية الثانية حينما كان الجندى المصرى العربى وحده هو الذى يصيب الطائرات الألمانية والإيطالية بينما كان الجندى الإنجليزى غارقا فى أثواب الفشل والجزع ، لقد بذلت المدفعية المضادة كل ما فى طاقتها وأظهرت من ضروب البسالة الشيء الكثير ، ولكن نتيجة لعزل المدينة ووفرة قوات الطيران الغازية سقط كثير من الأبطال وسكتت المدفعية المضادة و بسكوتها بدأ العدوان يتخذ شكلا آخر . إن المدفعية المضادة لم تسكت فى يوم وليلة ، لقد سكتت بعد خمسة أيام من النضال الباسل المستميت ، لقد كانت طائرات المهاجمين حمقاء عمياء ، كان أكثر ضحاياها من الأطفال والنساء الذين فى المنازل

ولم يكن الضرب فى تلك الأثناء منصبا على بور سعيد وحـدها بل كانت مئات الطائرات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية من طائرات حلف الأطلنطى تضرب جميع المدن المصرية ، تضرب القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط والإسماعيلية والسويس .

وقد نشطت المدفعية المصرية المضادة للطائرات ، و بالبراعة المعروفة عن الجندى المصرى فى اصطياد طائرات الأعداء بدأ الدفاع يأخذ شكلا عنيفاً ، فيه قسوة وفيه

تصميم وفيه عناد ، وبالفعل بدأت الطائرات المهاجمة تتهاوى من ضربات المدافع المضادة للطائرات وكأنها أوراق الخريف ، ففي ضواحي القاهرة سقطت مجموعة وفيرة من قاذفات القنابل الإنجليزية والفرنسية ، وفي الاسكندرية كان الرجال يهللون لبطولة جنودهم . وكانت نساء الأحياء الوطنية يقفن بجوار البطاريات المضادة ويشجعن الجنود ويزغردن كلما شاهدن طائرة من طائرات الأعداء تتهاوى مشتعلة في البحر وما أكثر الطائرات التي سقطت، إن طائراتهم كانت تسقط في كل مكان ، إن شاباً صغيراً دون العشرين تمكن من إسقاط طائرة مغيرة بمدفعه الرشاش وهو كامن فوق مباني محطة السكة الحديد بمدينة القاهرة .

أما أهالي المدن فكانوا يسيرون في الشوارع وطائرات الأعداء تحلق فوقهم تحمل الدمار والموت فلا تهز شعور مفارقهم وكأنها طائرات تحمل الدمى والزهور ، أعصاب حديدية فولاذية أذهلت جميع مراسلي الصحف الأجانب الذين كانوا يبرقون لصحفهم في جميع أنحاء العالم بعظمة هذا الشعب ، وصلابة أعصابه ، وشدة عناده .

بل إن الرئيس جمال عبد الناصر قائد المعركة كان يمر في الشوارع بسيارته والقنابل تتهاوى على المدينة لكي يطمئن على معنويات الشعب العظيم وكان يتردد على « الجبهة الوسطى » في الاسماعيلية لتفقد الاستعدادات .

كانت طائرات الأعداء تهاجم البلاد وهو يخطب خطابه التاريخي في الجامع الأزهر يواجه الشعب بحقيقة المعركة وتفاصيلها وخط سيرها وما اتخذ إزاءها من قرارات ، والتصميم على الدفاع عن كل شبر من أراضي الوطن بقولته المشهورة : سنقاتل . سنقاتل، فتلقفتها الأسماع والقلوب وأصيب الشعب بحمى القتال ، وأصبح المرء لايسمع في الشارع إلا كلمة سنقاتل . يسمعها من الشيخ ومن الشاب ومن الفتاة

ومن الأطفال الصغار ، وتسلح الشعب جميعه ، وأصبح كل مواطن يحمل بندقية أو مدفعاً رشاشاً بكامل ذخيرته استعداداً لحرب الطرقات والأزقة والدروب ، وآمن الشعب بأنه لا بد منتصر رغم الكثرة من حيث العدد والعتاد الذى يملكه أعداؤه .

هبوط جنود المظلات فى بور سعيد :

كان ذلك فى الصباح الباكر من يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، فبعد أن اطمأن المهاجمون إلى أنهم قد أسكتوا المدفعية المضادة للطائرات ، وأنه لا خوف على طائراتهم حاملات جنود المظلات أن تصاد فى سماء بور سعيد بدأت عملية غزو المدينة من الجو و إنزال الجنود الذين أطلقوا عليهم اسم « الشياطين الحمر » ، والذين طالما أرهبوا بهم الدول المستضعفة ، ثم ثبت أن هؤلاء الشياطين كانوا أشد جبناً من الأرانب وأكثر حماقة من النعام فلم يكونوا يحاربون من أجل مبدأ ، و إنما كانوا يحاربون لكى يسرقوا ، والذين سرقوا هم الذين نجوا من رصاص المدافعين بطبيعة الحال .

أنزل الإنجليز فوجاً من « الشياطين الحمر » فى منطقة «الجميل» التى تبعد عن بور سعيد بحوالى عشرة كيلو مترات غرباً ، ولكن المقاومة الشعبية أخذت تصليهم ناراً حامية وهم فى الجو معلقون بين السماء والأرض ، فكان الجندى الإنجليزى يصل إلى الأرض جثة هامدة ومن لا يصاب وهو فى الجو لا يكاد يصل إلى الأرض حتى تتلقفه مئات الرصاصات التى تقضى عليه فى الحال .

وفى نفس الوقت أنزل الفرنسيون قوة من جنود مظلاتهم فى منطقة « الرسوة »

وما أن وصلوا إلى الأرض حتى كانت القوات الشعبية تعمل فيهم الفناء مرددة الشعار الذى يتخذه المسلمون فى حروبهم « الله أكبر » . إن كلمة « الله أكبر » تبعث القوة والفداء فى نفس المؤمن ، وهى فى نفس الوقت تبعث الفزع والخوف والرعب فى نفس العدو ، كانت تستعملها جيوش المسلمين فى غزوات بدر وأحد وحنين وغيرها وكانت تستعملها قوات المعتصم فى بلاد الروم وقوات طارق بن زياد فى فتح الأندلس ، وقوات سيف الدولة بن حمدان ضد البيزنطيين ، وقوات صلاح الدين ضد الصليبيين .

لقد أبلت القوات الشعبية فى معركة الرسوة بلاء حسناً وأنزلت بالفرنسيين خسائر فادحة وظهرت فيها ألوان من البطولات الفذة ، إن « أومباشى » واحدا أمكنه أن يقضى بمفرده على الجانب الأكبر من قتلى هذه المعركة من الفرنسيين ، ولكن الموقع كان استراتيجياً لأن به خزان المياه العذبة الذى يتحكم فى شرب المدينة ، ولذلك فإن الفرنسيين استماتوا وأنزلت لهم قيادتهم قوات جديدة للاحتفاظ بالموقع .

وفى نفس الوقت الذى نزل فيه الفوجان السابقان ، كان فوج ثالث من المظليين الفرنسيين يهبط فى بور فؤاد ، ولقد لقى من المقاومة والتقتيل ما لقيه الفوجان الآخران .

انتقام رهيب :

لقد جن جنون الغزاة حينما رأوا أن المقاومة من القوة بحيث يستحيل عليهم إزاءها إسقاط المدينة ، فلجأوا إلى إنزال جنود جدد ولكنهم قبل ذلك أرادوا أن

ينتقموا لخيرة جنودهم الذين أبيدوا وأن يدخلوا الرعب فى قلوب الأهلين ، وكان أكثر سكان المدينة فى ذلك الوقت من الشيوخ والنساء والأطفال قد تجمعوا على شاطىء بحيرة المنزلة ليستقلوا الزوارق والمراكب الشراعية التى تنقلهم بعيداً عن ميدان المعركة إلى الشواطىء الأخرى للبحيرة لكثرة ما حل بهم من ذعر وعذاب وعطش ، رأت الطائرات المغيرة هذه التجمعات فأفرغت عليها حمولاتها من أطنان القنابل فمزقت الأطفال والنساء والشيوخ إرباً إربا ، وسالت أنهار من الدماء على شاطىء البحيرة ، أما الذين كانوا فى المراكب والزوارق فقد غرق منهم كثيرون ، وكثيراً ما كان الرجل يعثر على جثة زوجته محتضنة طفلها وقد استشهدا غرقاً أو قتلاً ، وكانت هذه المجزرة البشعة سبباً فى فناء بعض الأسر بأكملها بحيث قضى على اسم بعض العائلات نهائياً من سجلات الحياة .

معركة الجبانة :

بعد تلك الفعلة الشنعاء عاد الإنجليز وأنزلوا فوجاً آخر من المظليين ، ولكنهم كانوا أكثر عدداً من الفوج الأول ، أنزلوهم فى مكان أقرب إلى المدينة وعلى وجه التحديد غربى المطار وكانوا جميعاً من سلاح المهندسين ، وبمجرد وصولهم إلى الأرض سارعوا إلى الاحتماء خلف سور المطار الطويل ، اتخذوا منه ساتراً تحصنوا خلفه فأصبحوا بعيدين بعض الشىء عن مرمى رصاص رجال الحرس الوطنى الذين يكمنون فى مكان غير بعيد فى « المزرعة » و « الجبانة » ، وفى سرعة أنزلت الطائرات كميات ضخمة من العتاد إثر هذا الفوج .

لم يكن من الميسور للحرس الوطنى أن يتقدم لكى يلتقى بهذا الفوج الثانى فور

نزوله لأنه كان يسهل على طائرات الغزاة أن تشترك فى المعركة فترجح كفة جنودها ولأن الحرس لم يكن يريد أن يكشف عن مكامنه فى الجبانة ، بل ظل يترقب الفرص لكى يضرب ضربة قاضية .

لم تطل بالحرس الوطنى فترة التريث ، فلقد فوجىء بدفعة ثالثة من المظليين الإنجليز تهبط داخل المطار نفسه ، وكانت هذه الدفعة من سوء الحظ بحيث شاركت الطبيعة فى القضاء على جانب منها ، إذ لم يحكم قواد الإنزال مكان نزول الجنود فحملت الرياح بعضهم إلى مكان قريب من المساكن الشعبية حيث هرعت إليهم النساء واستلمنهم بمجرد وصولهم إلى الأرض وأنزلن فيهم القتل بالعصى والسكاكين والمدى ، ولا زالت تسكن المنطقة حتى اليوم مواطنة باسلة اسمها « أم الفقير » قتلت بمفردها أكثر من جندى ممن تطلق عليهم الامبراطورية اسم « الشياطين الحمر » واستعملت فى القتل يد الهون كانت تدق بها رأس الجندى بمجرد هبوطه ثم تنتقل إلى الثانى والثالث والرابع فيتخبط الجندى فى دمائه ثم لا تلبث أن تعود إليهم فتجهز عليهم واحدا واحدا ، إن « أم الفقير » ليست أسطورة ، إنها لازالت تقيم فى كوخها على الشاطىء الخالد غربى بور سعيد فى هدوء ورضى ، إنها تستحق تقدير الوطن العربى .

نعود إلى القوة التى هبطت داخل المطار ، إنها على مرمى بنادق القوات الشعبية ، و إذن فالفرصة التى انتظروها قد وافتهم ، لم تضيع قوات الشعب وقتا ، بل صبت لهيب نيرانها على القوات الهابطة فى المطار و بدأ «الشياطين الحمر» يخرون مجندلين بدمائهم، وهنا أسرعت القوات المعادية المحتمية بالسور التى نزلت فى الفوج الثانى إلى نجدة زملائهم فوقعوا بدورهم فى المصيدة ، وظلوا يصلونها نارا



حتى المقابر لم تسلم من قنابلهم

حامية من القوات الشعبية المستميتة التى كانت تحارب بجنون وعناد ومع كل طلقة تخرج من ماسورة البندقية كانت طلقات أخرى تخرج من الحناجر مزمجرة « الله أكبر » فكان الرعب ينفذ إلى قلوب المظليين والرصاص ينفذ إلى أجسامهم .

كل ذلك والقتال فى شدة عنفه فالمهاجمون مصرون على التقدم والمدافعون مستميتون فى الدفاع ، وكانت قيادة القوات الشعبية فيها حكمة وفيها مكر ، فكانت تيارات الشد والجذب والتقدم والتأخر تسيطر على جو المعركة ، وأخيرا مهدت قيادة القوات الشعبية للقوات المهاجمة أن تتقدم إلى الأمام عند منطقة شبيهة بعنق الزجاجة قرب الجبانة حيث حدث التحام مباشر بين الفريقين لم يكن فى وسع طائرات الإنجليز أن تساعد جنودها فيه لأن المعركة كانت وجهاً لوجه وكتفاً لكتف.

لقد كانت معركة رهيبة باسلة خسر فيها الجانب البريطانى خسائر فادحة فى خيرة جنوده ، وخسر الجانب المصرى العربى بعض الشهداء ، ولكن كفة المعركة كانت فى صالح قوات الشعب التى خاضتها بإيمان وتصميم ، وكانت الهزيمة النكراء التى حلت « بالشياطين الحمر » بمثابة نذير للمعتدين باستحالة دخول المدينة عن طريق « الجميل » فانسحبت فلول جنودهم التى سلمت من رصاص الوطنيين بعيدا إلى الخلف ، إلى « الجميل » .

فى الرسوة و بور فؤاد :

كان موقف المظليين الفرنسيين فى « الرسوة » و « بور فؤاد » لايقل سوءا عن موقف الإنجليز فى منطقة الجميل ، فقوات الشعب تواجههم بعنف وتنزل بهم

الخسائر الفادحة ، وجنود العدو بمنطقة الرسوة صامدون للتحكم فى خزان مياه الشرب الذى يغذى المدينة بالماء ، وهم غير قادرين على التقدم خطوة واحدة ، ولذلك فقد ظلوا فى حالة جمود تام فليسوا قادرين على الانسحاب لأنهم فى قطعة من الأرض أشبه بجزيرة يحيط به الأعداء من كل جانب ولا هم قادرون على الزحف لأن سدا منيعا من القوات الشعبية يتربص بهم ويحول بينهم وبين ما يريدون .

وما يقال عن قوات الرسوة يقال عن قوات بور فؤاد ، إنها هى الأخرى قوات مشلولة ، لقد انتهى نشاطها بما بذلته من مجهود فى النهب والسلب والاعتداء على الأعراض ، أما التقدم إلى خوض المعركة فلم يكن ذلك فى مقدورها لأن ميدان المعركة على الضفة الأخرى حيث بور سعيد ، وإذن فلا بد لها من عبور الميناء والقناة ، ولكن هل تجرؤ على ذلك ؟ إن معنى عبورها فناؤها عن آخرها ، فالقناصة الشعبية آخذة أهبتها على الشاطىء الغربى لكل من يحاول من الغزاة عبور القناة التى كانت قد سدت تماما بفعل الانفجارات والغارات ، وإذن فقوات بور فؤاد أيضا قوات مجمدة غير صالحة للغزو أو العمل .

بدأ الغزاة يحسون بفشلهم ، لقد خسروا المعركة الأولى فعلا ، خسروها فى الجبانة وفى الرسوة ، وأصبح موقفهم يدعو إلى السخرية ، إنهم يريدون أن يفاجئوا العالم بأن منطقة القناة قد سقطت فى أيديهم فى ظرف ساعات ، فإذ بهم يقضون الأيام ومدينة بور سعيد وحدها مستعصية عليهم ، وأصبحت شجاعة وجرأة « الشياطين الحمر » اسطورة تحمر لها وجوه حلفاء الانجليز خجلا ، ولو كان الانجليز يعرفون الخجل لخجلوا من أنفسهم ومن «شياطينهم» .

و إذن فلا بد من تغيير الخطة ولا بد من غزو المدينة بطريق البحر طالما أن غزو الجو قد فشل .

مقابلة بين المسئولين وقائد المظلات :

فى نفس اليوم ، وكان الوقت عصرا ، أرسل قائد قوات المظلات فى منطقة « الرسوة » يطلب الاجتماع بالمسئولين فى المدينة ، ولم يجد المسئولون مانعا من إتمام هذه المقابلة ، فتوجه خمسة من حكام المدينة وعلى رأسهم الحكمدار ، بعضهم من المدنيين و بعضهم من العسكريين ، ذهبوا جميعا مدججين بالسلاح ، وما كادوا يجتمعون بالقائد الذى ظنوه سيتفاوض للانسحاب إذ به يفاجئهم بطلب التسليم ! !

دهش الجانب المصرى لسخافة الطلب إذ أن الكفة الراجحة لا زالت فى جانب المدينة ، أما هذا القائد فجنوده محاصرون ولولا الإمدادات والحراسات الجوية لفنيت قواته فى دقائق ، وانتهت المقابلة كما بدأت وعاد الجانب المصرى يحمل بسمة ساخرة بعد أن هدده القائد المغامر بدك المدينة بقنابل الأسطول إذا لم تذعن إلى التسليم . أصرت بور سعيد على الدفاع ومواصلة القتال مهما كان الثمن الذى ستتكبده رجالها وسكانها ، وفى تلك الأثناء طير قائد الحملة الأخبار إلى قيادته فى البحر باستحالة الانتصار على المدينة و بالتالى باستحالة تسليمها .

لقد أزدادت الحالة جمودا وهى فى نفس الوقت ازدادت قتامة واكفهرارا وخطورة، و باتت المدينة تنتظر بين لحظة وأخرى قنابل الأسطول المدمرة العمياء المجنونة ، الأسطول الإنجليزى والفرنسى ، ومن ورائهما أسطول حلف الأطلنطى

الجهيز بحاملات الطائرات والبوارج والمدمرات والغواصات وحاملات الجنود وزوارق انزال الجنود والدبابات .

لقد انتهى اليوم الأول وقد أهين فيه الغزاة إهانة بالغة فيمن فقدوهم من «الشياطين الحمر» الانجليز أو الجنود الفرنسيين أو الفرقة الأجنبيه المرتزقة ، لقد خسروا الجانب الأكبر من خيرة جنودهم ، وخسر الجانب المصرى كذلك عددا غير قليل من الشهداء الذين قضوا وهم يكبرون والمدافع فى أيمانهم ، إذ لا نستطيع أن ننكر أننا قد فقدنا بعض جنودنا كما تفعل بعض الدول حين تنكر خسائرها فى الحروب لأننا نعلم أن الدماء ثمن هين للمجد والاستقلال ، لقد خسرنا عددا من الشهداء وعددا من الجرحى الذين ضمدت جراح بعضهم فعادوا للقتال من جديد ، واستشهد البعض الآخر فى المستشفيات حينما تعمدت الطائرات المهاجمة ضرب المستشفيات للقضاء على الجنود الجرحى والأطفال المرضى .

الحالة داخل البلاد

قامت فكرة الهجوم على بور سعيد وفى ظن المعتدين أنهم بمجرد ضرب المدينة ستضطرب الأمور داخل البلاد على اعتبار أن لهم طابوراً خامساً يمكنه أن يؤدى عمله فيؤجج اضطرابات داخلية تنتهى بالقضاء على الثورة المجيدة .

لقد كانوا قصار النظر كما عهدناهم دائماً فقد ازدادت البلاد تماسكا وأمعن الشعب إصرارا على الدفاع ، وبالغ فى الالتفاف حول باعث نهضته مبالغة أصابت الإنجليز بالفزع .

لقد تحولت البلاد كلها إلى قلعة مسلحة وتحول كل مواطن إلى جندى فى

الميدان ، كان السلاح فى كل يد ، وكانت كل يد قد دربت على استعماله أحسن تدريب ، وأصر الشعب كله على أن يحارب حرب موت أو حياة ، وأن يخوض المعركة حتى آخر قطرة من دمه ، وأن يدافع عن أرضه قرية قرية ودربا دربا وشبرا شبرا ، إنه إصرار عجيب ، إن الشعب يحس أنها امتداد للحروب الصليبية خاصة بعد أن تردد على سمعه من وكالات الأنباء أن الجرائد الفرنسية نشرت بالخط العريض على صفحاتها الأولى أن جنودها يخوضون حرباً صليبية فى الشرق الأوسط .

الوزراء يقودون المعركة:

كان الجيش لحسن الحظ قد تم انسحابه من سينا بنجاح يدعو إلى الارتياح تحت حماية الفرق الفدائية التى حمت ظهره والتى سنتحدث عن بعض أبطالها فيما بعد ، وسارع الوزراء إلى خلعستراتهم المدنية واستبدلوها بملابس الميدان ، فوزير التربية مثلا يترك وزارته التى انقلبت مهمتها إلى وزارة من وزارات الحرب بدلا من وزارة تربية وتعليم ، فقد حمل جميع الطلبة والمدرسين مدافعهم وسارعوا إلى الجبهة وانقلبت المدارس إلى قلاع ومعسكرات .

التصميم على الدفاع أصبح جزءاً لا يتجزأ من نفس كل مواطن ، والجبهة الداخلية من التضامن والسلامة بحيث تقضى على كل من تسول له نفسه العبث من عملاء الاستعمار الغربى ، والمواطنون جميعاً كخلية النحل فى عمل دائم دائب ليل نهار ، والخلاصة أن الشعب كان واثقاً من الانتصار لا داخل الديار وحسب ولكن داخل بور سعيد نفسها .

معركتان بحريتان

معركة البرلس البحرية .

ومن المحاولات الانتحارية الكثيرة التى حاول المعتدون من خلالها احتلال البلاد بعد أن فشلت أولى معاركهم فى بور سعيد أن تقدمت نحو الشواطىء الشمالية وعلى بعد عشر كيلومترات من منطقة البرلس بعض القطع البحرية الفرنسية المعقود لواؤها على البارجة « جان بارت » محاولة فتح جبهة فى غير منطقة بور سعيد وإنزال الجنود الفرنسيين إلى داخل البلاد حتى يفتوا فى الروح المعنوية مهما كان الثمن الذى سيدفعونه غاليا .

لم تكن البحرية المصرية فى غفلة عما يجرى على السواحل بل كانت تراقب المياه الاقليمية سواء فى البحر الأبيض أو البحر الأحمر ، ونتيجة لهذه اليقظة تركت البارجة الضخمة وبعض القطع الأخرى تتوغل نحو المياه الإقليمية تجاه البرلس ليلة ٥ نوفمبر ، وما أن أصبح الصباح حتى كانت البارجة الفرنسية وزميلاتها محاطة بزوارق الطوربيد المصرية الضخمة من كل جانب وكانت معركة بحرية مجيدة استمرت زهاء ساعتين أبلت فيها البحرية المصرية العربية أحسن البلاء وأسفرت المعركة عن إصابة البارجة الفرنسية إصابة مباشرة وخسارة الجانب الفرنسى ستمائة جندى وقطعة أخرى كبيرة وبذلك فقدت البحرية الفرنسية واحدة من أحسن ثلاث قطع بحرية كبرى تعتز بها .

وقد استنجدت البحرية الفرنسية أثناء المعركة بقوات جوية من حلفائها

ونشبت بين طيرانهم و بين البحرية المصرية معركة عنيفة كانت خسائر الجانب المصرى خلالها طفيفة عبارة عن بعض الزوارق الصغيرة .

وفى هذه المعركة استشهد الضابط البحرى السورى «جول جمال» بعد أن أظهر ضروبا فذة من البطولات فوحد الدم العربى السورى والمصرى على صفحة المعركة كإرهاص للوحدة الكاملة التى تمت بين الإقليمين العربيين بعد ذلك ببضعة عشر شهراً .

معركة خليج السويس :

كان المهاجمون قد أعدوا خطة أخرى لفتح جبهة فى منطقة السويس ، وكان المفروض أن يكون جنود هذه الجبهة من الإنجليز ، وبدأت المدمرات الإنجليزية وحاملات الجنود الضخمة تقترب رويدا رويدا من مدينة السويس يوم ٥ نوفمبر حتى إذا أصبحت داخل المياه الإقليمية ، خرجت إليها المدمرات البحرية المصرية ذات المدافع البعيدة المدى و باغتتها وحاصرتها من كل جانب وظلت تصليها نارا حامية فأغرقت مدمرة وهربت باقى القطع التى كانت تعتبر نفسها إلى وقت قريب «سيدة البحار» ، ولم يعرف عدد القتلى من الإنجليز على وجه التحديد إلا أن أمواج البحر قد حملت إلى الشواطىء بعد المعركة ببضعة أيام عشرات الجثث المشوهة ، هذا فضلا عما اتخذه سمك القرش الذى يكثر فى خليج السويس من وجبات شهية لذيذة من جثث جنود البحرية المعادية .

وهكذا فشل المهاجمون فى فتح أية جبهة غير جبهة بور سعيد ، ولم يستطيعوا إنزال جندى واحد فى أية بقعة من البلاد ، ولعل التاريخ كان يعيد نفسه فلقد

فشلوا سنة ١٨٨٢ فى أن ينزلوا جنديا واحدا على سواحل مصر ، ولولا خيانة ديلسبس لما استطاعوا أن يتغلبوا على هذا الشعب يوما واحدا .

لقد قامت البحرية المصرية بواجبها بشكل مشرف يدعوها إلى الزهو والفخار

معركة البحر والبر فى بور سعيد

لقد كانت المقاومة العنيفة التى لقيها جنود المظلات ، والخسائر الفادحة فى الأرواح التى منوا بها فى خيرة جنودهم وتصميم المدينة على الدفاع والصمود ، رد فعل عنيف وخيبة أمل كبرى لدى القواد الذين ظنوا أن بور سعيد ستسقط فى خلال ساعات ، وإذا بهم يفاجأون بصمودها وعنادها وتصميمها على الدفاع ، وبات الجو فى حالة من التوتر الشديد ، ولم يلبث الموقف أن انجلى عن أسطول ضخم يضم حاملات طائرات وبوارج ومدمرات وطرادات إنجليزية وفرنسية بل كان بعضها من قطع حلف الأطلنطى الذى تشترك فيه أمريكا ودول أوربا الغربية ، وبدا البحر مكفهرا وكأنه قد زرع بهذه القطع البحرية الحربية المتراصة المتجاورة التى لاتبعد الواحدة عن جارتها بأكثر من ٥٠٠ متر ووقفت على مقربة من المدينة بحيث كانت القوات الشعبية تشاهد الجنود يتحركون على ظهورها ، وجعل هذا الطابور العجيب من سفن الحرب يتحرك محاولا أن يدخل القناة ولكنها كانت قد سدت نتيجة للغارات والانفجارات .

المهم أن المدينة باتت ليلة من أخطر الليالى التى مرت بها منذ الغزو البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ ، ولكنها مع ذلك مصرة على المقاومة فى استبسال وعناد . وما كاد يمضى الليل الطويل ويسفر عن صباح يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر حتى كانت قوارب

إنزال الجنود « البعابع » تشق الماء إلى الساحل وتنفتح من الأمام حيث ينزل الجنود يخوضون الماء الضحل إلى الشاطىء ، وفى تلك الأثناء وقع التحام عنيف واستبسلت قوات المقاومة الشعبية فى المعركة ووقع كثير من الضحايا من الجانبين .

لقد كانت المقاومة الشعبية أكثر تركيزا فى الجهة الغربية من المدينة لتوقع نزول الجنود المهاجمين منها ولتعذر نزولهم من الجهة الشرقية لأن القناة كانت مسدودة كما أسلفنا ، ولكن ليس معنى ذلك أن الجهة الشرقية كانت خالية من الدفاع فلقد كان فيها أبطال أبلوا البلاء الحسن وسجلوا بطولات خالدة كما سيأتى فيما بعد .

لوحظ أن أكثر من استشهد فى تلك المنطقة الشرقية من المدينة أو مايسمى بحى الافرنج كانت أصاباتهم من خلف وليس من أمام ، وهنا ظهرت حقيقة مريرة هى أقرب إلى الغدر منها إلى أخلاق المحاربين ، ولكن ليس ذلك بمستغرب فالمعركة كلها سياسيا وحربيا قامت على الغش والغدر ، أما هذه الحقيقة التى نود الكشف عنها فهى أن أفرادا من جنسيات أجنبية كانوا قد تسللوا إلى بعض القنصليات قبيل الاعتداء كجزء من المؤامرة ثم خرجوا أثناء الهجوم وأخذوا يضربون جنود المقاومة الشعبية من الخلف مما تسبب فى وقوع بعض الضحايا .

أخذت قوات إنزال الجنود تؤدى مهمتها فى إنزال المهاجمين وهى تظن أنها تهىء لهم النزهة البحرية الجميلة التى مناهم بها انطونى إيدن ، ولكنهم فوجئوا بقاذفات الصواريخ المصرية تحصدهم حصدا فأسقط فى يد المهاجمين الذين كانوا يظنون أن اشتراك قوات الأسطول وعتاده سيرغم المدينة على التسليم خوفا وذعرا ، فجن جنونهم وأخذت مدافع الأسطول تصوب قنابلها الضخمة إلى المدينة رأسا فى

شكل ضربات عشوائية عمياء كان ضحاياها كثير من الأبرياء وكثير من البيوت .

كان التصميم من جانب المقاومة الشعبية أشد عنادا ، فكلما سقط صف من الشهداء تقدمت من خلفه صفوف تصلى الجنود النازلين إلى الشاطىء نارا تلتهمهم التهاما ، لقد كانت معركة الشاطىء معركة باسلة ضارية تكبد المهاجمون فيها عددا ضخما من جنودهم وتكبدنا نحن أيضا عددا كبيرا من الضحايا الشهداء ولم تلبث قاذفات الصواريخ المصرية أن سكتت تحت ضربات الأسطول المتوالية .

معركة شارع محمد على :

بدأت الدبابات الضخمة والمصفحات الكبيرة تنزل إلى الشاطىء بأعداد وفيرة . وأخذت تتجمع فى أول شارع محمد على من ناحية البحر ثم أخذت تشق طريقها إلى الجنوب مخترقة الشارع المذكور فى شكل سهم ، وهنا فطن أهالى بور سعيد الأذكياء إلى أن السهم يريد أن ينطلق رأسا فى طريقه إلى الإسماعيلية حيث المعركة الفاصلة .

وفى الحال عمل الأهالى على تعويق الطابور الجهنمى عن السير والتقدم والتحموا معه فى معركة من أشد معارك بور سعيد هولا ، المهاجمون مصممون على التقدم مهما كان الثمن حتى يكسبوا نصرا سريعا يحفظون به ماء وجوههم أمام شعوبهم ولكى يفلتوا من الإنذار الروسى الذى يهددهم بضرب لندن و باريس بالصواريخ إن لم يوقفوا الاعتداء عقب منتصف الليل، والشعب يفهم كل ذلك فيلقى بكل قواته أمام الطابور ليحول دون تقدمه ، لقد كان البور سعيديون يلقون بأنفسهم على الدبابات و يضربونها بمدافع البازوكا التى كانوا متسلحين بها ،

واستمرت المعركة ثمانى ساعات سالت فيها الدماء أنهارا ولم يتزحزح الطابور المصفح خطوة واحدة إلى الأمام ، لم يستطع الوصول إلى منتصف الشارع رغم قصره ، فأخذت الدبابات تتحرك يمنة و يسرة فاختل نظامها وانفرط عقدها ويئست من نجاح خطة « السهم السريع » فبدأت تستنجد بالطائرات .

والواقع أن المقاومة الشعبية البور سعيدية كانت من البطولة والإيثار بحيث حصرت المعركة داخل المدينة رغم ما فى ذلك من خسائر جسيمة حتى تفدى بقية البلاد من هول المعارك الحربية ، وعلى هذا الأساس حالت دون خروج طابور الدبابات من شارع محمد على بعد معركة رهيبة .

والحق أن السلاح الناجع الذى استعمله المهاجمون كان سلاح الطيران ولولاه لفنى جنودهم رغم تحصنهم بالمصفحات والدبابات .

كانت الدبابات تتعرض لحصار المقاومة ولا تكاد تحس بالخطر حتى تتصل لاسلكيا بسلاح الطيران أن أنقذونا نحن فى منطقة كذا أو قطاع كذا من المدينة، وفى الحال يسارع سلاح الطيران إلى أداء دوره فى دك المناطق القريبة من الدبابة أو تشتيت جنود المقاومة الذين يتهددونها .

وهكذا كانت المعركة معركة طيران فقط ، أما مواجهة جندى لجندى فهو مالم يقدروا عليه أو يفلحوا فيه .

لا زلنا فى يوم ٦ نوفمبر ، إن المدينة الباسلة لا زالت صامدة وقد صممت على حصر المعركة داخلها لكى تفدى بقية البلاد من التدمير الذى يصاحب عادة زحف الجيوش الغازية ، فالإنجليز والفرنسيون غير قادرين على إخضاع المدينة رغم أنها مدينة مكشوفة بحكم موقعها الطبيعى ، ثم يفاجأ القائد العام للحملة بقرار وقف

إطلاق النار الذى صدر من هيئة الأمم المتحدة تحت ضغط الأمم المحبة للسلام وعلى رأسها الهند والاتحاد السوفيتى الذى هدد قبل ذلك بقليل بضرب لندن و باريس بالصواريخ الموجهة إذا لم يتوقف العدوان الغاشم على بور سعيد .

يضطرب القائد العام البريطانى كل الاضطراب فإن موقفه مخز فى نظر دولته التى أفهمها أنه ماض فى مهمته بنجاح ساحق ، والواقع أنه حتى تلك اللحظة لم يستطع أن يحتل مدينة بور سعيد كلها .

لا يستجيب القائد البريطانى لقرار وقف النار رغم أن دولته قد وافقت عليه فى الأمم المتحدة و يحاول أن يحتل المدينة جميعها قبل أن يوقف الحرب ولكن دون ذلك المستحيل أو ما يشبه المستحيل .

وأما الفدائيون فإنهم أخذوا يمهدون لشن حرب العصابات حتى يواجهوا العدو بخطة جديدة ؛ وفى نفس الوقت يتحرك طابور انجليزى فى شارع الجمهورية متجهاً إلى « البيت الحديد » حيث كان المحافظ والحكمدار وهيئة حكام المدينة ، وتجرى مفاوضات بين الجانبين المصرى والبريطانى يطلب فيها القائد البريطانى من المحافظ تسليم المدينة ، غير أن هذا الطلب يقابل بالرفض للمرة الثانية رغم أن الدبابات فى الشوارع ، والقوات داخل المدينة ، وجنود المظلات تسد المنافذ والاسطول الضخم على الشواطىء ، ولكن المعركة كانت معركة حياة أو موت ، وشرف الوطن يأبى على حاكم المدينة أن يسلم ، والإنجليز يستعجلون سقوط البلد العظيم لكى يحفظوا ماء وجوههم .

هدية حلف الأطلنطي لبور سعيد :

لن ينسى أهالى بور سعيد هذه الهدية الخالدة لأنها هدمت بيوتهم وأحرقت أثاثهم وقتلت آباءهم ونساءهم وأطفالهم حرقاً . هذه الهدية هى النابالم Napalm . والنابالم مادة سرية من أسلحة حلف الأطلنطى ، مسحوق تلقيه الطائرات على المدينة التى تغير عليها ، و بمجرد وصوله إلى الأرض واصطدامه بأى جسم يحرقه ولا يتركه حتى يتفحم .

لما يئس القائد البريطانى المزود بالأساطيل والدبابات والمصفحات والشياطين الحمر من جنود المظلات ، لما يئس من الاستيلاء على المدينة بدأ يستعمل أخس الطرق لإلقاء الرعب فى قلوب الأهلين ، فأصدر أوامره باستعمال هذه المادة الجهنمية المتوحشة فألقيت على المدينة من الجو فجعلت الحرائق تتصاعد إلى عنان السماء ، واحترقت من جراء ذلك مناطق المناخ وعبادى وعباس والأمين والكبائن ومستودعات البترول بالرسوة وظلت الحرائق تأكل المدينة طول الليل أكلا لكى يدخل الرعب إلى قلب مائة وخمسين ألف مواطن . وقد تعمد المعتدون أن يمنعوا المطافىء من عملها ، ومع ذلك فلم تستسلم المدينة رغم أن عدد ضحايا الحريق كان ضخماً ، وكان أكثره من الأطفال الذين ذعروا وقاموا من نومهم فزعين فتلقفهم الحريق ، أو العجائز الذين لم تسعفهم أقدامهم للنجاة بفعل الشيخوخة فلحقت بهم النار وتركتهم جثثاً متفحمة ، و بذلك انتهى يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر أسوأ وأخس وأبشع نهاية ولكن عناية الله لم تترك المدينة فقد نزل المطر مدرارا فأطفأ الحرائق الملتهبة.

أمضت بور سعيد الباسلة ليلة رهيبة انفرجت عن صباح يوم الأربعاء ٧ نوفمبر

وكان صباحاً عابساً مظلماً كئيباً . فقد توقف إطلاق النار رسمياً ، ولـكن الإنجليز يكيدون المدينة ، و يحتلون الأحياء التى استعصى عليهم إخضاعها قبل وقف إطلاق النار ، هذا والأهالى لا يزالون يحترمون قرار وقف إطلاق النار ، ولـكنهم عندما وجدوا الإنجليز سادرين فى غيهم بدأوا يرسمون لهم الخطط التى تقض مضجعهم .

الصباح عابس متجهم ، رائحة الموت فى كل مكان . الجثث متناثرة فى الشوارع وعلى الأرصفة نتيجة لمعارك اليوم السابق التى اشتركت فيها مدافع الأسطول والدبابات ، بدأ الأهالى يجمعون القتلى من أبنائهم و إخوانهم وأطفالهم ، عائلات بأسرها قتلت غدراً ، هذا يسأل ذاك هل رأيت أخى محمد ؟ فيجيبه : نعم ، لقد سقط شهيداً ، وجثته بالمكان الفلانى ، فيسارع إلى جثة أخيه ، ليس لديه الوقت ليبكيه ، ولـكنه يريد أن يدفنه ، ولعل من أشق الأمور على الإنسان أن يدفن المرء أخاه أو أباه أو ابنه بنفسه ، ولـكن الهمجية التى استعملت فى ضرب المدينة الباسلة خلفت الـكثير من المآسى . ومع ذلك لم يجد الأخ مكاناً لـكى يدفن فيه أخاه ، كنت ترى الأخ يحمل على ظهره جثة أخيه يطوف بها الشوارع لعله يجد مكاناً يواريه فيه التراب وعلى سبيل المثال كان عبد العزيز المقدّم — وهو حى للآن — يحمل جثة أخيه السيد المقدم على عربة « يد » و يدفعها أمامه بنفسه يبحث لها عن مرقد أخير ، ثم يوسده التراب بيديه و يبكيه من قلبه بزفرات مكتومة من الصدر . إنه بطل ، بل إنهما بطلان ، الحىّ والشهيد .

ومع ذلك فلا زال القتلى يملأون الشوارع ، وخيف من أن تتعفن جثثهم وليس هناك من يحملهم ، وأخيراً أمكن الحصول على بعض سيارات النقل المخصصة لشراب الـكوكا كولا فشحنت بالجثث ، وكانت تسير ودماء الشهداء



منازل المواطنين بعد أن أكلتها النيران بعد ضربها بالنابالم
السلاح السرى لحلف الأطلنطى

تنزف منها حيث كانوا يوارون التراب فى الأراضى الخضراء ، فى الحدائق العامة ، وفى ملاعب الكرة فى النادى المصرى الرياضى ، إن كل بقعة من شوارع بورسعيد وحدائقها قد ضمخت بدماء بطل أو عطرت بأشلاء شهيد .

كان من العبث الاستمرار فى القتال طالما أن المواطنين فى مصر قد درجوا على احترام قرارات الأمم المتحدة التى لم يجف مدادها ، لقد انجلت المعركة غير المتكافئة عن ألفين من القتلى المصريين المدنيين ، أما قتلى الأعداء فكانوا يحملونهم فى أسرع وقت — حتى لا يعرف عدد ضحاياهم — ومع ذلك فقد تكلفوا الكثير من القتلى .

انتهت المعركة دون أن تستطيع قوات انجلترا وفرنسا ومن ورائهما قوات حلف الأطلنطى أن تحتل مدينة بور سعيد كلها ، لقد زحفوا لاحتلالها بعد أن نفذ المصريون قرار وقف إطلاق النار .

الانجليز يحاولون جمع السلاح وتشغيل الأهالى

منع الأنجليز الماء والطعام عن الأهلين عسى أن يضعفوا من عزائمهم أو يفلوا من تصميمهم ، فلما تصوروا أن الخطة قد آتت ثمارها وأن العطش قد أخذ من سكان المدينة البواسل مأخذه بدأوا يفرضون إرادتهم على الأهالى أو على الأقل حاولوا ذلك.

بدأوا يطلبون منهم السلاح وأخذوا يذيعون كذبا أن هذه رغبة المسئولين بالمدينة وقبل أن يخدع الناس بهذه الحيلة ، انتشر فى الحال رجال المقاومة الشعبية وانطلقوا بأقصى سرعة يتصلون بزملائهم حتى أفهموا الأهالى أنها خدعة و بالفعل فشلت خطة الإنجليز فى جمع السلاح .

كان الانجليز يصطحبون معهم الموظفين الفرنسيين الذين انسحبوا بعد تأميم القناة وقد ألبسوهم ملابس عسكرية ، حاولوا تطهير القناة واتصلوا بعمال الشركة ، ولكن العمال الأبطال قابلوهم بالسخرية وهز الأكتاف .

طلبوا عمالا يستخدمونهم بأجور عالية ، جعلوا أجر العامل بادىء ذى بدء جنيها فلم يتقدم أحد ، رفعوا الأجر إلى جنيهين ثم إلى ثلاثة ثم إلى خمسة فلم يتقدم لخدمتهم عامل واحد رغم حالة الجوع التى كانت تجتاح المدينة .

أراد الانجليز أن يبعثوا فى المدينة شيئا من الحياة فحاولوا الاتصال بالتجار لفتح محالهم ، اتصلوا بكبار التجار فرفضوا جميعاً ، هددوهم بمختلف الوسائل فلم يفلح التهديد ، إن هؤلاء التجار وطنيون مخلصون ، إنهم أبطال أمجاد .

قلق الأهالى على مصير الجيش فى سينا :

لعبت الإذاعة دوراً مجيداً فى معركة بور سعيد ، كان الأهالى فى المدينة الباسلة يحسون أن كل مواطن فى مصر كلها بل فى البلاد العربية كلها معهم يخوض المعركة فى جانبهم ، كل ذلك عن طريق الراديو ، فكانت معنوياتهم فى ازدياد وارتفاع .

فطن الإنجليز إلى الدور الخطير الذى تقوم به الإذاعة فسارعوا إلى قطع تيار الكهرباء ، لجأ الأهالى إلى الأجهزة ذات البطاريات ، اطمأنوا على وطنهم الكبير ، عرفوا أن أقصى مسافة ذهب إليها الإنجليز هى ضاحية الكاب على بعد خمسة وثلاثين كيلو مترا من بور سعيد ، أطمأنوا على سلامة جيشهم الذى تمت عمليات انسحابه من سيناء بأقل الخسائر وأن الجيش اندمج مع الشعب والشعب



المعتمدون يطوفون بالشوارع قلقين ومعهم أجهزة اللاسلكي
والمحال العامة كلها مغلقة

اندمج مع الجيش وأصبحت الجمهورية كلها قلعة كبيرة يصعب اقتحامها ، وحصن من فولاذ يستحيل تدميره أو الاستيلاء عليه .

فى قطاع غزة

الانجليز يدخلون القطاع :

انسحب الجيش المصرى من غزة وسيناء حسب الخطة البارعة التى رسمت له وفوّتت على المستعمرين المعتدين فرصتهم فى حصاره و إيقاع الأذى به ، وكان طبيعيا أن يلقى قطاع غزة وسكانه مصيرا داميا ، فقد أصبحوا منعزلين فى منطقتهم ، ولكنهم بما عرف عنهم من قوة البأس والفدائية ، قرروا أن يخوضوا المعركة الانتحارية إلى آخر رجل وتوقعوا وصول اليهود بين لحظة وأخرى .

غير أن الذى حدث كان يدعو إلى السخرية والاستهزاء بالاستعمار وركيزة الاستعمار ، لقد خشى الجيش اليهودى المزود بالعتاد الأمريكى الإنجليزى الفرنسى ، المطعم بقواد وضباط انجليز وفرنسيين ، خشى هذا الجيش « الشجاع » أن يدخل غزة وقطاع غزة ، إن مجرد ذكر كلمة غزة فى سمع أى إسرائيلى يثير فى نفسه الفزع والخوف ، لأن الفدائيين العرب الأمجاد طالما أذاقوهم ألوانا من الانتقام والهوان عن طريق غزة .

المهم أن قطاع غزة فوجىء بجيش بريطانى مائة فى المائة يخترق الحدود ويحاول احتلال القطاع بمدنه ، إن الجيش المهاجم كان انجليزيا بضباطه وجنوده ، ضباط وجنود سبق أن خدموا فى فلسطين أيام الاحتلال البريطانى وقبل أن تسلمها بريطانيا

لليهود ، ضباط طالما جلدهم اليهود بالسياط وعلقوهم من أرجلهم فى أغصان الأشجار ومع ذلك سلموا لهم الأرض الحبيبة ، ولكن تلك طبيعة الانجليزى المستعمر لا يحترم إلا الذى يحتقره ولا يخشى إلا الذى يضربه و يهينه .

إن أهالى غزة يعرفون الضباط المهاجمين بأسمائهم و يعرفون وسائل حربهم فقد التحموا معهم منذ سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٤٧ فى معارك طاحنة و بدأ الشعب الفلسطينى يدافع و يقاوم .

خان يونس تستعصى على المهاجمين :

وقف الجيش الإنجليزى المهاجم بعض الوقت يلقى مقاومة عنيفة أمام غزة رغم استعمال أخس الوسائل الارهابية من ضرب بالطائرات وزحف بالدبابات ، وتكبد خسائر فادحة حتى تمكن من دخول المدينة ، أما خان يونس ، المدينة الباسلة ، فقد استعصت على جيش الإمبراطورية التى أصبحت دولة من الدرجة الثانية . جن جنون الإنجليز فأسرفوا فى التضييق على المدينة بمختلف أنواع التنكيل .

لقد كان الجيش الفلسطينى فى موقف لا يحسد عليه ، فإما أن يقاوم مقاومة المستميت وإما أن يفنى ، وحمى وطيس المعركة ، وقاتل الجيش بشرف كما قال الرئيس عبد الناصر ، وسالت دماء كثيرة ، وزاد عدد الشهداء ، وأخيرا و بعد دفاع مشرف سقطت خان يونس بعد معركة رهيبة استمرت بضعة أيام وكان ذلك يوم ٤ نوفمبر .

اليهود يتسلمون القطاع ويقتلون أهله :

ما كاد الجيش البريطانى ينتهى من الاستيلاء على القطاع بعد هذه المعارك المريرة حتى سارع الجيش الإسرائيلى « الشجاع » إلى طلب تسلم القطاع وكان أن أجابه الإنجليز إلى طلبه فبدأ يزحف بدباباته ومصفحاته ومشاته .

كان الجيش اليهودى يعلم أن بعض النساء والأطفال خرجوا إلى الرمال حيث يحتمون بالأشجار ، فاستغل اليهود الموقف وسلطوا نيران طائراتهم على هذه الأشجار ومن لاذ بها من النساء والأطفال ، فقتلوا منهم عددا كبيرا ، إنهم لا يحترمون أمومة ولا طفولة ولا شيخوخة وسابقاتهم فى ذلك كثيرة فى « دير ياسين » « وقبية » وغيرها .

لم يكتف اليهود بذلك بل كانوا يجمعون الشباب من كل مكان ويضعونهم فى الميادين العامة ثم يفتحون عليهم النيران بالجملة فيصرعونهم عن آخرهم ، كانوا يدخلون البيوت للاعتداء على الأعراض ، فدافع الشيوخ والشباب عن أعراضهم ببسالة حتى استشهدوا ، ومع ذلك فلم تكن المرأة تستسلم بل تظل تقاوم حتى إذا مايئسوا منها بقروا بطنها وشوهوا جسمها ثم أجهزوا عليها ، قتلوا رجال الدين من مسلمين ومسيحيين وأعدموا القاضى الشرعى رميا بالرصاص أمام أطفاله .

إن اليهود لا يعترفون بأى قانون أرضى أوسماوى إلا ببعض ماورد فى الزبور المزور من استباحة دماء وأموال وأعراض الناس جميعا طالما أنهم من غير اليهود ، ولذلك وفى ظل هذه القسوة أفنوا عائلات بأسرها ، بأطفالها ونسائها وشبابها وشيوخها .

ومع ذلك فقد قاوم أبطال القطاع حتى آخر قطرات من دمائهم ، وأخيرا انسحب الجبناء وقد حملوا معهم كل ما وقع عليه نظرهم فى القطاع من بضائع وتموين وسيارات ومصاغ النساء وملابسهن فضلا عن الشباب الذين اختطفوهم ولا يعرف أحد عنهم شيئا حتى الآن وهل هم أحياء أو أموات .

خرجوا وهم بعد يرتجفون من سماع كلمة الفدائيين ، وبعد أن تركوا فى كل بيت بطلا شهيدا ، إنه يندر أن تجد فى خان يونس بالذات بيتا واحدا لم يقدم شهيدا أو شهيدين أو أكثر .

ولكن اللوم لا يقع على إسرائيل فهى أضعف وأجبن من أن تفعل شيئا من ذلك ، إنما اللوم على أمريكا وإنجلترا وفرنسا الذين أوجدوا إسرائيل وحموها، ولكن هل ستطول حمايتهم لها ؟ وهل يستطيعون أن يبقوا عليها ويساندوها فى أرض غير أرضها وغير أرضهم لفترة طويلة ؟

إن التاريخ هو الذى سوف يجيب عن هذا السؤال .

وإن حسابهم جميعا غدا لعسير .

معركة المنشورات فى بور سعيد

لنعد إلى بور سعيد، معركة عجيبة تلك التى تستعمل فيها المنشورات بدلا من من السلاح ، لا إنها لم تكن كذلك ، إن المنشورات نفسها كانت أسلحة تقتل وتدمر ، لكل منشور هدف معين وغرض مقصود وتوقيت محدود .

حينما أشاع الإنجليز فى المدينة أن احد المسئولين قد أصدر أمرا بجمع السلاح سارعت الماتاشاما (هيئة تحرير شعب مصر) إلى إصدار هذا المنشور

فى غفلة من الإنجليز وكرد على لعبتهم هذا نصه :

« أيها المواطن :

إياك أن تلقى سلاحك ، إياك أن تخشى تهديدهم أو دورياتهم ، إنهم أجبن من الجبن ، ارفع رأسك يا أخى وسدد رصاصك واقتلهم حيث وجدتهم ، ابحث عمن يتعاون معهم إلى أن يحين الوقت للانتقام » .

وفى بور فؤاد يعبث الجنود الفرنسيون بمقدسات الضاحية وتخشى الهاتاشاما أن يفت ذلك فى عضد الأهالى فترسل إليهم هذا المنشور عبر القناة على جناح السرعة لكى تشد من أزرهم وترفع من معنوياتهم .

« يا أهل بور فؤاد :

لا تهنوا ولا تحزنوا فأنتم تعرفون (أولاد الحرام) من أفعالهم وإنكم لتعرفون أن كل فرنسى لايعرف من هو أبوه ، فهم عواهر أبناء عاهرات ، زوانى أبناء زانيات .

وإنكم تتذكرون أن جيوش هتلر رحمه الله ما كادت تدخل أرضهم حتى رفع الرجال منهم أيديهم إلى أعلى ، ورفعت نساءهم . . . . وما كادت تمر بضعة شهور حتى زادت نسبة المواليد فى فرنسا من ١٠ ٪ إلى ٩٠ ٪ .

فمثل هؤلاء الأوغاد أولاد الحرام .. . لالوم عليهم إذا أساءوا إليكم

فاصبروا وصابروا ... فإن يوم الخلاص قريب .

عاش رئيس مصر العظيم

هاتاشاما »

ونغمر اهاتاشاما المدينـــة الباسلة بسلسلة من المنشورات ترد بها على مزاعم الإنجليز أو تلعنهم أو تطلب من الأهالى اتباع بعض النصائح ، كل ذلك يجرى بنجاح تام ودون أن يعثر المحتلون على المطبعة التى تطبع أو الشباب الذى يوزع المنشورات

ولما بدأ المحتلون ينسحبون من المدينة صدر منشور يحذر الأهلين من غدرهم وعدم احترامهم للوعود ، يقول المنشور وهو بعنوان « انسحاب .. ولـكن »

« نعم وافق اللصوص أمس على الانسحاب ولـكن . . . ما هو موقفنا من هذه الموافقة ؟

إننا لا نثق فى وعودهم لأننا عرفناهم كاذبين لاشرف لهم . كما أننا لا نعتمد أبدا على الأمم المتحدة ... ولا غير الأمم المتحدة . و إنما يجب علينا .

(١) أن نـكون دائما على استعداد لاستعمال سلاحنا فى أى وقت نراهم فيه لاينفذون الانسحاب .

(٢) أن تتذكروا دائما أن لنا ثأرا عندهم فنأخذ به منهم فى أى وقت وأى مكان .

(٣) أن نقاطع بضائعهم مقاطعة تامة دائما وفى كل وقت .

(٤) أن نؤلف لجانا فى كل قسم من أقسام المدن وفى كل قرية وفى كل كفر ، لـكى تنظم عملية المقاطعة .

و إن منظمة (هاتاشاما) لتدعو المواطنين إلى عدم الاستـكانة والتراخى اعتمادا على وعودهم ... فإن بريطانيا وفرنسا و إسرائيل لاشرف لهم .

عاشت مصر وعاش رئيسها العظيم »

ومن المنشورات التى كان لها وقع الصاعقة على أسماع الانجليز هذا المنشور الذى يهاجمهم فى شرفهم بجانب منشورات أخرى حوت الكثير من الألفاظ التى كانت تجرح رجولة جنودهم والتى أغفلناها هنا ، أما المنشور الذى نقصده فهو بعنوان الشرف البريطانى وهذا نصه :

الشرف البريطانى ! ! !

يقبل الرشوة ويعذب المعتقلين ! ! !

الشرف البريطانى ! !

هذه هى الخرافة التى ما فتئنا نسمعها منذ عرفنا الحياة ! ! !

هذه هى الأسطورة التى كان يرددها دائما على أسماعنا الإنجليز وأصدقاء الإنجليز ! ! حتى لقد وصل الأمر بأحد زعماء مصر الأقدمين إلى أن يقول قولته الكاذبة : (الانجليز خصوم شرفاء معقولون) ! ! ! .

هذه هى الأسطورة ! ! ! .

فهل صحيح أن الانجليز لهم « شرف » يتحدثون عنه الآن وقبل الآن ؟ ! ! !

الحق ! ! لو كان للإنجليز شرف لما تظاهروا بالوصول إلى حل سلمى لمشكلة القناة ثم ما لبثوا أن هاجموا مصر بهذه الخسة والنذالة ! ! ولو كان للإنجليز شرف لما أحرقوا منازل بور سعيد ! ولما شردوا أهلها ! ولما قتلوا الأطفال والنساء ! !

ولو كان للإنجليز شرف لما سمح لهم هذا الشرف المزعوم أن يتقبل جنودهم

الجبنـاء الرشوة من سكرتير هيئة التحرير لقضاء احتياجاته فى سجن الأجانب ببور سعيد .

ولو كان للإنجليز شرف لمـا لجأ رجال مخابراتهم الأذكياء (جدا) إلى تعذيب هذا الرجل الشجاع لأنه لم يرض أن يوقع على اعتراف حشوه بالأكاذيب!!

ولو كان للانجليز شرف لقرر أطباؤهم له علاجا فى مرضه ! ! ولما كذبوا وقالوا انه ليس بمريض ! ! .

لقد سمعنا الـكثير عن نذالتهم وخستهم .. مع جميع المعتقلين . . بل رأينا بأعيننا ما يفعلونه مع غير المعتقلين فى الشوارع ولم نذكر هذه الأمثلة إلا (عينة) فقط للشرف البريطانى ! !

أيها الإنجليز الأوغاد ! ! !

أنتم آخر من يتحدث عن (الشرف) فى القديم والحديث وإلى يوم القيامة . . .

فلعنة الله عليكم وعلى شرفـكم المزعوم ! ! !

وعاشت مصر وعاش رئيسها العظيم .

هاتاشاما

ولم يقف الأمر بالمنشورات عند النثر فقط بل كثيراً ما صدرت منشورات مكتوبة بالزجل منها على سبيل المثال .

قولوا للمعتدين . . .

قولوا (لإيدن) كيف أعصابك يا اللى جنيت ع الدولة الدايخة ؟
قولوا (لإيدن) إيه كان صابك تعمل فيها العمله البايخة ؟
جيت تتحدى ، وبتتعدى ويا العاهرة الفاجرة فرنسا
جاتكم خيبه ، جاتكم نايبه جاتكم حرقه ، جاتكم واكسه

* * *

قولوا (لبينو) بينكو وبينه خاب مسعاك يابو وش أذيه
جيشك عمره ما فتّح عينه مسكين ، دايخ ، أصله وليه
جاى بيرازى وعامل غازى حاطط أحمر يطلى خدوده
واقف خايف بعنيه شايف شعب أصيل مايهمه وجوده

* * *

قولوا (لصهيون) ضفر القطة ليه دى العمله ياعايشه عواله
عامله لى دوله وهيه (محطه) فيها الفجر وكل سفاله
ناس جرابيع عاوزين بلاليع ويحاربونا بصحراء سينا .
ناس هلافيت عاوزين شلاليت بكره نشتهم بايدينا

هاتا شاما

والحقيقة أن المنشورات كانت سلاحاً إيجابياً أمكنه أن يخرج الإنجليز عن صوابهم فى كثير من الأحيان ، ومن عجب أن المصريين لم يكونوا البادئين بالمنشورات ، وإنما الذين بدأوا بها هم الإنجليز أنفسهم ، كانوا يكتبون منشورات

باللغة العربية الركيكة يهاجمون فيها النظام القائم فى مصر والرئيس عبد الناصر ويطلبون من الأهالى التعاون معهم لفتح القناة وتطهيرها وفتح المحال التجارية وتسفيه الأخبار التى تذيعها محطة الإذاعة بالقاهرة .

والواقع أن الإنجليز قد أخطأوا فى استعمالهم المنشورات خطأ جسيما فقد نبهوا أهالى بور سعيد الأبطال إلى أن يردوا عليهم بنفس الفكرة و بذلك فتحوا على أنفسهم باباً من الشر كانوا فى غنى عنه ، وتغيرت رحى المعركة فبعد أن كان الإنجليز البادئين بالهجوم فى منشوراتهم أخذ منهم المصريون الكرة وأخذوا يلهبونهم بسياط القول مما تحويه المنشورات من تهم عنيفة ، و إلهاب لمشاعر الجماهير .

وهناك نوع آخر من المنشورات كان يكتب على أسفلت الشوارع باللون الأبيض ليلا أثناء منع التجول ، فإذا ما أسفر الصبح فوجىء الإنجليز بهذه الجمل التى تسخر منهم فيجن جنونهم وتزداد حماقتهم .

كما أن بعض الأهالى كانوا يضعون تماثيل لأنطونى إيدن فى الشوارع ، وقد علق فى حبل مشنقة أو يأتون بكلب ويكتبون على جسمه بخط واضح كلمة « إيدن » بالإنجليزية ثم يطلقونه ، فما يكاد الإنجليز يرونه حتى يأخذ منهم الغيظ كل مأخذ ، أو يجىء الأهالى بنعش ثم يتركونه فى الشارع فإذا بالذعر يحل بالإنجليز و يظنونه مليئاً بالمتفجرات فيحاصرونه فى حذر وجزع و يأتون بخبراء المفرقعات ، ولا يكادون يكشفون ما بداخله حتى يفاجأوا بتمثال رجل مشوه قد صنع من بقايا الخيش القذر والأسمال البالية وقد كتب عليه اسم « إيدن » .

وهكذا تفنن الأهالى فى مضايقة المحتلين واللعب بأعصابهم و إيقاع الذعر بهم

رغم أن هؤلاء شبه عزل إلا من الإيمان والشجاعة ، وأولئك مزودون بكل جهنمى من ألوان الأسلحة التى أعدت أصلا للحروب الـكبيرة ، والتى أنفقت أمريكا فى صناعتها المال والوقت كى تزود بها حاف الأطلنطى ، فإذا بحاف الأطلنطى كله يتحول إلى ضرب بور سعيد .

على أن منشورات المقاومة الشعبية لم تـكن كلها تصدر بالعربية ، فقد كان بعضها يصدر بالانجليزية مثال ذلك :

المنشور التالى :

PIRATES,...

GO TO COLD AND HUNGER
IF YOU TRY TO COME
AGAIN, WE ARE STAYING
HERE .... READY TO SEND
YOU TO DEATH.

HATASHAMA

وترجمته ما يلى :

« أيها القراصنة

اذهبوا إلى البرد والجوع

إذا حاولتم العودة فإننا رابضون هنا
لـكى نرســلكم إلى الفناء
هاتا شاما »

لقد كانت معركة المنشورات معركة بارعة فيها بطولة وفيها جرأة ، وكانت ذات أثر فعال فى المساهمة فى المعركة الـكبرى ورفع الروح المعنوية لمواطنى المدينة الباسلة التى كانت مقطوعة الأسباب عن بقية الوطن تواجه المعتدين على كثرة عددهم وعددهم بشجاعة فائقة و بسالة نادرة يجرى ذكرها على مدار الدهور .

بطولات ورجال

إن كل من حضر معركة بور سعيد بطل من الأبطال لأنه ساهم فى الدفاع عن مدينته الخالدة وشارك فى الذود عنها ، بل إن كل عربى فى أى بلد عربى ، أو بلد أجنبى عاصر معركة بور سعيد هو أيضاً بطل من الأبطال ، إنه جيل سعيد من أبناء العرب ، فما من عربى فى أى ركن من أركان الدنيا لم تثر الدماء فى رأسه أثناء معركة بور سعيد فأتى عملا من الأعمال ساهم به فى المعركة بشكل مباشر أو غير مباشر ، تلك المعركة التى تعتبر المعركة الفاصلة فى تاريخ القومية العربية بل فى تاريخ الجنس العربى .

ولـكننا هنا سنضرب بعض الأمثلة كشبيد على ألوان مختلفة متعددة من الإيثار والبذل وحب الوطن والفداء .

عسران يقتل وليامز :

وليامز ضابط المخابرات البريطانية الخطير ، عاش فترة طويلة من حياته فى في منطقة القناة يطارد الوطنيين و يضيق عليهم الخناق ، وهو بعد ذلك يجيد اللغة العربية إجادة تامة و يعرف مدينة بور سعيد حق المعـــرفة بل إنه يعرف الأهلين وخصوصاً الوطنيين منهم بأسمائهم ، و يعرف منازلهم ، بل يعرف ضباط البوليس جميعاً خاصة من ساهم منهم فى التضييق على الإنجليز قبل الجلاء الذى سحبه معه وألقى به خارج البلاد سنة ١٩٥٥ .

إن « وليامز » وهذه طبيعته كان خطراً على المقاومة الشعبية ، وكان يلعب دوراً كبيراً فى مطاردة الفدائيين وتتبع أوكارهم ومحاولة تعويق نشاطهم ، ومجمل القول أنه كان شراً لابد من التخلص منه فى أسرع وقت رغم أنه كان فى حرص الثعلب .

وهنا يظهر « عسران » البطل ، الفتى الذى لم يتجاوز عمره ستة عشر عاماً ، إذ لم يكن فى استطاعة أحد أن يقتل وليامز إلا فتى فى مثل تلك السن أو دونها ، لأنه كان يخشى الـكبار و يحصِّن نفسه ضدهم ، و يطلق عليهم الرصاص لأول ظنة و بمهارة يحسد عليها .

يقف « عسران » بدافع من وطنيته وفدائيته ، أو بعبارة أصح يتربص « عسران » « لوليامز » فى وضح النهار فى المـكان الذى تعود وليامز أن يـكثر التردد عليه ، وعلى وجه التحديد عند تقاطع شارعى رمسيس والنهضة أمام مبنى المباحث الجنائية .

وتمر سيارة الاستعمارى العجوز ، وإذ « بعسران» متربص وفى يده رغيف منتفخ قد قربه من شفتيه وكأنه يلتهمه ، ولم يكن الرغيف محشواً كباباً أو جبناً أو فولا بل كان محشواً قنبلة يدوية خطيرة التفجر .

وينادى « عسران » : « وليامز » ! فيسترعى انتباه الاستعمارى العجوز صوت الصبى الصغير فيأمر سائق سيارته الجيب أن يتمهل ليرى ماذا يريد الصبى الصغير الذى يلتهم الرغيف ، ولكن « عسران » لايضيع وقتاً بل فى الحال ينزع بأسنانه صمام القنبلة وهى داخل الرغيف ، وكالبرق يلقى بها على « وليامز » فى السيارة فيحس العجوز بالخطر ويحاول أن يقفز إلى الأرض لكى ينجو بحياته ، ولكن القنبلة تكون أسبق منه فتنفجر وتقطع ساقيه وتقتل زميله فى السيارة ، وترتج القيادة الإنجليزية ذعراً وفزعاً على أخطر استعمارى عاش أطول مدة فى بور سعيد ، فتحمله إلى المستشفى ثم لا تجد الاستعدادات الكافية لعلاجه فتضعه فى طائرة عسكرية خاصة وترسله إلى قبرص لمحاولة إنقاذ حياته ولكنه يموت قبل مضى يومين على إصابته تودعه اللعنات من كل أهالى بور سعيد الذين لم يسلم واحد منهم من شره .

أما الفتى الفدائى « عسران » فإنه حينما أطلق القنبلة انطلق كالسهم لم يلحق به أحد واندمج فى جموع الناس بعد أن أدى واجبه الوطنى الخطير رغم صغر سنه وحداثة عمره . . إن « عسران » بطل يستحق تقدير الوطن العربى .

أربعة أبطال يختطفون الضابط الاستعمارى مور هاوس :

إن « مور هاوس » ضابط انجليزى فيه صلف وقسوة ، ولا غرابة فهو من

جنود الاحتلال ، وهو بعد ذلك يمت بصلة القرابة لملكة بريطانيا .

ويصمم الأبطال الأربعة — وما أكثر الأبطال فى بور سعيد — على خطفه تأديباً له وتحقيرا للجيش المحتل الذى ينتمى إليه ، ولذلك فقد صمموا على خطفه فى رابعة النهار ، تماماً كما فعل البطل « عسران » فعلته المجيدة فى وضح النهار ، إنها سلسلة من أعمال البطولة يقوم بها القوم طائعين مختارين تنفيساً عما هم فيه من احتلال وانتقاماً من أعداء الوطن الذين استباحوا حماه .

وفى تمام العاشرة صباحاً تتحرك عربة سوداء تحمل رقم ٥٨ أجرة قنال يقودها بطل مغامر أسمر اللون جرىء الجنان ذو أعصاب من حديد ، وفى داخلها أبطال ثلاثة بقيادة الضابط الفدائى « عز الدين » ، ويمر غلام صغير يركب عجلة بجانب الضابط الاستعمارى ويعاكسه ببضع كلمات فينثنى الضابط القهقرى محاولا القبض على الغلام ، فتسارع العربة السوداء إليه وتمر بجواره مسرعة بعض الشىء وتمتد ساعدا « عز الدين » الحديديتين وتختطفه فى لمح البصر أمام الناس جميعاً ، وتنطلق السيارة بسرعة ، فإذا بها تفاجأ عند أحد التقاطعات بثلاث دوريات من جنود الاحتلال واحدة من أمام وثانية من يمين وثالثة من شمال ، وهنا تظهر عبقرية السائق الأسمر الذى ينطلق بظهر السيارة بسرعة فائقة منعطفاً من شارع إلى شارع ومن عطفة إلى عطفة حتى اطمأن إلى أنه قد بعد عن المطاردة ببضع ثوان فينزل الأبطال الفدائيون ومعهم الضابط الأسير ويتركون السيارة مكانها وينطلقون به عشرات من الأمتار ويدفعونه أمامهم من درب إلى درب وحينما يحسون بالخطر يدخلون بصيدهم البيت الذى رتبوا أمرهم عليه .

ويفاجأ صاحب البيت بأربعة أبطال وضابط من الأعداء أسير ، إن مسئولية

الرجل ضخمة ، وقد فوجىء بالضابط الأسير أمامه ولابد أن يتصرف ، ولكنه بطل . إن اسمه « أحمد هلالى » ، وفى الحال يشارك هلالى فى إخفاء مور هاوس فى حجرة من حجرات منزله بعد أن لثموه وأوثقوه بالحبال .

و يتولى «هلالى» أمر الضابط الصلف الأسير فيطعمة وقت الطعام وهو فى قيده و يسقيه إذا عطش ، ولكن فرق جنود الاحتلال تظل تفتش المنازل جميعاً فى عنف وقسوة محاولة أن تسترد الضابط الذى سبب اختطافه لها خز ياً وعاراً ، و يحس « هلالى » أنهم فى الطريق إليه فيخفى الضابط فى صندوق كبير من الخشب و يدخل الجنود بيت هلالى فيقابلم هادئاً رزيناً ، حتى أطفاله الصغار الذين يعلمون كل شىء يقفون فى هدوء وثبات وكأنهم وكأن أباهم لم يطأوا بنعالهم شرف الإمبراطور ية حين أخفوا أحد أقرباء الامبراطورة من العسكر يين .

وتعمى حملة التفتيش عن الصندوق بعد أن فتشوا البيت تفتيشاً دقيقا ، ولا يكادون ينصرفون حتى يسارع هلالى إلى الصندوق لكشف غطائه حتى لا يختنق الضابط الأسير ، ولكن طول المدة التى قضاها الجنود فى التفتيش كانت كفيلة باختناقه داخل صندوقه ، فماذا يصنع « البطل هلالى » ، إنه لم ينزعج بل بكل رباطة جأش حفر قبراً فى باحة منزله و وضع الصندوق وما فيه من صيد داخل الحفرة ، إن عملية الحفر ليست جديدة على هلالى ، فقبل ذلك بأيام كان قد قام بنفس العملية حيث وارى جثث بعض أقربائه الذين قتلهم مور هاوس وجنود مورهاوس .

إنها قصة بطولة وقصة فداء من مصنع البطولات ، بور سعيد .

قواد الصاعقة : جلال ، والجيار ، والأسمر :

لقد كانت بور سعيد مغلقة تماماً بعد وقف القتال ، وجنود الاحتلال تسد منافذها وتتلكأ فى الانسحاب ولا بد لكى ينسحبوا أن يشعروا أن حياتهم أصبحت جحيما رغم وقف إطلاق النار رسمياً .

ويغامر الأبطال الثلاثة جلال ، الجيار ، الأسمر ويتنكرون فى زى صيادين ويعبرون بحيرة المنزلة ويدخلون المدينة وفى أياديهم الشباك والسلال ، إنها ليست شباك لصيد الأسماك ولكن لصيد الأعداء وأما السلال فليست مليئة بالأسماك وإنما مليئة بأدوات الموت والدمار .

إنهم لا يضيعون وقتاً فيسارعون إلى درس الموقف والمواقع ويتخيرون العناصر التى يمكنها أن تساعدهم فى عملياتهم ويبحثون عن الخونة إن وجدوا لكى يقضوا عليهم ، إنهم يراقبون نظام دوريات الأعداء وحراساتهم . وبعد أن رسموا خططهم واطمأنوا إليها بدأوا ينفذونها فى حذق ومهارة .

كان نشاطهم يبدأ دائماً مع الظلام وعند حظر التجول وفى ذلك ما فيه من الخطر ، ولكنهم أبطال مطمئنون إلى أنفسهم وقوتهم وخططهم .

كانت أولى معاركهم مع المحتلين الذين امتهنوا كرامة بلادهم معركة مدرسة الواصفية المشهورة التى استمرت ثلاث ليال والتى أقضت مضاجع الإنجليز وكلفتهم كثيراً من الخسائر والأرواح وكان صوت المعركة يهزّ جنبات بور سعيد هزاً طوال الليل وكأن هؤلاء الأبطال مردة من الجن وهم يخوضون غمار معركة غير متكافئة ومع ذلك بفضل إيمانهم ووطنيتهم أحرزوا النصر والتوفيق .

وثانى معاركهم كانت فى «الجميل» وهى غير معارك المظلات ، وإنه لأمر يدعو إلى الدهشة والإعجاب أن يتمكن هؤلاء الأبطال ومعهم معاونوهم من الوصول إلى الجميل رغم بعد الشقة وامتلاء الطريق بالمحتلين .

وكانت معركة الجميل رهيبة مفزعة أمكن لهؤلاء الأبطال القليلين أن ينسفوا بعض الدبابات والمصفحات وأن يقتلوا عدداً ضخما من الجنود الإنجليز تارة خنقاً وتارة ذبحاً ، المهم أنهم كانوا يقتلونهم وينتقمون لوطنهم .

وثالث هجماتهم كانت على مطار الجميل وقد تمكنوا أن يصلوا إليه فى جنح الظلام وفى رحلة محفوفة بالموت عن طريق بحيرة المنزلة ، وكان فى جعبتهم كثير من الطعم تأهباً لصيد وفير ، وفى تلك الهجمة ذبحوا حراس المطار من ناحية البحيرة ونسفوا طائرة هليوكوبتر وأخرى من حاملات الجنود ثم عادوا سالمين فى جنح الظلام بواسطة زورقهم ذى المجاديف السحرية الصامتة الذى أدى مهمته على أكمل وجه .

لقد أثار هؤلاء الأبطال الثلاثة ، جلال ، الجيار ، الأسمر الفزع فى قلوب جنود الاحتلال فاضطرت القيادة المهاجمة أن تخلى أكثر أحياء بور سعيد من الجنود وأن تفصل بينهم وبين بقية المدينة بأسلاك شائكة واصبحوا يحتلون سواحل المدينة والقناة فى شكل حرف L محافظة على أرواحهم ، وبرغم كل ذلك ازدادت الهجمات عليهم خلف أسلاكهم الشائكة وكثر القتلى بينهم الأمر الذى جعلهم يتذمرون علناً ويطالبون بعودتهم إلى بلادهم .

إن الأعمال التى قام بها الأبطال الثلاثة من قواد الصاعقة جلال والجيار والأسمر أعمال باهرة تنم عن مرتبة سامية من مراتب الفدائية والوطنية .



المعتدون يحتلون عمارات منطقة طرح البحر
ويحتمون وراء الأسلاك الشائكة

لعلهم كانوا يطلبون الشهادة ولكن كتبت لهم جميعاً النجاة ، غير أن البطل «الجيار» قد نال بغيته من الشهادة ، ولكن ليس فى بور سعيد بل فى جزء آخر من أجزاء الوطن الغالى ، لقد استشهد فى معركة بين العرب واليهود على الحدود السورية الفلسطينية ... إنه فى جنة الخلد .

حامد الألفى البطل الشيخ :

لم تكن البطولات فى ميدان المعركة مقصورة على فئة بعينها ، بل كانت موزعة بالعدل والقسطاس بين مختلف طبقات المواطنين ، اشتركت النساء فى البطولة ، وما قصة « أم الفقير » التى قتلت بعض جنود المظلات ببعيدة ، واشترك الفتيان ممثلين فى البطل « عسران » الذى قتل الاستعمارى « وليامز » ، واشترك الشباب ببطولاتهم الخالدة وبأعمالهم الباهرة التى أقضّت مضاجع المحتلين .

أما الشيوخ المسنّون فلم يهاجروا جميعاً من المدينة ، فقد ظل البعض متشبثاً بأرضه ومسقط رأسه ومغانى طفولته وملاعب صباه وميدان كفاحه ، لم يطق أكثرهم أن يرى مدينته تضرب ويعتدى عليها فلا يحرك ساكناً .

إن المثل الأعلى لبطولة الشيوخ كان « حامد الألفى » البورسعيدى الذى يحمل على كاهله نيفاً وسبعين عاما لم تثنه عن أن يخوض المعركة ويلهب المشاعر ويأتى بالمعجزات وسط الرصاص الأعمى المنهمر ، فكان الرصاص يرتد عنه هيبة وفزعا وينثنى عن طريقه خجلا ورعبا .

كان « حامد الألفى » البطل الشيخ يعمل فى خلال المعركة أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم وكأنه ابن الثلاثين لا السبعين ، لقد اتخذ من إحدى سيارات

الإسعاف مركزاً متحركا لقيادته ، كان ينطلق بها و ينزل إلى ميدان المعركة وحيداً والرصاص المجنون ينهمر من حوله من شمال و يمين ومن خلف ومن قدّام وهو ينحنى على الأبطال الجرحى يحملهم على ظهره أو صدره يعطر ملابسه بدمائهم و يدفع بهم إلى سيارة الإسعاف لتضميد جراحهم ، لقد كان الناس يدهشون لهذا الشيخ « المحجب » وكثيراً ما سلموا فيه وظنوا أنه هالك لا محالة ، إن الرصاص كان ينطلق عليه سواء وهو يجمع الجرحى من الميادين ، أو وهو يجلس فى سيارة الإسعاف ، ولقد أصيب أكثر من واحد ممن كانوا يركبون بجواره من رجال الإسعاف فلم يكن المعتدون يحترمون أى معنى من معانى الإنسانية ، أما هو فلقد كان الرصاص يرهب سورته ويخجل من شيبته · إن « حامد الألفى » كان يطلب الشهادة ، كان يجمع الجثث و يتقدم بين النار والرصاص والدخان والهدم والدماء فى يوم عبوس قمطرير ، ولكن رحمة السماء كانت تدخر حياته لأمجاد أخرى يقوم بها لخدمة بلده .

لقد علم بإصابة البطل « شوقى خلاف » الذى سنقص عليك قصته بعد حين وكان « شوقى » قد خرّ صريعاً فى منطقة « الرسوة » فى يوم المظلات المجنون ، فركب حامد الألفى سيارته وانطلق إلى منطقة الموت ، إلى حيث يرقد البطل الصريع ينزف دماً زكياً عزيزاً على الوطن، بل عزيزاً على كل عربى فى كل قطر عربى ، يخترق حامد الألفى طريق الموت و يصل سليما بمعجزة ، أو بما يشبه المعجزة، فيجد البطل الصريع مجندلا فى دمائه وقد فارق الحياة لكثرة ما نزف ، فيبكيه حامد الألفى بقطرات غالية من الدموع المستعصية ، ذلك أنه يعرف العمل الكبير الضخم الخالد الذى قام به الشهيد ، ثم يصلى عليه صلاة الجنازة ويحفر له قبرا بيديه

ويقبله فى جبينه ويوسده التراب مكفناً بملابسه كما يدفن الشهداء ، ويعود إلى الميدان مرة أخرى وإلى الرصاص مرة أخرى وإلى الاستشهاد مرة أخرى ، فلا يستشهد وإن كان له أجر الشهداء .

وتتكاثر الجثث فى الشوارع والميادين والطرقات ، جثث الشهداء الأبرار ، فيحاول الإنجليز جمعها وحرقها ، وهنا ينطلق حامد الألفى كالسهم إلى حيث قيادتهم وينذر القائد الانجليزى فى حزم أن الإسلام يحرم حرق الجثث ويهدده بالويل إن فعل ، فيرتعد القائد من شيبة الشيخ البطل وحزمه ، ويسمح للأهلين بدفن جثث شهدائهم فى المقابر .

وتنتهى المعركة من الناحية الرسمية بوقف إطلاق النار ، وتجرى مفاوضات بين الطرفين المتحاربين لتبادل الجرحى ، ويسمح الانجليز لقطار ملىء بالجرحى بمغادرة بور سعيد إلى القاهرة حيث يعالجون ، وهنا يتدخل حامد الألفى لاقتناص تلك الفرصة لكى يقدم خدمة جديدة للوطن ، إن أخبار بور سعيد الحقيقية منقطعة عن السلطات العليا فى القاهرة ، فماذا يصنع حامد الألفى لإبلاغ الحكومة بحقائق الأوضاع داخل المدينة الشهيدة ؟

إن حامد الألفى يختار الفدائيين الجرحى أولا ويضعهم فى القطار ، وفى نفس الوقت يأتى ببعض الذين يحملون أسرار المعركة من الرسميين من غير المصابين ، ويلف أطرافهم بالجبس أو بضمادات وكأنهم مصابون ، وقد حملوا تحت ضماداتهم أخطر الوثائق التى تحتاج إليها القاهرة وينطلق القطار بهؤلاء جميعا ، وبهذه الطريقة ، وبإخلاص الشيخ وذكائه ووطنيته عرفت القاهرة كل شىء عن بور سعيد .

إن بطولة حامد الألفى وجرأته لم تكن تقف عند حد ، لقد كانت مغامراته

وسط المعركة تشبه الأساطير ، ولكنها كانت حقائق لا سبيل إلى إنكارها . لقد سمع حامد الألفى صوت أحد الخونة يركب سيارة يطوف بها و يطلب إلى الأهالى باسم الحكومة كذبا وعن طريق مكبر صوتى تسليم السلاح إلى الإنجليز ، ووقف المقاومة الشعبية ، وتجن مشاعر « حامد الألفى » ، إنه يعلم أن الخائن يطوف تحت حماية الإنجليز ، ولكنه مع ذلك يركب سيارته « الإسعاف » و يتعقب الخائن حتى يصل إليه بحيث تصبح السيارتان متوازيتين ثم يخرج رأسه من النافذة ويكتشف الخائن و يصفعه على وجهه عدة صفعات و يغتصب منه المكبر و ينادى فى الناس ألا يستمعوا لهذا الخائن لأهله ووطنه ، ثم ينطلق كالسهم بعد أن يبصق فى وجه خادم الاستعمار ، وتذيع القصة وتنتشر كالبرق فيمسك كل وطنى عن تسليم سلاحه ويخرج « حامد الألفى » من تلك المعركة سليما ظافراً ..

إن « حامد الألفى » قام بأعماله الخارقة فى ظل وطنيته الأصيلة وتواضعه الجم فكان جديراً بثواب الشهادة التى قدم نفسه لها طائعاً مختاراً فادخرته عناية الله ورعايته لكى يقوم بأعمال مجيدة لا سبيل إلى حصرها فاستحق الشيخ الجليل أن ينتظم موكب الخالدين .

الأبطال الأطفال :

هناك أبطال كثيرون من الأطفال الأبرياء ، البراعم الصغيرة التى يسيل التفتح لكى تؤدى دورها المرتقب فى صنع الوطن ، بعضهم لم يتعد من العمر ستة أشهر و بعضهم بلغ من العمر سبع سنوات أو ثمانى سنوات ، أطفال أبطال يعيشون

بغير أب ، بغير أم ، بغير إخوة ، بغير أخوات ، وجد الطفل البطل نفسه وحيداً ، وقد حرم حنان الأم ورعاية الأب وشفقة الأخت وعون الشقيق ، لقد استشهدوا جميعاً وأمام عينيه ، بالرصاص حيناً ، وفى الحريق حيناً آخر ، وتحت الهدم حيناً ثالثاً ، وغرقاً فى البحيرة حيناً رابعاً ، إلى غير ذلك من ألوان الموت والدمار التى أوقعها المعتدون بالمدينة .

كان الطفل « على » يقف على الرصيف المواجه لمنزله ساعة الضرب ، ويخرج أبوه منطلقاً عبر الشارع حناناً إلى ولده لكى يعود به إلى المنزل ، ولكن رصاص العدو المتربص يردى الأب قتيلا ، وتشاهد الأم ما حل بزوجها ولا زال طفلها « على » يطلب النجدة فتدفعها الأمومة إلى إنقاذ طفلها و إسعاف زوجها ، ولكن رصاصة جديدة من العدو المتربص تخترق موضع الحنان من صدرها فتخر صريعة ، ويشاهد إخوة « على » ما قد حل بأبيهم وما قد حل بأمهم ، فيخرجون إلى عرض الشارع لسحب جثتى والديهم ، ولكن الرصاص يرديهم جميعاً ، قتلى ، شهداء ، صفاً واحداً ، الواحد بجوار الآخر ، ويظل الصغير « على » ذو السنوات الأربع يتيم الأم والأب والأهل والإخوة بفضل المعركة « النظيفة » التى أشعل أوارها المستر « إيدن » .

وهنالك « كريمة » الطفلة البريئة ذات السنوات السبع التى تعيش اليوم فى مبرة بور سعيد ، فقدت أباها وأمها و إخوتها جميعاً ، لقد نزلت قنابل « السلام » على بيتها فاشتعلت فيه النيران واندك على كل من فيه ، و بالصدفة دفعها أحد الأعمدة الخشبية دفعاً إلى وسط الشارع ، ووجدت النيران حولها وكأنها جهنم ، فهربت من الجحيم ، ثم تفقدت أهلها فوجدتهم جميعاً قد قتلوا ، استشهدوا ،

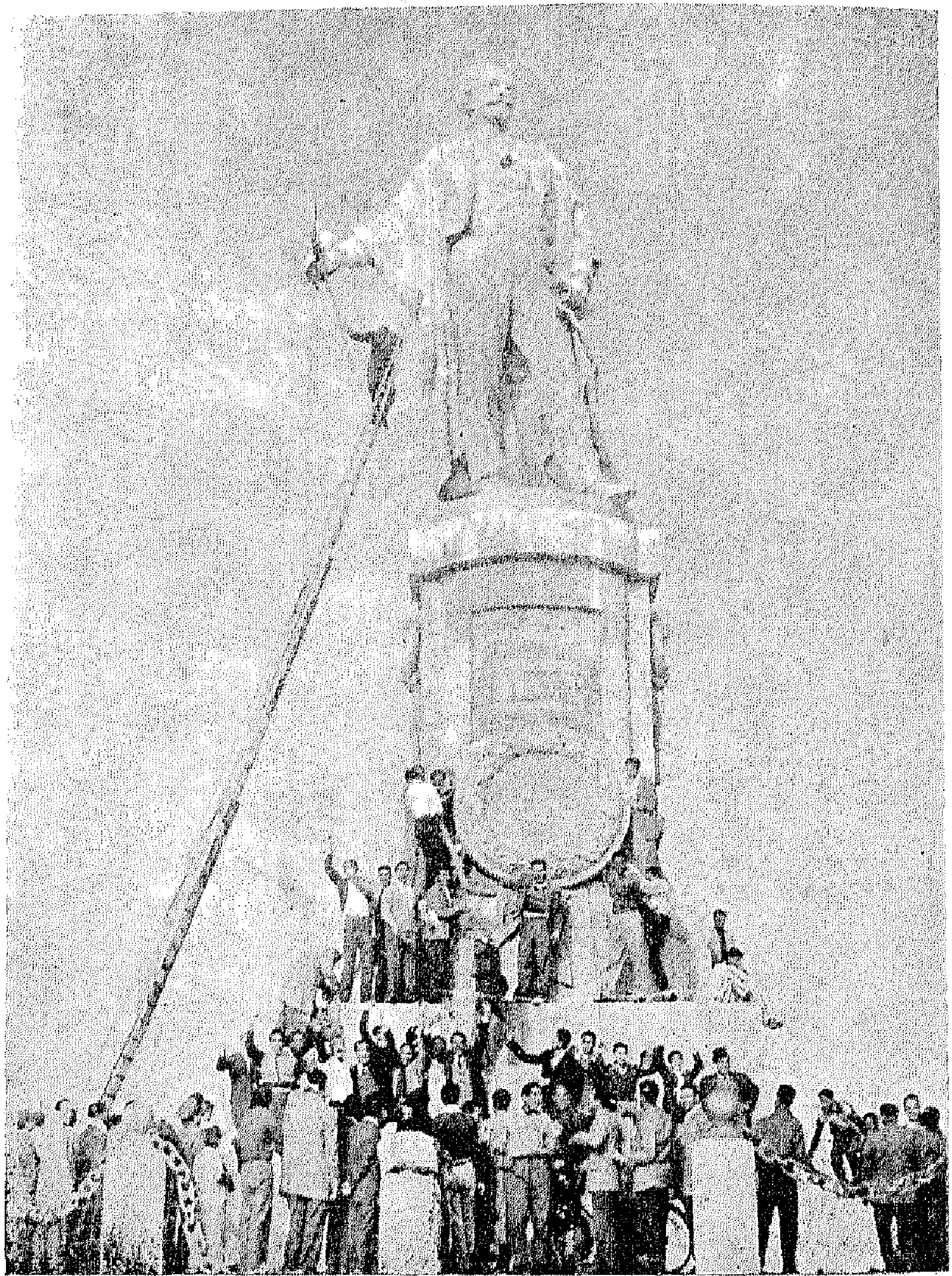
الأب والأم والجد والجدة والإخوة تحت الأنقاض ، إنها قنابل حلف « السلام » قنابل حلف « الأطلنطى » .

إن هناك مئات الأطفال مثل « على » فقدوا جميع أهليهم ، إن « على » الصغير يعيش بلا أهل ،وهناك مئات الأطفال مثل« كريمة » فقدن جميع أهليهن ، إن « كريمة » الصغيرة تعيش بلا أهل ، وهم مع كل ذلك شجعان ، تعجب لأحاديثهم القوية المؤمنة فلا تملك أن تدفع دمعة قد ترقرقت فى عينيك ، ثم تلتفت إلى الخلف قليلاً حتى تأخذ مجراها لتنحدر ،وحتى لا يراها « على » الصغير البطل اليتيم وحتى لا تراها « كريمة » الصغيرة البطلة اليتيمة .

إن« على » و « كريمه » أعزاء على الوطن ، إنهم أبناء العروبة جميعاً ، إن كل مواطن كبير أب لهم ، وكل مواطنة كبيرة أم لهم ، وأبناء الوطن جميعاً لهم إخوة ، إنهم من الوطن فى سويداء القلب وحنايا الضلوع،وغداً سيكونون جميعاً من السعداء لأن تضحياتهم غالية وجسيمة . . . . إنهم أطفال أبطال . . . إنهم أبناء الشهداء .

إن بطولات الأحياء فى بور سعيد أكثر من أن تعد وأعظم من أن تحصى : ما من مواطن أو مواطنة فى بور سعيد إلا وقد قام بدوره خير قيام، لقد تستروا على الفدائيين وساعدوهم وأمدوهم بالمعلومات وقدموا لهم المأوى والغذاء وأمنوا ظهورهم فكانت أعمالهم باهرة بارعة هزت فرائص المعتدين وأقضت مضاجعهم .

لقد تحمل كل بطل فى بور سعيد الجوع والعطش ورفض الاستسلام ، وتتبع الخونة ونصب من نفسه حاكماً لمحاكمتهم ومنفذاً للقصاص منهم ، فمن الخونة من قتله الشعب حرقاً ، ومنهم من قتل رمياً بالرصاص ، ولكنهم كانوا قلة ، لم يتعدوا



المواطنون يستعدون لنسف ديليسبس

عدد أصابع اليد الواحدة .

إن بطولات البورسعيديين خالدة مع الزمان تقف فى صف واحد مع بطولات عين جالوت وحطين .

الشعب يحطم التماثيل :

لقد كانت حساسية الشعب العربى البور سعيدى أثناء العدوان وعقب انسحاب جنود الاعتداء ، من الثورة على المعتدين بحيث لم تطق أن تسمع أو ترى شيئاً يذكرهم بالعدوان والمعتدين ولذلك ما كادت أقدام آخر جندى معتد تغادر أرض المدينة فى ٢٣ ديسمبر حتى تكاثر الشعب وتجمع دون أن يدعوه أحد حول تمثال ديلسبس والنصب التذكارى للجندى المجهول الأسترالى لتحطيمها .

قد يكون تمثال ديلسبس من الناحية الفنية قطعة رائعة ، وقد يكون النصب التذكارى للجندى المجهول الأسترالى عملا فنياً ممتازاً ، ولكن مجرد رؤية التمثالين كانت تثير فى نفوس الشعب الحقد والغيظ والشجن ، فديلسبس هو الأفاق العالمى الذى حفر القناة بعظام المصريين ثم جردهم من خيرها وأنهى حياته الخبيثة بالتآمر مع الإنجليز وخيانة الجيش المصرى حينما سمح للجيش البريطانى أن يحتل مصر عن طريق القناة سنة ١٨٨٢ .

لقد كان تمثال ديلسبس النحاسى يرتفع سامقاً إلى السماء كأنما يريد أن يعانق السحاب على قاعدة فخمة عالية عند نقطة التقاء القناة بالبحر وقد تمنطق الأفاق العالمى ببزة الفرسان وفتح ذراعيه ناحية البحر مرحباً بالسفن القادمة ، وكان التمثال من الارتفاع والمتانة بحيث يصعب هدمه بالمعاول ، وفى الحال فكرت جموع

الشعب مليًّا ثم استحضرت سلم المطافىء ونصبته بملاصقة التمثال ، وانطلق فدائى من بينهم يحمل مثقاباً ضخماً وكمية من الديناميت وبمهارة تامة فتح ثقباً فى التمثال الضخم ووضع كمية الديناميت وفى لمح البصر هبط السلم وأشعل الفتيل فإذ بدوى ضخم يهز المدينة ولكن لا يزعزع التمثال . إنه متمسك بقاعدته تمسك المحتلين بأرض مصر لنيف وسبعين عاماً . إنه غير مستعد للجلاء إلا بطاقات كبيرة من العزم والعنف . ويعيد الفدائى الكرة مرة ثانية وثالثة ويتمكن الديناميت من تمثال الأفاق فى مقتل فيدوى الانفجار وينطلق التمثال الضخم طائراً فى الفضاء كما تطير قطع من القطن المندوف ثم يستقر منكفئاً على وجهه وكأنه الذئب المسعور يلقى جزاء ما أوقع بالمسالمين من شرور .

ويتنفس الشعب الصعداء فقد قضى على تمثال الأفاق الذى أحسن إليه فقابل الإحسان باللصوصية والذى ائتمنه على قناته فسرق القناة ووطن القناة .

على أن الأمر لا ينتهى بالشعب عند هذا الحد من تحطيم تمثال ديلسبس فهناك تمثال آخر أقيم فى أرضنا تسامحا منا وتقديراً للتضحية والفداء ، إنه النصب التذكارى لقتلى الحرب العالمية الأولى من الجنود الأستراليين ، كان هذا التمثال يحتل مكاناً شاعرياً محاطاً بالخضرة والشجر على ضفة القناة فى قلب بور سعيد . ولكن الشعب لا ينسى لرئيس وزراء استراليا المستر منزيس موقفه العدائى ضد مصر إبان تأميم القناة ولم ينس وقاحته حينما حضر إلى القاهرة ممثلا لمؤتمر لندن . ولم ينس استعداءه دول الغرب على مصر والمطالبة بشن حرب عليها . لم ينس الشعب البورسعيدى أن الشعب الأسترالى بلسان رئيس وزرائه كان ساعداً من سواعد العدوان الأثيم . وإذن فلا محل للنصب الأسترالى فى أرض القناة . ولا



النصب التذكارى الاسترالى بعد نسفه

مناص من التخلص منه بنفس الوسيلة التي تم التخلص بها من تمثال ديلسبس .
إن النصب الأسترالى يذكر المواطنين بالعدوان و بمنزيس الذى اصطلح الشعب على تسميته بالبغل الاسترالى .

ويجهز الديناميت، وفى حفل شعبى كبير شبيه بالحفل الشعبى الارتجالى العظيم الذى أقيم منذ قليل لنسف ووأد تمثال ديلسبس يزاح النصب الاسترالى الذى يمثل حصاناً استرالياً ضخماً قد صب من البرونز و يطير من قاعدته إلى وسط الطريق مقصوص الأرجل مقطع الأوصال مشوه الأعضاء جزاء موقف الرئيس الأسترالى وتحقيراً لشأنه وشأن مواطنيه .

ومن الطريف أن منزيس السالف الذكر كان يهدد و يتوعد ويرسل الاحتجاجات لما أسماه الاعتداء على النصب الأسترالى وكرامته ، ولكن لسنا فى حاجة لأن نقول إن الاحتجاج قوبل بهز الأكتاف والسخرية والاستهزاء .

وهكذا استراح الشعب من وجهين كريهين من وجوه الاستعمار ممثلين فى الأفاق ديلسبس والنصب الأسترالى .

وما عدا ذلك فقد ظل الشعب متماسكا نبيلا ، لم يعتد على أجنبى واحد من الضيوف الذين يعيشون فى أرضه طالما أنهم لا يطعنون البلاد التى يأكلون خيرها بخناجر الخيانة .

قصص من الجنة

الشهيد عادل زكي مندور :

شاب فى السادسة والعشرين من عمره ممتلىء عزما وحماسا ووطنية ، كامل التدريب لخوض معركة الحياة أو الموت ، رأى العدو يحاصر بلده ويريد أن يذلها فانخرط فى سلك المقاومة الشعبية وخاض معركة «الجبانة» يوم المظلات وأبلى فيها بلاء حسنا ، وحين حاول الأسطول غزو المدينة أخذ يعجم عود الجبهات العديدة فوجد أن جبهة شمال شرق المدينة أو مايسمى بحى الإفرنج فى حاجة إلى تقوية وتدعيم فينطلق إليها « عادل » و يرابط فيها بمدفع رشاش و بندقية من الطراز الروسى وذخيرة ، و ينزل العدو على الساحل بجنوده ودباباته ولا يكاد يتقدم نحو الموقع الذى يحتله « عادل » بمفرده عند التقاء شارعى ابراهيم والسلطان محمد حتى يفتح البطل نيران مدفعه الرشاش و يقاتل وحده فى عناد و إصرار وجنون وضراوة ، و يقع عدد من القتلى من جنود المعتدين، و يظن المهاجمون أن جيشا بأسره يواجههم من هذا الموقع فتبدأ الدبابات تطلق نيرانها من كل صوب و إلى كل ناحية حتى أوقعت أضرارا جسيمة بمبانى المنطقة ... وأخيرا يخر البطل صريعا ، و يسقط المحارب الشجاع شهيدا ، ولكن لا أحد يعلم أنه استشهد ، وتظل جثته ودماؤه يعطران الموقع حتى يكتشف فى اليوم التالى ، ويذهب أصدقاؤه لحمل جثته ، ولكن والده الشيخ الجليل يصر على أن يذهب لحمل جثة ولده ، و يشفق الأصدقاء على الوالد الشيخ من رؤية ولده صريعا ولكنه يمضى فى طريقه ،

ولا يكاد يرى الشهيد حتى ينحنى عليه ، و يظن الأصدقاء أنه قد انحنى على ابنه ليبكيه ، ولـكنه كان يفتش جيوب الشهيد ، وسلاح الشهيد ، ثم لا يلبث أن يرفع يديه إلى السماء و يقول الحمد لله ، لقد استشهد ولدى بطلا ... لقد أطلق آخر رصاصة كانت معه .. أما الشهيد البطل فقد كان ثغره مفترا عن ابتسامة الاستهزاء بالمعتدين ، بل أغلب الظن أنها ابتسامة الفرح برؤيا بشائر الجنة وعطر نسماتها وهو فى الطريق إليها .

إن عادل زكى مندور فى الخالدين ، و إن والده زكى مندور بطل شجاع فلقد خاض أبناؤه الثلاثة المعركة فاستشهد « عادل » وجرح أخواه ... إنها أسرة من الأبطال جديرة بتقدير الوطن .

الشهيد عبد الله البقال :

شاب من شباب هذا الوطن ، من أبناء بور سعيد ، يضرب فى بيداء الحياة سعيا وراء رزقه ، يبيع الزيت والخبز فى حانوته راضيا برزقه الذى يهبه الله إياه ، ويتقدم المعتدون ليضربوا بورسعيد، ليغتصبوا رزق عبدالله و ينهبوا زاده، و يسرقوا طعام أطفاله الصغار و يحمل «عبد الله» البقال مدفعه « البازوكا » الذى تدرب عليه أحسن تدريب ، ويكمن فى طريق الدبابات الزاحفة التى تطلق النار على مواطنيه وتقتل أطفاله وتمتهن أرضه وتحصد من عليها من النساء والعجائز ، ويطلق « عبد الله » مدفعه على الدبابة الأولى فيعطبها و يعوقها ، ثم يتأهب و يتخذ مركزا حصينا و يطلق قذيفة أخرى على الدبابة الثانية فيعطبها ويعوقها ، ويحاول « عبد الله » البطل أن يتخذ مركزا آخر عبر الشارع ليعطل الدبابة الثالثة بين

إعجاب المواطنين ، ولـكنها تتمكن منه وتطلق عليه الرصاص فيخر صريعا فتسارع إليه خوفا منه وتدوسه تحت جنزيرها فتضمخ الأرض الطاهرة بجثته وتعطر التراب الغالى بدمائه ، ويذهب الشاب «عبدالله» البقال إلى جنة الخلد شهيدا خالدا... لقد كان «عبد الله» بطلا .

البطل شوقى خلاف :

المهندس البطل الشهيد ، إن العمل المجيد الذى قام به «شوقى خلاف» لم يحن الوقت لإذاعته بعد ، لأنه سر من أسرار المعركة ، ولا زال الوطن العربى عرضة للاعتداء عليه فلن ييأس العدو ، ولن يـكف عن الطمع فى أرضنا ومالنا وخيراتنا ، ونحن لا نستبعد أن يعاود الـكرة مرة ومرتين ، ولـكن القطار قد فاته ولن يخرج من أى معركة مع العرب إلا بالهزيمة والخزى والعار .

ولما كانت المعركة لاتزال فى حكم المستمرة ، فإننا لانجد من المناسب أن نذيع العمل الإعجازى الذى قام به البطل «شوقى خلاف»

إن العمل الـكبير الذى قام به الشهيد «شوقى خلاف» قد أنقذ الوطن العربى جميعا . لقد كان ضربة قاتلة للحكومتين الانجليزية والفرنسية :

لو كان فى جيش عرابى بطل مثل «شوقى خلاف» لما استطاع الإنجليز أن يحتلوا مصر ولما ابتلينا بهم وباستعمارهم ثلاثة أرباع قرن من الزمان .

ينتهى «شوقى خلاف» من عمليته الحربية الـكبرى ويركب سيارته لأداء مهمة فى مكان آخر خارج بور سعيد فتصيده رصاصات الأعداء عند كوبرى الرسوة ويخر شهيدا حتى يصل إليه البطل «حامد الألفى» ويدفن جثمانه الطاهر فى مكان

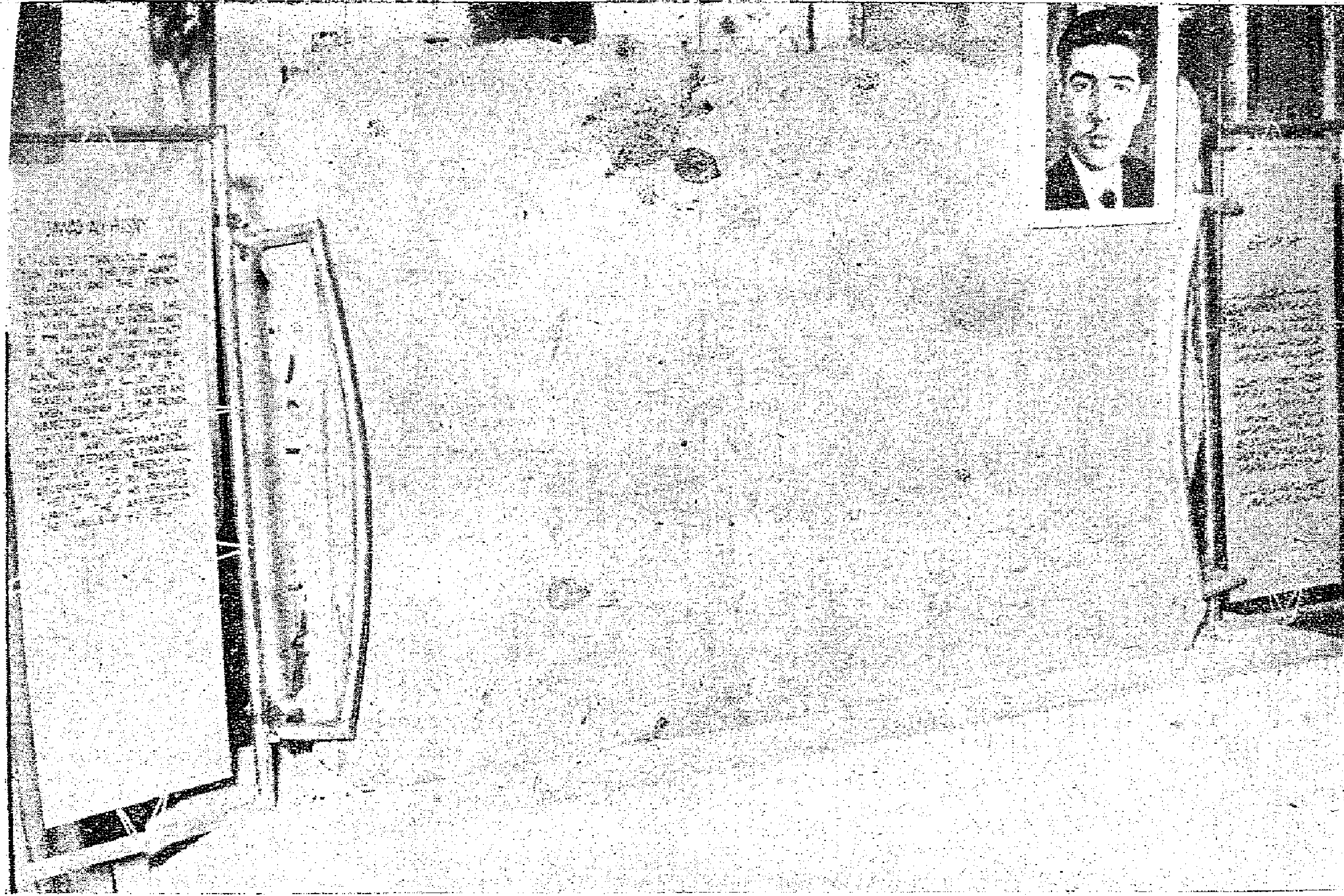
استشهاده ثم ينقله بعد أيام إلى حيث يستريح فى قبره إلى الأبد ابنا بارا من أبناء الوطن العربى ومحاربا خالدا وشهيدا كريما فى جنة الخلد عند رب العالمين .

الشهيد البطل جواد على حسنى :

مثل نادر من أمثلة الشجاعة والوطنية والفداء ، وطراز فذ للفدائى العربى المؤمن بوطنه وأهله ، كان يخوض المعركة الكبرى كقائد فدائيى كتيبة كلية الحقوق فى سينا ضد اليهود المعتدين وأبلى فيها البلاء الحسن ، وخاضها كأحسن ما يخوض الجندى معركة الحياة أو الموت ، دهش جواد حسنى حينما وجد أن الجنود الذين يحاربون جيش مصر ليسوا من اليهود وحدهم ، فلقد اكتشف أن بعض الضباط من القتلى انجليز وأن البعض الآخر فرنسيون ، وإذن لم تكن المعركة التى يخوضها مع إخوانه الجنود والضباط معركة يهودية ، بل كانت معركة يهودية انجليزية فرنسية ، ولكنهم كانوا يسقطون تحت ضغط الجيش المصرى عليهم بالألوف لقد كانت عملية «تنظيف» رائعة يقوم بها الجيش فى أرض المعركة وفى فترة وجيزة ذهبت ريحهم وتبدد شملهم ، ولم يمض وقت طويل حتى تأكد « لجواد »أن ما شاهده بنفسه فى المعركة ومن أنها لم تكن يهودية خالصة حينما علم بالإنذار الإنجليزى الفرنسى الغادر ، لقد أدرك أنها معركة غادرة غير نظيفة ثم صدر الأمر إلى الجيش بالانسحاب حتى يفلت من المصيدة التى نصبت له فى سيناء ، فبدأ الانسحاب مع سريته واتخذ الطريق الساحلى سبيلا لانسحابه ، وكان قد أصيب أثناء المعركة برصاصة فى صدره (أسفل كتفه) لم تسمح ظروف المعركة باستخراجها من جسده . ولم يكن طريق الانسحاب هينا لينا ، فلم يكد يقطع

هو وزملاؤه بضعة كيلو مترات حتى خرجت عليهم من كمين فى الطريق داورية إسرائيلية فاشتبك معها «جواد» ورفاقه فى قتال هائل مرير استمر بضع ساعات وانكشفت الموقعة عن إبادة الداورية اليهودية بأسرها .

ويمضى البطل الجريح الشجاع فى طريقه مع رفاقه على الساحل ميممين وجوههم شطر بور فؤاد ثم بور سعيد ، ولكن سوء الحظ يدفع به إلى الاصطدام بلغم أرضى ينفجر تحته فيمزق ساقيه ، وهنا ينفز الدمع من عينى « جواد » ، « جواد » الشجاع الذى لم يبك يوماً ، لم يبك جواد لأنه أصيب فلقد أصيب قبل ذلك فى صدره ، ولكن كان مبعث بكائه أنه أصبح عالة على إخوانه الضباط يتناوبون حمله فى انسحابهم وسيرهم الطويل ، ويكادون ينجحون فى الوصول إلى العمار وتبدو بور فؤاد على بعد هناك ، فى نهاية الطريق الطويل ، إن أبنيتها البيضاء تلوح لخاطرهم من بعيد ، وأشجارها الباسقة تصافح نظراتهم ، ومن اليسير عليهم بعد ذلك أن يتصلوا بمن يضمد جراح البطل ويهون من آلامه ، ولكن الأمور لا تسير على ما يشتهى الأبطال فتظهر بالقرب منهم داورية فرنسية كاملة التسليح،وكان التعب والجوع والعطش قد أخذ من « جواد » وصحبه كل مأخذ ، وهنا يلتفت « جواد على حسنى » إلى زملائه شارحاً لهم الموقف عارضاً عليهم الحل، إنه عالة عليهم، وتصميمهم على حمله سيوقعهم جميعاً فى قبضة الفرنسيين ليلقوا أسوأ مصير، وإذن فليتركوه خلف ساتر من الارض لكى يحمى انسحابهم بإيمانه ومدفعه ،وتحت إلحاح البطل الفدائى ينسحب زملاؤه وهو يحمى انسحابهم بوابل من النيران فتحها على الداورية الفرنسية ، وكأنه فتح نافذة من جهنم ، ويقع الهرج والمرج فى صفوف الفرنسيين ثم يشددون النكير على مصدر النيران الكثيفة التى



البطل جواد حسني وقد سطر مذكراته وخط سيره بدمه فى معتقله ببور فؤاد — وترى صورته بأعلى اللوحة

ظنوها صادرة من فرقة كاملة ، ثم لا تلبث طلقات البطل أن تخبو وتتوقف بعد معركة استمرت ساعات تمكن خلالها زملاء البطل من الانسحاب والأمان ، لقد كان الحادث ليلة ١٦ / ١٧ نوفمبر ، و يتقدم الجنود الفرنسيون فى حذر نحو مصدر النيران التى توقفت فإذا المفاجأة تعقد ألسنتهم ، لقد فوجئوا ببطل واحد لا بفرقة كما قد توقعوا ، بطل توقف عن ضربهم لإصابته بإغماء لكثرة ما نزفت جروحه من دماء ، و يحملونه أسيراً إلى بور فؤاد و يحاولون استجوابه ولكنه كان أضعف من أن يستجوب لكثرة ما نزف من دماء غالية زكية ، ولكنهم يظنونه قائداً لإحدى الفرق التى خالوها قد التفت حول بور فؤاد لكى تطوقها ، لم يخطر ببالهم أنه منسحب من سيناء ، ولم يحاولوا أن يصدقوه حينما أخبرهم بذلك ، و بدأوا يستعملون معه أبشع وأخس أنواع التعذيب فوق عذابه ، كانوا يكوون جسده بالنار ، وكانوا يدقون المسامير فى جسمه ، منعوا عنه الماء والطعام ، خلعوا بعض أظافره بالكماشات ، أهملوا علاج جراحه ، صنعوا به ما لا يخطر على بال الشيطان من وسائل التعذيب عله يفشى سراً أو يبيح بشىء مما فى صدره ولكنه لم يفعل لأنه بطل عظيم .

وحتى يطلع « جواد حسنى » الأجيال القادمة على قصته فقد رسم وهو فى محبسه خط سيره من سيناء إلى بور فؤاد بدمائه على الحائط — كما يبدو فى الصورة المرافقة — وتوج رسمه بجملة « عاشت مصر حرة » كتبها أيضاً بدمائه .

وأخيراً وحين يئس الفرنسيون من الحصول على معلومات تنفعهم من البطل القعيد الأسير أطلقوا عليه المدافع الرشاشة من الخلف فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٦ ثم حملوا جثته وألقوا بها فى البحر ، ولكن البحر الرحيم يحتفظ بها لبضعة أيام ريثما

ينسحب الغزاة من أرض الوطن ثم يدفعها فى رفق وحنان إلى الشاطىء لكى يعثر بها المواطنون و يتعرفوا على صاحبها البطل الفدائى الفذ .

إن بور فؤاد ستخلد ذكرى البطل بإقامة تمثال له فى أحد ميادينها ، لقد استشهد « جواد حسنى » وذهب فى الخالدين .

الشهيد البطل سعيد ناجى ثريا :

وقصة « سعيد ثريا » البطل الفدائى الانتحارى لا تقل روعة عن قصة شوقى خلاف ، ولا عظمة عن عادل مندور ، ولا مجداً عن جواد حسنى ، لقد كان اليوزباشى سعيد ثريا من ضباطنا القلائل الذى رضعوا الوطنية وطعموها وتذوقوها فهضموها وأصبحت لهم ديناً وعقيدة ، كانت له آراء حربية جريئة رغم حداثة سنه ، كان فى ذكاء رومل وفى حنكة مونتجمرى ووطنية محمد فريد كان مؤمناً بربه ووطنه وعروبته ، كان من المرابطين دائماً على الحدود المصرية اليهودية وكلما شاهد اليهود يحصنون موضعاً آمن بأن هذا الحصن موجه لضربه غداً ، وود لو أوتى من السلطة ما يسمح له بدك هذا الحصن و إبادة من فيه .

ولقد تحقق ما قد توقعه البطل ، فمن هذه الحصون التى بناها اليهود على الحدود اندفعت جيوشهم لغزو الأراضى العربية فى سيناء تنفيذاً للمؤامرة الخسيسة التى رسمها الاستعمار للقضاء على مصر والقومية العربية واسترداد القناة .

ومن عجيب الأقدار أن اليهود قد بدأوا هجومهم فى الوقت الذى كان فيه البطل يقضى أجازة قصيرة بين أهله فى القاهرة وسندنهور (شرقية) ، وما كاد «سعيد» يعلم بالهجوم حتى أصبح كالأسد الأسير يطوى أرض غرفته جيئة وذهابا صائحاً .

جنودى وزملائى ، إنهم يخوضون المعركة وحدهم . و بمختلف الوسائل بذلت المحاولات لـكى يظل البطل فى القاهرة فالمعركة محتاجة إليه فى كل رقعة من الوطن، ولـكنه أصر على الذهاب إلى الجبهة وركب القطار إلى « القنطرة » ، وهناك لم يجد قطاراً يقله إلى موقعه ، فلقد كانت فكرة الانسحاب بدأت تختمر فى رءوس القواد حفاظا على قوات الجيش التى كان قـد نصب له الـكمين فى سيناء . ولـكن « سعيداً » لا ييأس و يحاول أن يصل إلى ميدان المعركه بأية وسيلة ، و يتميز غيظاً وكأنه سيحرم من شرف الأبد ، و يعاود إخوته الـكرة عليه أن ينتظر لـكي يخوض المعركة داخل البلاد مع غيره من زملائه طالما أن وسائل حمله إلى المعركة غير ميسورة ، ولـكنه يستقل سيارة جيب ، و بسرعة جنونية يطوى صحراء سيناء ، وفى لمح البصر يصل إلى موقعه حيث يجد جنوده و إخوانه يخوضون المعركة ببسالة و إصرار ، و يلهب وصول « سعيد » عزائمهم ، إنه قائد الموقع وقائدهم ؛ الموقع الخالد فى تاريخ الجيش المصرى « المحزمة » . .

و يعلن الرئيس جمال عبد الناصر أنه تقرر انسحاب الجيش من سيناء محافظة عليه وحتى يفوّت على الأعداء ما رسموه من خطة لإبادته اللهم إلا بعض الفرق الانتحارية التى ستصمد لـكى تحمى انسحاب الجيش .

ولسنا فى حاجة إلى تفـكير كثير لـكى نستنتج أن «سعيد ناجى ثريا » كان أحد قواد الفرق الانتحارية الذين نذروا حياتهم لحماية جيشهم .

و يطلق البطل « سعيد ثريا » لنفسه العنان و يطلق كل ما فيها من حقد على المعتدين فى شكل ضربات قوية تفرق شملهم وتبعثر أجسادهم وتبدد تجمعاتهم تفتت أشلاءهم .

و يحارب «سعيد » وزملاؤه بعناد وضراوة . وكانت نقطة « المحرمة » تتحكم فى الطريق الرئيسية التى إن وقعت فى يد العدو تمكن من إبادة الجيش المنسحب. و«سعيد ثريا» وزملاؤه يعرفون ذلك فيصمد فى مكانه ومعه أربعة ضباط ملازمين وسريتان من الجنود ، و بهذه القوة الصغيرة المشحونة بالعزم والإيمان يصمد البطل الصغير الكبير و يوقع باليهود أكبر هزيمة حلت بهم فى حرب سيناء ، فيكبدهم أربعة آلاف قتيل من خيرة جنودهم من الفرقة المدرعة ، و يعطل آلاياً كاملا من الدبابات ، يعطب منه ستين دبابة . لقد كان الرجل الواحد من السريتين الخالدتين بألف رجل .

و يظل موقع « المحرمة » بقيادة « سعيد ثريا » محرماً على الأعداء مستعصياً على الجيش الإسرائيلى رغم فداحة الثمن الذى دفعه من أجل الاستيلاء عليه ، و يمضى « سعيد» مستمراً فى خوض المعركة هجوماً ودفاعاً حتى يوم ٤ نوفمبر حيث لا يجد الجيش اليهودى بدا من أن يستعين بالأسطول الفرنسى المرابط على بعد كيلو مترات قليلة لكى يسكته ، إنه الموقع الوحيد الذى لا زال يقاوم . و يرسل الأسطول وابل قنابله الضخمة على الموقع يوماً كاملا حتى يسكته ، و يسكت معه « سعيد » .

إنها قصة بطولة ورجولة و إيثار وفداء ، إنها أشبه بالأساطير و إن « سعيدا » الضابط الصغير الكبير أشبه بأبطال الأساطير الكبار .

و بعد فليست القصة من عندنا وحدنا ففضلا عن الجنود الذين خاضوا المعركة وشهدوها مع سعيد وأتوا لكى يرووها ، فضلا عن هؤلاء فقد استفاضت صفحات الصحف النمساوية المحايدة بهذه القصة وتفاصيلها بين الإعجاب والإكبار .

أما البطل الباسل «سعيد ثريا» فلا يعرف أحد عن مصيره شيئا. هل استشهد ؟ لا أحد يدرى ، فلقد عثر بعد المعركة على جثث الشهداء وليس « سعيد » من بينهم. هل سقط فى الميدان مثخنا بالجراح فوقع أسيرا ؟ لا أحد يدرى لأن اليهود لا يحترمون قوانين الحرب ولا يبلغون عن الأسرى .

ومهما يكن من أمر فإن موقعة « المحرمة » ستعد أبد الدهر من أمجاد الجيش ومفاخره ، وأما «سعيد ناجى ثريا » فسواء أكان قد قضى شهيدا أو كان قد وقع أسيرا سجينا فهو فى مرتبة الشهداء الأبرار ، وهو بعد ذلك فى قافلة الأبطال الخالدين الذين تنحنى لمجدهم الجباه وتنكس لعظمتهم الرءوس والهامات ، فلتمجد الأجيال ذكراه .

الفصل الثالث

الجانب الإنشائي بعد المعركة

الجانب الانشائى

تعويضات خسائر الحرب

لقد صمدت مدينة بورسعيد للمعتدين صمودا أدخلها التاريخ من أرحب الأبواب وأوسعها ، وكانت بموقفها هذا بمثابة الدرع الذى حمى الوطن العربى كله ، والأداة الدافعة إلى الوحدة العربية الخالصة النزيهة كما سبق أن بينا فى صفحات سابقة .

ولقد ضرب أهالى بور سعيد أمثلة رائعة فى التضحية والفداء بما بذلوا من دماء وبما فقدوا من منازل حل بها الدمار والفناء ، و بما سلب من بيوتهم ومتاجرهم من مال ومتاع ، و بما ذاقوا من ألوان الجوع والتعذيب والحرمان . فضلا عن تعففهم عن قبول أية مساعدة من المعتدين من خبز أو طعام ومقاطعتهم لهم مقاطعة كاملة لم يحدث مثلها فى تاريخ الحروب .

إن الجنود الغازية ما دخلت بلدا من البلدان الأوربية فى الحرب الكبرى الماضية أو التى سبقتها إلا ووجدت من المواطنين عددا غير قليل تعاون معهم وقدم لهم المساعدات راضيا أو كارها . أما فى بور سعيد فلم يجد المحتلون من يتفاهم معهم حتى فى فترة توقف إطلاق النار تمهيداً للانسحاب . و إن شخصا واحد حاول أن يعمل معهم كخادم حينما ضاقت به السبل ولم يصبر على الجوع كما صبر غيره من مواطنيه سرعان ماخطفه الأهالى، وأقاموا له محكمة أهلية حكمت عليه بالإعدام ثم أحرقت جثته إمعانا فى تحقيرة وتجسيما لجريمته .

كانت هذه هى الروح العالية التى اتسمت بها نفسيات أهالى بور سعيد ،

فكان لابد والحال كذلك من تعويضهم عن خسائرهم وتضحياتهم وإعادة تخطيط الأحياء التى تهدمت . ولذلك فقد أنشئت وزارة خاصة لشئون بورسعيد تتمتع بصلاحيات واسعة حتى ترأب ما انصدع من أمر المدينة وتعالج ما فسد من مرافقها خلال الاعتداء على أن يكون جهازها من موظفى وزارة الشئون الاجتماعية والعمل وموظفى وزارة الشئون البلدية والقروية .

الحق أنه لم يسبق فى تاريخ الحروب أن عوّض الأفراد عما قد خسروه ، فإذا حدثت تعويضات فإنها كانت تتم فى شكل إصلاحات عامه لامساعدات خاصة . غير أن تعويض أهالى بور سعيد عن خسائرهم كان يحمل أكثر من معنى كريم ، فقد كانت الروح المعنوية للأهالى أثناء المعركة وبعدها من العلو والقوة والسمو والإيثار ما قد جعلها كنزا ثمينا ينبغى تنميته وتزكيته والمحافظة عليه . وإن ترك هؤلاء الأبطال يعانون شظف الحرمان وآلامه لفترة طويلة يخشى معه أن يفقدوا هذه الروح العالية أو جانبا منها ، فكان لابد والحال كذلك أن يعوضوا عن خسائرهم خصوصا وأن الاستعمار لن يلقى سلاحه ،وقد يعاود الكرة من جديد مرة ومرتين

لم يكن الغرض من تعويض بور سعيد عن خسائرها أهالى المدينة وحدهم ، وإنما قصد بالتعويض أن يكون صمام أمان لجميع المدن الأخرى التى لم يصبها العدوان بخسائر مباشرة ، وكأنما قد ألقى فى أسماع مواطنيها أن كل واحدة منها سوف تنال تعويضها عن خسائرها كاملا فيما لو تعرضت للعدوان كما تعرضت بور سعيد ، وإذن فقد كان المقصود بالإضافة إلى المحافظة على الروح العالية لدى سكان بور سعيد المحافظة على الروح العالية أيضا فى جميع أنحاء الجمهورية .

ويضاف إلى ذلك كله العودة بالمدينة سريعا إلى حالتها الطبيعية فتنتعش أحوالها المادية والاقتصادية والسكنية ، ويمسح عنها متاعبها بأياد من الرعاية والسهر والعناية ، خاصة وأنها من أنشط مدن الجمهورية حركة وتجارة ، لموقعها الفريد الذى هيأته لها ظروف وجودها على هامة القناة التى تعتبر شريانا هاما يربط المشرق العتيد بالمغرب البعيد .

جنود ما بعد المعركة :

لم تكد الجيوش المعتدية تنتهى من انسحابها حتى كانت لجنة من رجال وزارة الشئون الاجتماعية والعمل تأخذ طريقها فى سرعة إلى المدينة الدامية ، كانت أول من دخلها من المواطنين ، رائحة الموت فى كل مكان ، والخراب والدمار وآثار الحريق فى كل ركن من أركان المدينة ، وباطن الأرض طافح بما فيه من أرجاس المحتلين ، والرهبة تخيم على أحياء المدينة وهى تلعق جراحها التى لا تزال تدمى نجيعا طاهرا .

كان هؤلاء الرجال بما فى رقابهم من مهمات خطيرة عليهم أن يخططوا لها تمهيدا لتنفيذها ، فى حالة من الرهبة الكبرى لضخامة العمل الذى هم مقدمون عليه ، ولكن نسمة من نسمات الجنة مضمخة بدماء الشهداء هبت عليهم فأنزلت السكينة فى قلوبهم والثقة بأنفسهم والإيمان بعزمهم وما لبثوا أن طوفوا بالمدينة الجريحة ونسوا كل شىء إلا أنهم جاءوا ليصلحوا ما فسد و يرأبوا ما انصدع ووفقوا فى اختيار أماكن العمل وطريقة تنفيذه .

ولم يمض يومان آخران حتى كان قطار خاص يتحرك من العاصمة مع الصباح الباكر يضم جهازا كبيرا من جنود ما بعد المعركة من شباب وزارة الشئون الاجتماعية ، آخذا طريقه فى شوق إلى المدينة الخالدة وقد وطن نفسه للعمل ليل نهار حتى يشعر أنه قد رد بعض الجميل للبلد الذى افتداه . وما أن وصل القطار إلى المدينة مع المساء حتى ابتدأ العمل المتواصل فى نفس الليلة ، ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أن أعضاء هذا الجهاز لاقوا كثيرا من المتاعب فى أيامهم الأولى بالمدينة فكم منهم بات بغير طعام لانعدام الطعام فى المدينة ، وكم منهم آلمه الفراش الخشن والمرقد الجاف .

خطوات عملية التعويض :

ولكنهم كانوا برغم ذلك سعداء مقبلين على العمل إقبال المضحين المؤمنين بما يعملون ، وبسرعة مذهلة وضعت الخطوط الرئيسية لتعويض الأهالى عن خسائرهم ورعايتهم صحيا واجتماعيا وتنظيم استقبال المهاجرين العائدين الذى تركوا المدينة أثناء العدوان .

وقد حصرت أنواع الخسائر فيما يلى :

١ — المبانى .

٢ — المتاجر والمحلات العامة .

٣ — المصانع .

٤ — وسائل النقل البرى .

٥ — وسائل النقل البحرى .

٦ — الأرواح والعجز .

٧ — الزراعة (وتشمل الدواجن والماشية والحيوانات) .

٨ — المنقولات المنزلية .

٩ — المنقولات المختلفة .

١٠— معدات الصيد والشحن والتفريغ .

١١— التعطل عن العمل .

بدأ الجهاز يزاول عمله وكان يحمل معه نماذج من الاستمارات التى تتم بواسطتها عملية التعويض .

أنشأت إدارة التعويضات أربع عشرة وحدة متفرقة فى جميع أنحاء المدينة لتلقى طلبات التعويض يرأس كل وحدة أحد الموظفين المدربين يقوم بتسليم الأهالى الاستمارات الخاصة لكى يكتبوا فيها خسائرهم وحينما يستعيدها منهم يسلمهم إيصالات تفيد الاستلام ذات أرقام مسلسلة ومؤرخة بتاريخ يوم الاستلام .

وتحال هذه الاستمارات فى سرعة إلى جهاز يتولى قراءة أنواع الخسائر فيضيف إليها الاستمارات الخاصة بكل نوع من الخسائر على الترتيب السابق فى السطور السالفة ، ويُخصّص لها ملف خاص ، وتبدأ تأخذ دورها الفعلى فى لجان أربع .

أما اللجنة الأولى فكانت تسمى لجنة البحث ، و يقوم أعضاؤها و بينهم الاخصائيون ببحث ومعاينة الخسائر على الطبيعة ، وكتابة رأيهم فى مكانه من الاستمارات ، ثم تحال الحالة بعد ذلك إلى لجنة الفحص والمراجعة ، وهى مكونة من أخصائيين فنيين لكى تدرس وتراجع وتبدى رأيها ، ثم تحيلها إلى اللجنة الثالثة وتسمى لجنة التعويض وتتكون من قاض وموظف من الشئون الاجتماعية وموظف من محافظة المدينة وتدرس الحالة وتبدى حكمها ، وكثيرا ما كانت لجنة التعويض هذه تستدعى أصحاب الخسائر للمثول أمامها لكى تناقشهم أو تطلب منهم مستندات معينة أو تنتقل إلى مكان الخسارة ، كما كانت تسمح للمحامين بالمرافعة أمامها .

فإذا ما صدر حكم هذه اللجنة أحيلت الاستمارة إلى لجنة التعويضات العليا المكونة من وزيرى الشئون البلدية والقروية والشئون الاجتماعية والعمل لاعتمادها لكى تصبح عملية التعويض نهائية .

وكانت لجان البحث التى بلغت فى وقت ما ٣٢ لجنة تتألف من ١٢٥ مندوبا من مختلف الوزارات ، وكانت كل لجنة تضم أكثر من خبير ، فمثلا كانت لجنة المبانى تضم مهندس مبانى ، ولجنة المتاجر تضم موظفاً من إدارة الشركات بوزارة التجارة ، ولجان النقل البرى والبحرى والشحن والتفريغ تضم مهندسين ميكانيكيين ، ولجنة الأرواح والعجز تضم طبيباً ، ولجنة الزراعة تضم مهندساً زراعيا أو طبيباً بيطرياً وهكذا .

ولقد بلغ عدد طلبات التعويض التى قدمها أهالى بورسعيد ٢٢٠٩٧ اثنين وعشرين ألف وسبعة وتسعين طلبا تحتوى على ٣٣٥٨٥ ثلاث وثلاثين ألف



ملأت الأنقاض شوارع المدينة

وخمسمائة وخمس وثمانين حالة خسائر توزيعها كالآتى :

نوع الخسارة	عدد الحالات
١ — مبانى	٢٨٨٣
٢ — متاجر	٢٦٠٦
٣ — مصانع	٥٠٢
٤ — نقل برى	١٤٣٦
٥ — نقل بحرى	٥٠٦
٦ — شحن وتفريغ	٧٣
٧ — أدوات صيد	١١٣٤
٨ — أرواح وعجز	١٤٠٤
٩ — زراعة ودواجن	٥٣٢
١٠ — منقولات منزلية ومختلفة	٢٠٠١٠
١١ — تعطل	١٤٩٩
	٣٣٥٨٥

وفى حالات خسائر المبانى كان أصحابها يعوضون عنها إذا كانت متهدمة أو متصدعة تصدعا لا يرجى معه إصلاحها ، أما فى حالات التهدمات الجزئية فكانت وزارة الشئون البلدية تقوم بترميمها . وفى مرافق النقل البحرى ومراكب الصيد كانت بلدية المدينة تقوم بانتشالها وإصلاحها ثم تسليمها إلى أصحابها.

أما فى حالات الاستشهاد فكان أهل الشهيد يعوضون بمقدار أجر ألف يوم من آخر مرتب وصل إليه أجر الشهيد ، وإذا كان الشهيد قد ترك أطفالا قصّرا

أو والدين عاجزين عن الكسب فإن الدولة تصرف لهم معاشاً شهرياً دائماً طيلة حياة الوالدين وحتى يبلغ الصغار سن الرشد .

وفى حالات استشهاد الأولاد يصرف للوالدين ٥٠ جنيها عن كل شهيد أقل من خمسة عشرة عاما ، ومائة جنيه لمن زاد عمره عن خمسة عشر عاما ، وفى حالة السيدات يصرف عن الشهيدة نصف ما كان يصرف عن زوجها لو كان الزوج هو الشهيد .

وفى حالات العجز الكلى أو الجزئى يقدر تعويض العجز طبقاً للقانون رقم ٨٩ لسنة ١٩٥٠ بشأن إصابات العمل على النحو الآتى :

فقد الذراع الأيمن إلى الكوع وما فوقه ٧٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪ .

فقد الذراع الأيسر إلى الكوع وما فوقه ٦٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪ .

فقد الذراع الأيمن إلى ما تحت الكوع ٦٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪ .

فقد الساق لغاية الركبة أو ما فوقها ٦٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪ .

فقد الذراع الأيسر إلى ما تحت الكوع ٥٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪ .

فقد الساق إلى ما تحت الركبة ٥٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪ .

فقد حاسة السمع فقداً كلياً مستديماً ٥٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهادده مضافا إليه ٢٠ ٪

فقد عين واحدة ٣٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪

فقد الإبهام ٢٥ ٪ « « « « ٢٠ ٪

فقد جميع أصابع القدم الواحدة ٢٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪

فقد سلامية الإبهام ١٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪

فقد السبابة ١٠ ٪ « « « « « ٢٠ ٪

فقد إصبع القدم الكبير ١٠ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪

فقد إصبع واحد خلاف السبابة ٥ ٪ مما يستحقه فى حالة استشهاده مضافا إليه ٢٠ ٪

ما فات الأهالى من كسب :

ولم يقف الأمر بلجان التعويضات عند صرف تعويضات عن الخسائر المادية والأرواح وحسب ، ولـكن نص قانون التعويضات أيضاً على تقدير ما فات الأفراد والمؤسسات من كسب نتيجة تعطل الأعمال حتى يعود الفرد أو تعود المؤسسة إلى مزاولة نشاطها من جديد ، فـكان التقدير العام للتعويض يشمل الخسائر المادية من تحطيم ومفقودات ، وما فات المؤسسة من كسب خلال مـدة التعطل حتى تعود المؤسسة إلى مزاولة عملها من جديد .

وما دمنا قد أشرنا إلى اللجان المختلفة التى ساهمت فى عملية التعويض ابتداء من تسلم الطلب وفحص الحالة حتى نهاية المرحلة وتقدير التعويض النهائى ، فلا نرى بداً من أن نشير إلى الجهاز الإدارى والمالى الذى ساهم فى العملية بنصيب كبير ، يضاف إلى ذلك جهاز الإحصاء الذى تولاه مجموعة من الشباب الممتاز كان بمثابة « الدينامو » للعمليـة ، يظل ساهراً عاكفاً مساء كل يوم حتى يخرج الإحصائية اليومية لعمليات التعويض .

وهكذا وبهذه البراعة التى قام بها جهاز الدولة فى فترة من الزمن قياسية ، كان ما قدرته اللجان من تعويضات لخسائر أهالى بور سعيد ومؤسساتها قد بلغ حتى ٣٠ يونيه سنة ١٩٥٧ مبلغ ٣٫٥٦٥٫٢٨١ جنيه و ٨٦٥ مليم (ثلاثة ملايين وخمسمائة وستين ألف ومائتين وواحد وثمانين جنيها مصرياً وثمانمائة وخمسة وستين مليما) على النحو الآتى :

نوع الخسارة	عـــدد الحالات			قيمة التعويض النقدى	
	رفض	تعويض عينى	تعويض نقدى	مليم	جنيه
مبانى	٤٤٠	٨٢٤	١٣٥٩	١١١	٣٣٧ر٠٤٠
متـــاجر	٦٧٤	—	٢٨٧٠	٢٢٠	١ر٣١٨ر٤٠٧
مصـــانع	٧٥	—	٣٦٤	٩٥٤	١٦٦ر٨٨٧
نقـــل برى	٢٥٣	—	١١٦٦	٠٤٠	٦٦ر٧٧٣
نقل بحـــرى	٣٠	٢	١٢٢	٨١٠	٦ر٦٧٤
أدوات شحن وتفريغ	٤٦	٤	٢٣٠	٩٠٧	٦٥ر٨٦٣
أدوات صيـــد	٣٩٦	٢٣	٦٧١	—	٣٩ر١٧٤
أرواح وعجز	٤٩٣	—	٩٤٣	٥١٤	٢٥٠ر٦٠٥
زراعة	٢٩٢	—	٢١٨	٢٠٠	١١ر١٢١
منقولات منزلية ومختلفة	٥٠٠١	—	١٤١٢٠	٨٦٨	٩٧٨ر٧٩٨
تعطل	٣٤٤	—	١٠١٨	٢٤١	٣٢٣ر٩٤٤
الجمـــلة	٨٠٤٤	٨٥٣	٢٣٠٨١	٨٦٥	٣ر٥٦٥ر٢٨١

وهذا المبلغ بخلاف مبالغ أخرى وزعت على التجار فى شكل سلف على فترات متقاربة فى بدء العمل لمكافحة البطالة بطريقة فعالة سريعة ، وإحداث بعض الرواج ، وتنشيط التجارة والصناعة والإنتاج ، وقد وزعت هذه السلف البالغ قدرها ستين ألف جنيه مصرى على صغار التجار وأصحاب المهن ، مثل تجار البحر والبقالين والخياطين وأصحاب المقاهى والحذائين والحلاقين وباعة الخردوات والسجائر وأصحاب المخابز وأدوات العمارة ومحلات الراديو والساعات والمطاعم وتجار الأسماك وتجار الخضر والجزارين ومخازن الأدوية واستوديوات التصوير والباعة المتجولين وأصحاب المطابع والمكتبات والمكوجية وأصحاب المخابز ومحلات السيارات والدراجات .

وقد اشترط على التجار الذين نالوا نصيبهم من هذه القروض أن يسددوها على عشرة أقساط تبدأ من أغسطس سنة ١٩٥٧ على أن يبدأوا فى تسديد أول قسط بعد بضعة شهور من استلام القرض .

أما العمال فقد صدرت قوانين تلزم أصحاب الأعمال بأن يدفعوا لهم رواتبهم كاملة عن شهور التعطل ، على أن يتقدم أصحاب الأعمال بعد ذلك بطلب صرفها من إدارة التعويضات بمقتضى استمارات خاصة .

على أن هناك بعض حالات التعويض لمن أصابتهم خسائر خارج بور سعيد كالإسماعيلية والقنطرة والسويس وصحراء سينا ورفح وغزة لم يتم تقديرها حتى طبع هذا الكتاب .

خسائر هيئة قناة السويس

إن ما حل بهيئة قناة السويس من خسائر يعتبر شيئاً فادحاً فلقد ذهبت الحرب بكثير من معداتها وورشها وكراكاتها وقاطراتها فضلا عما فاتها من كسب أو دخل من آخر أكتوبر سنة ١٩٥٦ وهو تاريخ بداية العدوان إلى نهاية مايو سنة ١٩٥٧ وهو تاريخ تطهير القناة بحيث أصبحت صالحة لمرور السفن فيها ، وقد قدرت تعويضات الهيئة بمبلغ ٣٢,١٣٨,٥٧١,٠٧٣ (جنيه، مليم) اثنين وثلاثين مليوناً ومائة وثمانية وثلاثين ألف وخمسمائة وواحدوسبعين جنيهاً مصرياً وثلاث وسبعين مليما على النحو التالى :

١ — ما بحثته لجنة التجارة :

	مليم	جنيه
(ا) الخسائر فى المخازن العمومية	٠٧٢	١٨٤,٤٠٥
(ب) الخسائرفى رسوم العبورحتى نهاية مايو ١٩٥٧	٦٠٠	١٩,٥١٤,٨٦١
(ج) الخسائر الناتجة عن تأخير تنفيذ عمليات تحسين وتوسيع القناة	—	٣,٠٠٠,٠٠٠
(د) مصاريف إعادة تطهير جوانب وقاع القناة	—	٢,٠٠٠,٠٠٠

٢ — ما بحثته لجنة المصانع :

	مليم	جنيه
(ﻫ) خسائر الورش العمومية ببور فؤاد	—	٢,٢٠١,٩٩٥
(و) خسائر مصنع ال B,B,T وورشة اللاسلكى وأجهزة اللاسلكى بالمارينا		٢٥٠,٠٠٠

٣ — ما بحثته لجنة المبانى	مليم	جنيه
(ز) خسائر قسم أول وثانى وثالث	٤٠١	٢٥٢ر٩٠٩
٤ — مابحثته لجنة الشحن والتفريغ		
(ج) الخسائر فى المهمات العائمة الأساسية واللنشات الصغيرة ولنشات المرشدين	٤٠٠	٤ر٧٣٤
الجملة	٠٧٣	٣٢ر١٣٨ر٥٧١

وهكذا تمت أول عملية تعويضات من نوعها فى العالم فى أسرع وقت ممكن و بأبرع طريق مما انتزع الإعجاب من كل من شهدها .

بل إن المفاوضين الإنجليز أنفسهم قد شهدوا بالبراعة الكاملة لجهاز الموظفين الذى قام على عملية التعويض وأثنى على الدقة والأمانة التى قدالتزمت أثناءالبحث والتقدير فضلا عن البعد عن التغالى والشطط فكان فى شهادتهم كل الفضل والفضل — كما يقولون — ما شهدت به الأعداء .

الهجرة والعودة

مهاجرون وأنصار

ليست هجرة أهل بور سعيد هى أول هجرة من نوعها فى الهجرات المقدسة ، فقبل ذلك بمئات من القرون هاجر المؤمنون المسيحيون من ديارهم طلبا للنجاة من الانتقام الوحشى الذى كان يوقعه بهم المستعمرون الرومان ، وبعد ذلك بعدة قرون هاجر المؤمنون بالرسالة المحمدية إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنورة حفاظا على

كيانهم وحياتهم و إبقاء على عقيدتهم واستجماعا لقواهم واستعدادا ليوم النصر ، وقد لقى كل مهاجر سواء فى فجر المسيحية أو مولد الإسلام ألوانا من التكريم فى كل موطن حلت فيه أقدامه الطاهرة ، ثم مالبث أن عاد إلى موطنه الأصلى بعد ذلك يحمل راية النصر والظفر .

إن التاريخ يعيد نفسه بين الحقبة والحقبة ، وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

إن الهجوم على بور سعيد كان هجوما بشعا ، ومن نافلة القول أن نقول إنه كان همجيا وحشيا لم يعترف بقوانين الحروب المتواضع عليها ولم يحترم تقاليدها فأخذ المهاجمون يصبون على المدينة وأهليها جام غضبهم من حمم الطائرات وقنابل الأسطول العمياء التى لاتفرق بين الطفل أوالشيخ أوالمرأة وبين الجندى المحارب، فكثر الشهداء من الأطفال والنساء والشيوخ ، ولم يكن بد إذن من هجرتهم إلى خارج المدينة التى أصبحت كومة من النيران ، وحصنا من العناد فى الدفاع عن العرض والوطن .

خرج المهاجرون إلى شواطىء بحيرة المنزلة يستقلون الزوارق الشراعية بحثا عن النجاة وطلبا لشاطىء الأمان لكى تخلو المدينة للمحاربين الشجعان من أبنائهم وآبائهم وأزواجهم ، ولكن نيران ومدافع الطائرات كانت لا تلبث أن تحاول افتراس هؤلاء العزل الضعفاء فقضى منهم شهيدا من قضى ونجا منهم من نجا حتى وصلوا إلى بعض المهاجر .

لقد أصبحت كل بلدة أو قرية وصلوا إليها « يثرب » جديدة تحتفى بهم وتهلل لهم وتنشد لهم الأناشيد الحماسية والأهازيج الوطنية ، إنهم كانوا كأهل يثرب

حينما استقبلوا المهاجرين من المؤمنين وهم ينشدون أعذب الأناشيد ويرددون أجمل الألحان .

وهكذا وجد المهاجرون الماجدون من خوفهم أمنا ، ومن جوعهم شبعا ، ومن جروحهم بلسما ، ومن غربتهم سكنا ، ومن كربتهم شفاء ، ومن شهدائهم أهلا .

لقد فتحت لهم البيوت ترحب بمقدمهم وتأويهم فى إيثار جدير أن يحمله التاريخ ما عاش التاريخ .

ولكن لم يكن هذا كل شىء فالبيوت مهما كثرت وتعددت غير قادرة على استيعاب عشرات الآلاف من المهاجرين وإنما كان هناك جهاز حكومى منظم ينتظرهم ، لقد اثبتت وزارة الشئون الاجتماعية وجودها بمهارة فائقة ، لقد كانت أعدت للأمر عدته ، وكانت تعلم بفراستها المناطق التى سيصل إليها المهاجرون ، فأعدت لهم المدارس فى مختلف المدن والقرى دورا للاستقبال والإقامة ، وصرفت لهم الكساء والغطاء والغذاء والعلاج والدواء ، وكان يصرف لكل أسرة يوميا مبلغا من المال بواقع عشرة قروش لكل فرد حتى تنجلى المحنة التى خرج منها كل مواطن أكثر ما يكون أنصهارا وانتصارا ، وهكذا كشفت محنة المهاجرين عن بعض نواحى الأصالة والفداء والإيثار ، وجوانب رائعة من أخلاق هذا الشعب العربى الكريم .

العودة من المهاجر :

كان أمرا طبيعيا أن تنتصر سنة الله الخالدة ، وأن ينهزم المعتدى على الديار والوطن ، وأن يعود من حيث أتى يجرر أذيال الخيبة والفشل تشيعه اللعنات من

كل مكان فى الأرض ، وكان أمرا طبيعيا أن يعود المهاجر إلى وطنه عزيزا كريما ، ألم يعد المهاجرون فى فجر الرسالة إلى مكة ظافرين ، ألم يعد العرب الذين أخرجهم الصليبيون إلى قراهم آمنين؟ و إذن وتطبيقا لسنة الله الخالدة كان لابد للمهاجرين من أهالى بور سعيد أن يعودوا إلى مدينتهم سالمين ظافرين آمنين ، فعادوا كما عاد كل المهاجرين من قبل على مدى التاريخ عبر أزمانه ، وكما سيعود عرب فلسطين إلى ديارهم مهما شدد عليهم النكير ، ومهما سلطت عليهم أساليب الابادة والقتل والاستئصال .

ولكن العودة إلى بور سعيد لم تكن سهلة هينة ، فالمدينة مدمرة تدميراً كبيراً ، وكثير من البيوت قد هدمت بفعل القنابل ، والمرافق العامة معطلة ، ومجارى المدينة تطفح فى الشوارع ، والحالة الصحية بفعل المعتدين تنذر بشر مستطير ، ووسائل التموين غير منتظمة ، وميادين الأعمال متوقفة عن النشاط ، و إن عودة المهاجرين — إن لم تتم بشكل منظم مرتب — ستؤدى إلى كارثة صحية واجتماعية ، وهنا كانت وزارة الشئون الاجتماعية قد أعدت للأمر عدته فأستصدرت قراراً بجعل بور سعيد مدينة مغلقة لا يدخل إليها أحد إلا بتصريح منها حتى تتم العودة على دفعات منتظمة ، فبدأت تعد القطارات التى تنقل المهاجرين من مهاجرهم المختلفة التى امتدت من دمياط شمالا حتى قنا وسوهاج جنوباً وأخذت القطارات تصل إلى المدينة بمعدل ثلاثة قطارات يومياً تضم جميعها ثلاثة آلاف مهاجر كل يوم .

المعسكرات تستقبل الوافدين

أنشأت وزارة الشئون معسكرات لاستقبال المهاجرين الوافدين ، وأحد هذه المعسكرات سمى معسكر الاستقبال ، فلا يكاد يصل قطار من قطارات الوافدين حتى يستقبله جهاز من رجال الشئون الاجتماعية أكرم استقبال مزودا ببحث اجتماعى لحالة كل أسرة كان قد أعد لها فى المهجر ، فإذا كان المهاجر من أصحاب المنازل القليلة التى سلمت من قنابل المعتدين أحيل إلى منزله وقد زود بمبلغ مناسب من المال يساعده على الاستقرار فى حياته .

وأما الأسر التى هدمت منازلها ودمرت بيوتها — وهؤلاء هم الكثرة الغالبة — فإنها تستقر فى أحد معسكرات الضيافة التى أعدتها وزارة الشئون الاجتماعية بمساعدة وزارة الحربية فى ملعب « الجولف » الكبير الملاصق للمدينة .

ولم تكن المعسكرات كلها من المبانى وإنما كانت خياما استحضرت من مخازن الجيش على جانب السرعة ونصبت فى زمن خيالى من الهمة .

ولما كانت المعسكرات لاتتسع لأكثر من سبعة آلاف مواطن فقد استعانت وزارة شئون بورسعيد بعدد كبير من مدارس المدينة اتخذت منها مساكن مؤقتة لبقية الأسر التى لم تستوعبها معسكرات الإقامة .

وبلغ عدد معسكرات الإقامة خمسة معسكرات هى معسكر ناصر ومعسكر عمر بن الخطاب ومعسكر الأنصار وهذه للأسر ، ومعسكر الزهراء للسيدات الأرامل والفتيات اللاتى فقدن من يعولهن ، ومعسكر خالد بن الوليد للعزاب .

وقد ساهم فى إنشاء هذه المعسكرات والخدمة فيها مجموعة كبيرة من المواطنين

من مختلف الطبقات من خارج بور سعيد من طلبة وطالبات ومدرسين ومحامين ومهندسين ومستشارين وأساتذة جامعات ، فكنت ترى المستشار بمحكمة الاستئناف وهو يحمل على كتفه أكياس الرمل فى حماسة ورضى أو يمسك بعامود الخيمة يساهم فى إقامتها لكى تستقر فيها أسرة من بنى وطنه الذين دفعوا ضريبة الدم والحرمان .

ولا يمكن إهمال الجهد الكبير الذى قامت به طالبات المعهد العالى للتربية الرياضية تحت قيادة عميدته ومدرساته فقد كن ينتشرن فى أصقاع المعسكرات وجوانبها كأنهن ملائكة الرحمة يؤدين من الأعمال أقساها وأكثرها إنسانية ويشرفن على النظافة العامة ومساعدة الضعفاء ومواساة المرضى والعناية بالأطفال ورفع الروح المعنوية والمساعدة فى طهى الطعام وتقديمه وتوزيع الهدايا التى كن يحضرنها للأهالى حتى يبعثن فى نفوسهم روح الأمن والطمأنينة .

هذا فضلا عن فرقة الخدمات العامة للشبان التى قامت بمجهود عظيم من سهر على إقامة الخيام وإصلاحها فى حالة سقوطها نتيجة للرياح أو الأمطار ، والعمل فى المكاتب الرئيسية ، والمساعدة فى العيادة الخارجية وأعمال التعفير ، ونقل المهمات من المخازن إلى المعسكرات ، والمساهمة فى استقبال الأهالى والسهر على الحراسة ليلا .

يضاف إلى ذلك كله نظام المضيفات من المتطوعات من فتيات الأسر والمعاهد العليا والجامعات وكان عددهن يقارب مائة وخمسين مضيفة .

لقد أصبحت المعسكرات مع هذا النظام الفذ بمثابة مدينة حقيقية ، يخرج رب الأسرة من خيمته فى الصباح ليجد وسائل الانتقال ميسرة أمامه حيث

يستقلها إلى عمله ، فإذا ما انتهى النهار عاد إلى خيمته آمنا مطمئناً وهو أكثر ما يكون عزماً و إيماناً ووطنية .

ولم يكن العزم والتصميم خاصاً بالرجال وحدهم بل كان النساء والأطفال لا يقلون بدورهم عزماً و بطولة .

إنى لا أنسى أبداً ذلك البطل الصغير الذى لا يتعدى عمره تسع سنوات بأى حال من الأحوال ، رأيته فى الصباح الباكر يخرج من خيمته فى معسكر الزهراء بهى الطلعة طاهر الروح ثابت الجنان يسير بخطوات جادة إلى الأمام وقد تأبط كتبه بيمينه ، ولم أحاول أن أترك الفرصة تفلت منى لمحادثة هـــذا الابن الجدّ فسألته عن اسمه فأجاب فى هدوء وثبات وعزم ، وسألته عن مدرسته التى يتوجه إليها فأجاب فى هدوء وثبات و بيان ، ثم سألته عن أمنيته فى الحيــاة حينما يكبر فقال على الفور : أريد أن أكون جندياً لــكى أثأر لأبى الشهيد الذى قتله المعتدون وحرمونى حبه وحنانه ، ولم استطع أن أدفع دمعة انحدرت سريعاً ، أما هو ، ذلك الطفل العظيم فقد مضى جاداً إلى مدرسته يستعجل الأيام والسنين لــكى يكبر و يأخذ بثأر أبيه .

إدارة المعسكرات :

كان كل معسكر يضم مجموعة من شباب و زارة الشئون الاجتماعية لإدارة شئونه ، غير أن واحداً منهم لم يشعر يوماً أنه موظف أو أنه يؤدى عملا حكومياً و إنما كانوا يشعرون وكأنهم يؤدون عملا إنسانياً وطنياً مقدساً ، فــكثير منهم لم يكونوا يستطيعون أن يغمض لهم جفن لعدة أيام وليال ، إن مهمتهم خطيرة ، و إن

هذا العدد الضخم من سكان المعسكر لا بد من الحفاظ عليهم وتوفير أسباب الراحة لهم ، إنه مدينة كبيرة ، ولكل مدينة مشاكلها حتى ولو كانت جمهورية أفلاطون ومن هنا يمكن استشعار مدى الجهد العظيم الذى بذله هؤلاء المشرفون حتى تهيأ المعسكر وساكنيه أسباب الراحة والهدوء والاطمئنان، لقد عاش الموظف الحكومى مع المتطوع جنباً إلى جنب متعاونين متفاهمين مضحين براحتهم فى سبيل إسعاد هؤلاء الذين فدوا القومية العربية وحدهم ووقفوا أو شاءت لهم ظروفهم أن يقفوا فى خط النار الأول .

إن هذه الألوف العشرة تحتاج إلى لباس وغطاء فقدمت لهم إدارة المعسكرات ما يحتاجون مما استحضرته لهم من أموال الدولة أو هدايا الدول الصديقة كالهند وروسيا والصين .

و إنهم محتاجون إلى الطعام ثلاث مرات يوميا ، و إطعام عشرة آلاف نفس ثلاث مرات يوميا ليس بالأمر الهين اليسير ، ومع ذلك فقد سارت عملية التغذية بنجاح منقطع النظير طبقا لبطاقات معينة بحيث تختلف بطاقة كل معسكر من حيث اللون عن بطاقة المعسكر الآخر .

وقد رغب الأهلين فى أن يسمح لهم أن يتولوا طهى طعامهم على طريقتهم الخاصة على أن تصرف لهم إدارة المعسكرات ثمن ما يتناولون من وجبات ، غير أن الإدارة رفضت ذلك ، لأنها كانت تهدف إلى تقديم وجبات كاملة كافية حتى ترفع المستوى الصحى للمقيمين ، وحتى لا تتعدد عملية الطهى فى كل خيمة من خيم المعسكر مما يمكن أن يؤدى إلى بعض الأخطار .

أما الإشراف الصحى على المعسكرات فكان أمراً هاماً ، وأى تساهل فيه قد يؤدى إلى شر مستطير ، ولذلك فقد جرت الإدارة الصحية على نظام دقيق من

فحص النزلاء وعلاج المرضى ، وعزل من تستدعى حالاتهم العزل ، وتحصين المقيمين ضد الجدرى والتيفود والإشراف الصحى على الطعام قبل طهيه و بعده ، هذا فضلا عن مداومة تعفير المعسكرات بالمساحيق القاتلة للحشرات .

وهكذا أمكن المحافظة على صحة الآلاف من سكان المعسكرات بفضل يقظة الجهاز الصحى الذى أسندت إليه عملية الرعاية الصحية بالمعسكرات .

الترفيه :

إن مثل هذا العدد الضخم الذى يحيا حياة مؤقتة غير طبيعية ، لابد أن يتسلل الملل إلى نفس أفراده أو أن تمر عليهم فترات من التفكير فى الماضى القريب حيث كانوا يعيشون فى بيوتهم الخاصة بهم ، ثم يقارنون بين حالتهم تلك وحالهم اليوم وقد جنت عليهم أطماع المستعمرين فحرموهم مساكنهم الأمر الذى اضطرهم أن يعيشوا فى الخيام التى لم يألفوا العيش فيها .

لقد تنبه المشرفون على المعسكرات إلى ذلك كله فسارعوا من أول يوم إلى العمل على الترفيه عن هؤلاء النزلاء الكرام ، فأقيمت محطة إذاعة محلية خاصة بالمعسكر تذاع منها بالإضافة إلى النشرات والتعليمات ، الأغانى والأناشيد الوطنية والموسيقى .

كما أن إدارة المعسكر كانت ترتب عمل حفلات غنائية لكبار المطربين أو تمثيلية لفرق التمثيل المختلفة التى تفد من العاصمة خصيصاً للترفيه عن نزلاء المعسكرات تبرعا منها و بغير أجر ، وكان يراعى أن تكون أكثر فرق التمثيل ممن تقدم تمثيليات وطنية أو مشاهد فكاهية لرفع الروح المعنوية من ناحية وللتسرية والترفيه والإضحاك من جانب آخر .

التدريب المهنى :

لم يكن من الميسور لكل مواطن عاد إلى بورسعيد من مهجره أن يجد عملا فى انتظاره ، حتى أن عددا غير قليل من أهالى بورسعيد فضلوا البقاء فى مهاجرهم حيث طابت لهم الحياة واستقاموا فى أعمال توفروا عليها فيسرت لهم من الربح ما جعلهم يفضلون حياتهم الجديدة فى بيئتهم الجديدة .

أما هؤلاء الذين عادوا إلى مدينتهم العزيزة وانقطعت بهم سبل العمل ، فإن الأمر بالنسبة إليهم كان يحتاج إلى الكثير من التفكير والتبصر ، وهنا ظهرت فكرة استخدام هذا الفراغ فى أعمال مهنية تعود عليهم بالربح وتساهم إلى حد ما فى سبيل استقرارهم الاقتصادى ورفع مستواهم ، بل وزيادة الدخل العام للمدينة .

ولكن أى الأعمال أو الصناعات يمكن مزاولتها بحيث يسهل بيعها وتروج تجارتها ؟

إن لبورسعيد موقعاً خاصاً ، فهى ممر هام يربط الشرق بالغرب ولذلك فقد اتجهت النية فوراً إلى صنع بعض التحف التى تتسم بالطابع المصرى ولكن فى بساطة وسهولة مما يرغب السائح فى الإقبال عليها ، فكانت أهم الصناعات التى وقع عليها الاختيار الجلود والكليم والنجارة والصدف والسمكرة ومنتجات القش « السمار » مثل الحصير والستائر ، وهذه المصنوعات خاصة بالرجال .

وهناك مصنوعات أخرى كانت من نصيب النساء وهى شباك الصيد والتريكو وأشغال الإبرة والتفصيل والحياكة والنسيج والسجاد .

وقد أفرد مكان كبير بالمعسكر لهذه الأعمال وتولت الحكومة شراء الآلات الخاصة وهيأت الموظفين الفنيين الذين قاموا بتدريب الأهالى ، وسرعان ما أتت الفكرة ثمارها وخرجت بعض الصناعات الممتازة إلى حيز الوجود وأقيمت بعض

المعارض الناجحة وبذلك أمكن سد ركن من أركان الفراغ والمساهمة بقدر ما فى زيادة الدخل العام لبعض أسر العمال من أهالى بورسعيد .

ولم يكن أمراً سهلا أن تنجح مثل هذه التجربة بسرعة كتلك التى بجحت بها ، لولا أن المدربين الذين عهد إليهم بالتجربة قد تفانوا فى عملهم واعتبروا أنفسهم مجندين لعمل نبيل لا يقل عن خوض معركة حربية كتلك التى خاضها الأهالى من قبل فى استماتة و بسالة وفداء .

الإسكان :

لم يكن أمراً طبيعياً أن يظل هؤلاء المهاجرون الذين دمرت مساكنهم عن آخرها وأحرقت حتى صارت أثراً بعد عين، نقول إنه لم يكن من الطبيعى أن يظلوا فى حياتهم تلك غير المستقرة تلفحهم الشمس بنارها وجحيمها صيفاً وتلعب بهم الأنواء و يأكلهم البرد وتشتتهم الأمطار شتاء ، بل كان لابد من إسكانهم بيوتا .

كانت وزارة شئون بورسعيد قد أقامت مدينة كبيرة على أحدث طراز مكان الأحياء التى هدمت فى شكل مجموعات سكنية تحوى كل مجموعة عدة عمارات نظيفة وتشتمل كل عمارة على عدة شقق ، وكانت هذه الأسر قد بحثت حالاتها بحثا دقيقا سواء فى المهجر أو فى المعسكر بحيث عرف عنها كل شىء من حيث العدد والدخل وأعمار الأفراد وحالات الاستشهاد ، الأمر الذى سهل مهمة اختيار المسكن الملائم لها مع تزويده بالجديد النظيف من الأثاث ، ومراعاة الإيجار الشهرى المناسب الذى لا يرهق الأسرة من هذا المستوى المتواضع .

وهكذا لم يمض وقت طويل أو بعبارة أدق لم تمض شهور ستة على الاعتداء وهدم المنازل حتى كان لكل أسرة منزل جديد أحدث وأنظف من ذلك الذى افتقدته ، ورب ضارة نافعة .

التعمير

حي المناخين :

رغم أن بورسعيد تعتبر مدينة حديثة الإنشاء ومن المفروض أن تكون أحياؤها جميلة منسقة ، إلا أنها كانت فى الواقع تئن وتصرخ من حى كبير كامل بها يشوهها ويسيء إلى جمالها وسمعتها بين سائر مدن حوض البحر الأبيض المتوسط وهو حى « المناخين » . وهذا الحى — كما يتبين من اسمه — يتكون من جزءين المناخ القديم والمناخ الجديد . ووصف المناخين بأن أحدهما قديم والآخر جديد ليس معناه أن المناخ الجديد يختلف كثيرا عن القديم ، فالاثنان عبارة عن أكشاك من الخشب ليس فيها ماء ولا كهرباء ولا «مجارى» ، وليس بينهما خطوط تنظيم أو علامة من علامات التنسيق .

وكلمة المناخ معناها المكان الذى تنيخ فيه الإبل التى كانت تستعمل فى بورسعيد بكثرة فى سنواتها الأولى فى حمل الماء ونقله إلى الشاربين . كانت تلك المنطقة مناخاً للإبل وموقفاً فسيحاً لها ، فأنشأ أصحاب الإبل مظلات واصطبلات لدوابهم، وأقاموا لأنفسهم بجوارها أكشاكا خشبية لسكناهم ، ثم تبعهم فى هذا العمل كل من كانت تصل يداه لبضعة ألواح من الخشب وقليل من المسامير .

بهذه الألواح البسيطة كانت تقام المساكن تباعا فى تلك المنطقة النائية عن بورسعيد

بغير نظام أو تخطيط هندسى ، بل كانت تقام الأكشاك خبط عشواء ، مبعثرة هنا وهناك ، على هوى أصحابها ومزاجهم ، بغير إشراف من جهة مسئولة و بدون ترخيص من مصلحة حكومية أو من شركة «القنال» ، لأن المناخ كان يعتبر فى ذلك الوقت خارج بورسعيد وجزءاً من صميم تلك الرمال المحرقة والأرض الجرداء الممتدة إلى الغرب لبضعة أميال ، أما بورسعيد المدينة فكانت وقتئذ مجرد مساحات ضئيلة من الأراضى المطلة على الميناء .

كل ذلك بدأ بسرعة فى سنة ١٨٥٤ عندما قرر ديليسبس إنشاء ميناء على البحر الأبيض يصل السفن بالقناة التى سوف تقام و يكون هذا الميناء فى خدمتها أثناء رحلاتها وهى متجهة للشرق أو عائدة منه . ولا عجب فى هذا فقد كان مهندسو الشركة أنفسهم و كبار موظفيها يجدون صعو بة كبيرة فى الحصول على سكن ملائم لهم لأن المنطقة كانت بعيدة عن العمران وغير مرتبطة بسائر مدن القطر بوسائل المواصلات، ولذلك كانت الشركة تستجلب كل شيء مما يلزمها من أدوات ومهمات من فرنسا والبلاد الأوربية بوساطة السفن إلى حيث يقام هذا الميناء الجديد الذى أصبح فيما بعد بورسعيد . ومن بين هذه المهمات كان بند المنازل يحتل أهمية خاصة ، المنازل الخشب الجاهزة الكاملة التأثيث التى كانت تصل بالسفن مفككة وتجمع بسهولة فى وقت قصير فى منطقة العمل ، وتصبح بعد ذلك منازل جميلة أنيقة مريحة .

أما الفعلة والعمال الذين كان يوردهم المقاولون للعمل فى الحفر فلم تكن عندهم إمكانيات إلا ليعيشوا الكفاف على هامش الحياة . ولم يكن ممكنا لهم بطبيعة الحال استجلاب المنازل الكاملة من فرنسا كما كان يفعل «السادة» موظفو الشركة ! ولم يكن ممكنا لهم كذلك استجلابها من داخل البلاد من المطرية ودمياط مثلا، لأن

تلك المنازل الجاهزة كانت شيئا لا يعرفه الناس فى هذه المدن، أولئك الذين اعتادوا أن يقيموا منازلهم من الطوب الأحمر أو الطوب الأخضر ، كما لم يكن ممكنا بأية حال نقل مواد البناء إلى هذه المنطقة لأن الشىء الوحيد الذى كان ينقل اليها هو الماء والقوت ، وفوق كل هذا فلم تكن بهذه المنطقة أية مواد تصلح للاستعمال فى البناء كالأحجار مثلا ، فضلا عن ضعف إمكانيات فئات العمال والفعلة الذين نتحدث عنهم والذين ما كانوا ليستطيعوا انشاء مسكن واحد لائق لو اتحدت جهودهم وتجمعت كل دخولهم، لأنهم لم يكونوا سوى أشباح هزيلة تتحرك فى تلك المنطقة وقد روضوا على شىء واحد : هو حمل الزنبيل وضرب الأرض بالمعول .

ولكن كان من الممكن بطبيعة الحال أن تقوم الشركة بإنشاء مساكن لهؤلاء العمال الذين لا حول لهم ولا قوة ، فهم عمالها الذين جاءوا لخدمتها وتحقيق مشروعاتها ... ولكن الشركة كما سبق أن بينا كانت تبنى قناتها وموانيها بعظام المصريين ومن دمائهم ولا تشعر نحوهم بأى التزام أدبى يجعلها تعاملهم كآدميين ، فهذا الشعور كان مسألة ثانوية بالنسبة للشركة التى كانت تريد مجرد مخلوقات لها سواعد تحمل الزنابيل وتضرب الأرض بالمعاول . . . فلم يبق إذن أمام هؤلاء العمال والفعلة إلا أن يقيموا مساكن لأنفسهم يدخلوها بالليل ليناموا فيها بعد عناء يوم طويل شاق ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا تحت سقف — أى سقف — وفى حضن جدران مهما كان شكل ونوع الجدران . . . فكان « المناخين » .

كان هذا الحى الكبير ينمو بسرعة هائلة ، أسرع من نمو المدينة ذاتها ، لأن العمارات السكنية بالمدينة كانت تقام بمعدل أقل بكثير من معدل الزيادة فى

تعداد سكانها وخاصة أن النازحين اليها ظلوا يفدون من المدن والقرى المجاورة، ومن الصعيد ، فى أفواج كبيرة سعياً وراء العمل وبحثاً عن الرزق الوفير والكسب العظيم الذى كان يهبط على المدينة من البحر بغير حساب . وقد اعتاد أغلب النازحين إلى بور سعيد ألا يبحثوا عن فنادق لأنها ، كانت خالية منها . كما اعتادوا ألا يطلبوا مساكن فى عمارات سكنية ، وإنما كانوا يتوجهون إلى المناخين بمجرد وصولهم إلى المدينة لاستئجار غرفة فى بيت خشبى صغير ، غرفة على السطوح ، أو غرفة على منسوب الأرض أو تحت منسوب الأرض كالجحر الكبير بإيجار شهرى يتراوح من ٢٥ قرشاً إلى ١٠٠ قرش . ولقد جاء وقت كان النازحون إلى بور سعيد ، بمجرد دخولهم المدينة ، يحطون رحالهم الخفيفة ومتاعهم الذى يحملونه فى أقفاص وأكياس محدودات على قطعة أرض فضاء بالمناخين ويقيمون عليها فى ساعات قليلة بيتاً من الخشب أو الصفيح هو فى الواقع مجرد جدران تحمل سقفاً يأوون تحته ، ويصبح هذا البيت ملكهم ، ويصبحون هم محكرين . وكان المفهوم الشائع لهذه الكلمة أن المحكر هو مالك الأرض ، والدليل على ذلك — فى اعتقاد الناس — هو تلك العوايد التى يدفعونها لمصلحة الأملاك .

ظل هذا الخطر ينمو ويستفحل حتى أفلت الزمام من أيدى المسئولين ، وأصبحوا لا يستطيعون أن يحركوا ساكناً، فلقد قام حى «المناخين» الكبير فى سرعة وبغير ضجيج أو عجيج ، قام بدقات من الشواكيش على رؤوس المسامير الصغيرة وبتجميع ألواح الخشب بأى شكل ، قام الحى الكبير من غير تدخل الجهات الحكومية أو أية جهة مسئولة ... لم تدرج له اعتمادات فى ميزانية ... لم يشترك فى

بنائه إصبع مقاول أو مهندس ... لم يكن الحى من أوله إلى آخره سوى أربعة خطوط على خريطة مدينة بور سعيد ، هى الخطوط التى تحده من شماله وجنوبه ومن الشرق والغرب ... بل أعجب من هـذا كله أن المجالس المتعاقبة لبلدية بور سعيد لم تكن تحس بوجود حى « المناخين » رغم أن أغلب هذه المجالس كان مكوناً من أعضاء من صميم الشعب ، وهكذا أصبح الحى آهلا بخمسة وأربعين ألف مواطن يقيمون فى بيوت من الخشب والصفيح . .

محاولات لتخطيط الحى :

ثم دخل « المناخين » مضمار السياسة ، وهذا أمر طبيعى لأن وضعيته كانت مادة دسمة يطعم بها المرشحون المتعاقبون لمجلس النواب عقول الناخبين ويشبعون بها أحلامهم بغير شك إلى حين قصير ينتهى بانتهاء المعركة الانتخابية ، فظل سكان « المناخين » يتلقون الوعود بتملك الأرض رسمياً ، وأنه سوف يصرح لهم بإقامة مبان ثابتة عليها ، وقيل لهم عشرات المرات من فوق منصات الخطابة إن المنطقة ستشقها الشوارع العريضة وستزينها الحدائق الجميلة وسوف يجرى فيها الماء والنور والحياة ! وتنتهى المعركة أو زيارة الكبير المسئول ، وتنتهى خطب « المناخين » ويبتلع البحر هتافات المواطنين الآملين الفرحين ، وتحمل الرياح الشرقية تصفيقهم الحاد عبر بحيرة المنزلة إلى الجميل ثم دمياط ومنها إلى مرسى مطروح حيث يتحلل كل شىء ، الوعود والهتافات والآمال ، ويذوب كل ذلك فى الهواء الطائر إلى الغرب بعيداً عن القطر المصرى . ولكن « المناخين » يبقى كما هو ، لا يتغير ولا يتبدل ولا يهتم بأمره إنسان .

ثم جاءت سنة ١٩٤٨ ، وكان الوعى بدأ ينتفض وأخذ الناس يشعرون بحقوقهم ، وعلت أصوات قوية تهز المسئولين وتدفعهم إلى التفكير جدياً فى تنفيذ المشروع الكبير ، مشروع إعادة بناء « المناخين » الذى كان يطلق عليه « مشروع المناخين » . وفعلا رصدت الحكومة وقتئذ مبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات لتنفيذ المشروع ، ولكن قامت حرب فلسطين فوقف المشروع وقفة جامدة لم يتحرك بعدها إلا فى سنة ١٩٥٥

فى تلك السنة كان يدير بلدية بور سعيد مهندس قدير ومواطن مخلص اسمه « توفيق الديب » ، جاء هذا المهندس إلى بورسعيد وفى صدره حب كبير لهذه المدينة ، لأنها قطعة من مصر ، وهو يحب مصر وكل قطعة مباركة منها ... فهم الرجل بعد وصوله بور سعيد بأسابيع قليلة أن هذه المدينة يمكن جعلها من أجمل مدن حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفهم كذلك أن أهم مشروع تحتاجه المدينة ويسير بها نحو هذا الهدف السامى هو تنفيذ مشروع « المناخين » ، فقرر أن يخوض المعركة ، نعم المعركة ، لأن « المناخين » أصبح مليئاً بالحصون والقلاع التى تقف أمام الإصلاح والأفكار التقدمية ، فقد أصبحت تتحكم فيه فئة قوية من أصحاب البيوت التى تستغله كاستغلال المرابين لضحاياهم ، لأن بيوتهم كانت تدر عليهم أربعين وخمسين فى المائة من تكاليفها ، لا لارتفاع الإيجارات وإنما لكثرة الغرف الصغيرة غير الصحية التى كانت تحشر حشراً داخل هذه البيوت المتهالكة.

لم يكن أهل « المناخين » كلهم من تلك الفئة التى تستغل بيوتها وتستغل الناس هذا الاستغلال الفاحش ، بل كان من بينهم ملاك كرماء يسكنون ملكهم الخاص مع عائلاتهم الكبيرة ويتلهفون على مشروع المناخين ، أو أى

مشروع آخر يجعل هذا الحى نظيفاً صحياً فيه شوارع وخطوط تنظيم ومبان ثابتة يدخلها الماء والمجارى والكهرباء . بل قد يعجب المرء عندما يعلم أن بعض هؤلاء الملاك أقاموا بيوتهم من الطوب وكسوها من الخارج بالخشب لكى يتمشوا مع القانون الذى لا يسمح بإقامة مبان ثابتة فى تلك المنطقة .

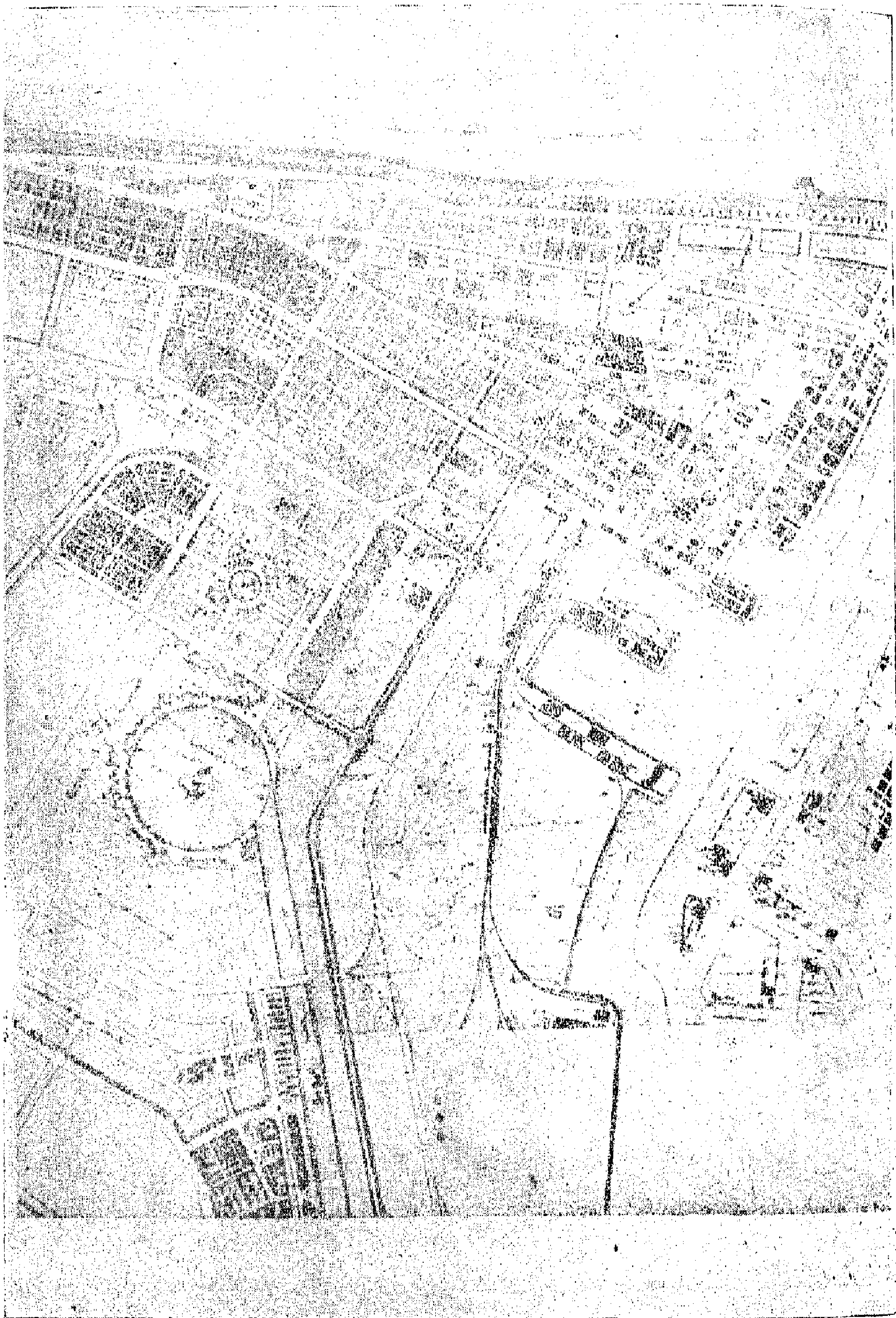
كيف استطاع « توفيق الديب » أن يقنع أهالى المناخين بضرورة إعادة بناء حيهم ؟ ذهب أول مرة فى يوم ٢٨ يونيه سنة ١٩٥٥ إلى مقهى من مقاهى هذا الحى حيث أقيمت ندوة لمناقشة هذا الموضوع الخطير مناقشة بناءة خلاقة ، تختلف كليا عن المناقشات والخطب السابقة التى كانت تنطلق فى المناسبات السياسية انطلاقا تهريجيا يندى له الجبين . تركزت المناقشة فى نقطتين أساسيتين ، هما : مصير سكان المناخين عند إزاله بيوتهم وأين يسكنون ، والثانية مدى استعداد المجلس البلدى لتعويض أصحاب هذه البيوت عنها .

ورد «توفيق الديب» بأن المجلس البلدى سيقيم مساكن شعبية تخصص لسكان المناخين وتقام على مراحل ، وأن مهندسى البلدية وضعوا مشروع المساكن الشعبية كاملا لإقامة أربع وأربعين مجموعة سكنية تحتوى كل منها على ٣٢ شقة يتكون بعضها من غرفتين والبعض الآخر من ثلاث غرف بخلاف الصالة والمطبخ ودورة المياه والبلكون . وقال أيضاً إن سكان المناخين سينقلون إلى هذه المساكن تدريجيا بحيث تختار البلدية كل دفعة منهم من سكان عدد من البيوت المتجاورة وذلك ليتيسر إخلاء هذه البيوت و إزالتها دفعة واحدة ، كما ذكر أن بيوت المناخين قد قسمت إلى مجموعات يتناسب عدد سكان كل مجموعة منها مع عدد المجموعات السكنية التى يتم إنشاؤها على مراحل ؛ وقد عملت هذه الدراسة بمنتهى الدقة

و بإحصاء شامل لعدد العائلات المقيمة «بالمناخين» والمقرر لها أن تنتقل إلى المساكن الشعبية بحيث لا يهدم أى بيت من البيوت الخشب إلا إذا وجد مكان بالمساكن الشعبية لسكانه . فالبلدية — كما كان سيادته يؤكد دائما — لا تريد تشريد سكان المناخين و إنما تريد إسكانهم فى مساكن صحية و بإيجارات ميسورة ، ولذلك تقرر أن يكون إيجار المساكن الشعبية ٢٠٠ قرش للشقة ذات الغرفتين ، ٢٥٠ قرشاً للشقة المكونة من ثلاث غرف . بهذه الردود الواضحة ، والمناقشة الهادئة المقنعة اطمأن سكان المناخين لنوايا البلدية وشعروا بارتياح للإجراءات التى ستتخذ لضمان إسكانهم وذويهم المساكن الجديدة .

وفيما يختص بالنقطة الثانية الخاصة بتعويض أهالى «المناخين» عن بيوتهم التى ستجرى إزالتها فقد أوضح مدير البلدية أن التقسيم الجديد للمناخين سيكون عبارة عن قطع كل منها فى حدود مائتى متر ، والسعر الفعلى لهذه الأراضى لا يقل عن خمسة أو ستة جنيهات فى المتوسط . غير أن المجلس البلدى قرر أن يبيع هذه الأراضى لأهالى المناخين بالممارسة فى حدود جنيهين اثنين فقط للمتر ، و بذلك يكون هناك وفر يتراوح بين ٤٠٠ جنيه و ٦٠٠ جنيه لكل مشتر وذلك بمثابة تعويض عادل له عن بيته الذى سوف تجرى إزالته .

وهكذا أخذ المهندس توفيق الديب ينتقل من ندوة لأخرى مجتمعاً بأهالى المناخين فى مقاهيهم ومنتدياتهم ويحدثهم بطريقته الشعبية ومنطقه القوى عن المشروع الكبير الذى يعده لهم . وفعلا اقتنع كثيرون منهم بالمشروع وأخذوا يفدون إلى مبنى البلدية لدفع المائة جنيه التى تمثل ربع قيمة قطعة الأرض التى سيشترونها و يوقعون بالموافقة على كل الإجراءات التى ستتخذها البلدية .



تخطيط امتداد مدينة بور سعيد وحي المناخين

ثم بدأت التجربة العملية لإسكان أهل المناخين فى المساكن الشعبية ، وكان ذلك فى يوم ٢١ أبريل سنة ١٩٥٦ عندما نقل سكان عزبة « أبو رفاعى » التى تقع على الساحل مباشرة إلى المساكن الشعبية وكان عددهم ١٣٥ أسرة ، وبعد أيام قليلة كانت العزبة قد أزيلت وانمحت آثار بيوتها الكريهة المنظر والتى كانت تشوه الساحل الجميل ، كما أصبح سكان هذه العزبة يسكنون فى منازل جديدة صحية تليق ببنى الإنسان وتشعر ساكنيها بأن المجتمع الذى يعيشون فيه يرعاهم ويهتم بأمرهم ويعمل على راحتهم ويحافظ على صحتهم وكرامتهم .

فى هذه الأثناء كان العمل مستمراً فى تخطيط «المناخين» بمعرفة الإدارة العامة لبلدية بور سعيد ، وكان أعضاء المجلس البلدى من جهة أخرى وخاصة أعضاء اللجنة الهندسية دائبين على الاجتماع للبحث فى احتياجات هذا الحى الكبير من منشآت ومرافق عامة واشتراطات البناء لضمان تناسقه وجماله . ثم انتهى البحث وتم وضع الاشتراطات وجاءت الخريطة الكبيرة تحمل المشروع كاملا ، فسرى شعور قوى بين أعضاء المجلس البلدى ورجال البلدية وكل المعنيين بمشروع المناخين بأن شيئاً كبيراً وأمراً عظيما قد تحقق للمدينة ، شيئاً ظل الناس يظنونه حلما لذيذا لا يأتى إلا للنائمين، فإذا استيقظوا انقشع الحلم وتلاشى مع صباح اليوم الجديد ، إلا هذا اليوم ، يوم ٢٧ مارس سنة ١٩٥٦ ، عندما استيقظ الناس فوجدوا المشروع قد وضع كاملا : التخطيط ... اشتراطات البيع ... اشتراطات البناء ... نظام إزالة البيوت الخشب ونقل ساكنيها للمساكن الشعبية ... كل شىء تم درسه وبحثه بدقة وعناية ... غير أن الظروف السياسية والأحداث السريعة ومؤامرات انجلترا وفرنسا وإسرائيل ، ثم وقوع العدوان على بور سعيد ،

هذه الأحداث السريعة حالت دون تنفيذ مشروع المناخين الذى وضعته البلدية . ولكن رغم ذلك فإن المشروع نفّذ بطريقة أخرى أبلغ وأعمق ، كرد على التدمير الذى ألحقه المعتدون بالمدينة الباسلة ، وكرمز خالد للكفاح والجهاد فى سبيل الوطن.

مهندسون فدائيون :

كان الأعداء فى بور سعيد يدمرون ويخربون ويحيلون أحياء كاملة من المدينة الهادئة إلى أنقاض وأطلال ، ولكن فى هذا الوقت كان المسئولون فى القاهرة يخططون تنفيذ المدينة الجديدة التى ستقام على تلك الأرض الطاهرة ، أرض المعركة . وكانوا يدبرون بحساب دقيق كل ما يلزم لتنفيذ أعمال إنشائية جبارة تشمل كل طرف فى بور سعيد : المناخ والقابوطى والعزب والمصيف وبور فؤاد ، وكل حى بها . وبالرغم من أن الإنجليز كانوا يمنعون الدخول والخروج من المدينة التى دوخهم أبطالها ليمنعوا وصول الفدائيين والسلاح إليها، فإن الفدائيين جاءوا من أكثر من طريق وبعدد أكبر مما يتصورون ، ولم يكن كل الفدائيين الذين جاءوا قد وفدوا للقتال ، بل كان منهم فدائيون من نوع آخر ، فدائيون مهندسون جاءوا ليرصدوا آثار الاعتداء ومقدار التدمير الذى لحق بالمدينة، ليوفروا بذلك البيانات الأساسية اللازمة للمشروعات الشتى التى كانت توضع وتحسب وترسم فى القاهرة وقتئذ لإعادة تعمير بور سعيد . جاء هؤلاء الفدائيون التعميريون من مهندسى وزارة الشئون البلدية عبر بحيرة المنزلة تحت جنح الظلام مخترقين الحصار الشديد الذى ضرب به الإنجليز حول المدينة ، وطافوا بها يسجلون بإحصائية دقيقة عدد المنازل التى هدمت عن آخرها والتى أصيبت بإصابات مختلفة يمكن ترميمها ومقدار الأضرار



حي المناخ وقد أصبح أثراً بعد عين بعد حرقه بالنابالم

التى لحقت بمحطتى الكهرباء والمجارى وشبكتيهما ؛ وظلوا يدرسون بعناية الدمار الذى لحق مخازن الجمرك وبعض المدارس والمستشفيات والمصانع والكثير من «كباين» المصيف، لأن الخطة الكبيرة التى كانت تضعها القاهرة لإعادة تعمير بورسعيد لم تكن تقتصر على تعويضها عن الخمسمائة وخمسة وأربعين منزلا التى هدمت بالمناخ ، أو عن المائة وسبعة عشر منزلا التى حرقت بشارع عبادى ، بل كان الهدف أكبر من ذلك والمدى أبعد ، إذ كانت الخطة خطة كاملة لإعادة الحياة ذاتها لبورسعيد بتوفير المساكن وتشغيل المصانع وفتح المدارس وانتشال سفن الصيادين التى أغرقتها طائرات المغيرين بمنطقة الرسوة . كل ذلك كان يهدف إلى إعادة الحياة إلى بورسعيد ، تلك الحياة الطيبة الجادة التى كان يعيشها البورسعيديون قبل العدوان. وكان أهم ما فى الخطة عامل الزمن والرغبة فى إتمامها فى أشهر معدودات ، لأن القاهرة كانت تعلم علم اليقين أن المعتدين لا يمكن أن يبقوا على أرض الوطن أمداً طويلا ولابد أنهم منسحبون بأسرع وقت ، لأن مؤامرتهم انكشفت للعالم وأخذ الرأى العام فى جميع البقاع — حتى فى بلاد حلفائهم وأصدقائهم — يتألب عليهم ويطلب منهم الانسحاب السريع . . .

أعمال متواصلة جبارة :

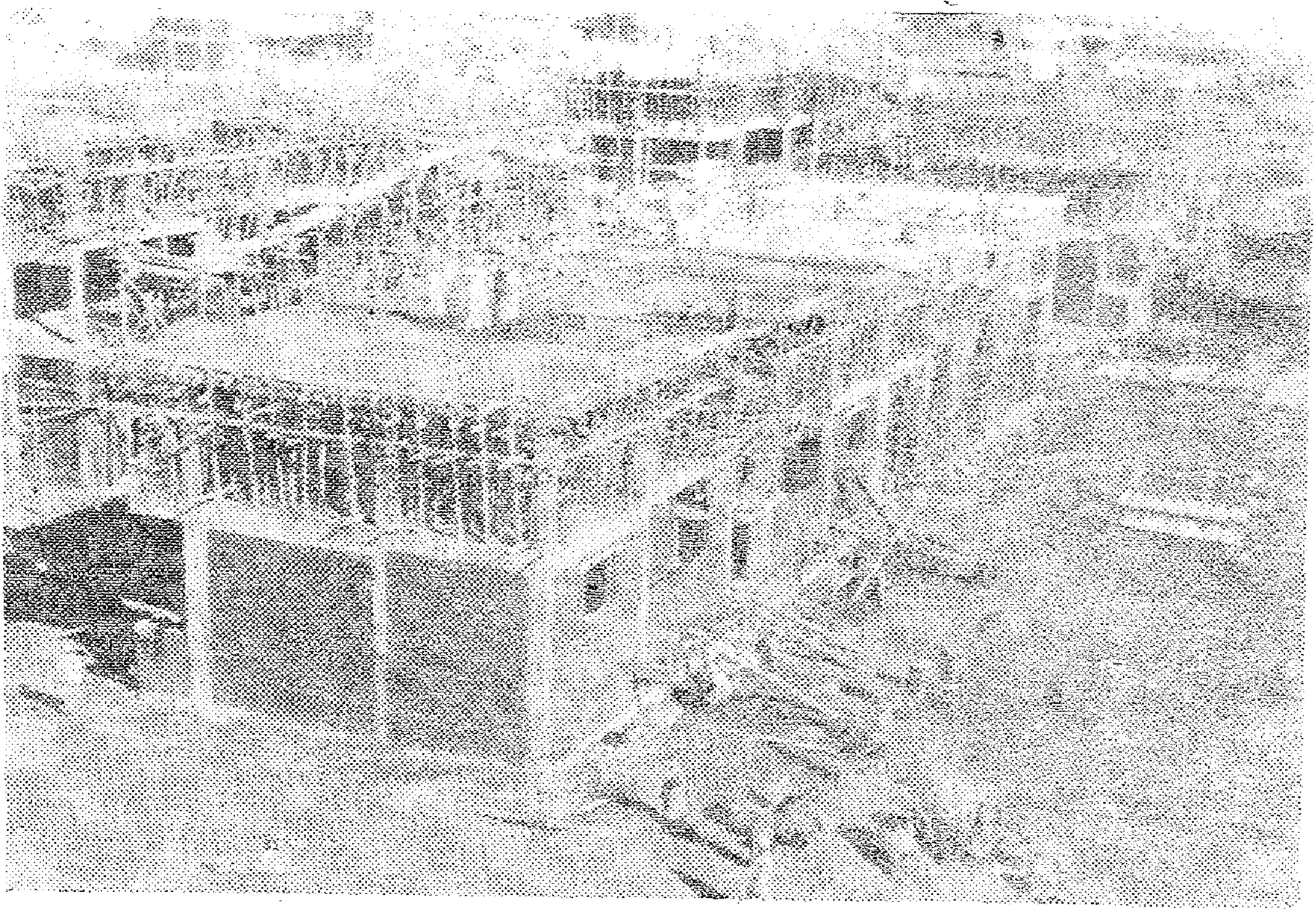
وهكذا فإن الإعداد لتعمير بورسعيد بدأ فى الواقع بعد وقوع التدمير بالمدينة بأيام قليلة، ولذلك فبمجرد أن خرجت الجيوش المعادية فى ٢٣ ديسمبر جاءت فوراً الأدوات والمهمات مع المهندسين والخبراء للعمل والتنفيذ لا للدراسة والبحث، لأن تلك المرحلة كانت قد انتهت خطواتها أثناء وجود المعتدين بالمدينة كسباً للوقت .

و وضعت خطة البناء منسقة تنسيقاً دقيقاً ، فأعمال المبانى يقوم بها خمسة عشر مقاولا منهم اثنان من مقاولى بورسعيد ، وأعمال الترميم يقوم بها عشرون مقاولا أغلبهم من بورسعيد ، ووزعت هذه الأعمال على المقاولين بحسب إمكانيات كل منهم وقدرته على التنفيذ فى أسرع وقت ممكن ، ولذلك كان المتتبع لهذه الأعمال الجبارة يدهش عندما يمر بمناطق التعمير فيجدها بين عشية وضحاها قد نمت وارتفعت.

كان يأتى لبورسعيد يومياً ثلاث قطارات سكة حديد يتكون كل منها من من ستين عربة تحمل الزلط من محاجر أبوضوير ، وكانت عشرات المراكب الشراعية تأتى من بحر البقر حاملة الرمال اللازمة لأعمال البناء حتى بلغ ما استهلكته هذه الأعمال ثمانين ألف متر مكعب من الزلط ، ومائة وعشرين ألف متر مكعب عن الرمال ؛ وكذلك قام مجلس الخدمات مباشرة بتوريد جميع كميات حديد التسليح الداخلة فى الأعمال وقدرها سبعة آلاف طن ، كما قام متجر الأسمنت بتوريد كل الكميات اللازمة وقدرها خمسون ألف طن من الأسمنت . . . بهذا التنسيق وهذه الجهود المتضافرة سار العمل على قدم وساق بدون تعطل أو توقف كأنما المدينة كلها قد أصبحت خلية كبيرة من خلايا النحل .

تخطيط حديث .

إن مشروع التخطيط لمناطق التعمير قد وضع طبقاً لأحدث النظريات والمقاييس العالمية ، فالشوارع روعى فيها اعتباران : أن تكون واسعة بعرض ثلاثين أو أربعين بل وخمسين متراً ، وأن تكون بقدر الإمكان امتداداً للشوارع القديمة الموجودة بالمدينة لربط مناطق التعمير الجديدة بالأحياء الأصلية ، كما وزعت



أعمال التعمير تسير على قدم وساق

العمارات والمجموعات السكنية على مناطق التعمير بما يحقق كثافة متجانسة من سكان هذه المناطق ، ولذلك قسمت الأرض إلى ثمانى مناطق ضمت المنطقة الأولى والثانية فقط منطقتى المناخين القديم والجديد على التوالى ، أما باقى المناطق فكلها جديد . وكان عدد المساكن المطلوب إنشاؤها أربعة آلاف وخمسمائة وسبعة وأربعين مسكنا لإسكان المواطنين الذين شردهم العدوان ، وبطبيعة الحال لم تكن رقعة أرض المناخين تكفى لهذا العدد الكبير من العمارات والمجموعات السكنية ، لاسيما وأنه روعى فى تصميمها أن تكون رحيبة من الداخل ليستوعب كل مسكن منها جميع أفراد العائلة الذين يبلغ عددهم فى المتوسط ثمانية أفراد ، كما روعى فيها أيضاً أن تكون جميعها مواجهة للشمس ويدخلها الهواء مما استلزم وضعها بزوايا مختلفة متباعدة بعضها عن بعض لتحقيق هذا الهدف الصحى .

وقد استغرق هذا المشروع مساحات كبيرة من الأرض، ولهذا السبب ولضيق أرض المناخين أخذت «الكراكات» تردم مساحات كبيرة من أراضى بحيرة المنزلة المتاخمة لمناطق التعمير ، حتى بلغ ماردمته منها حوالى مائتين وخمسين فدانا استقطعت مليونا ونصف مليون مترا مكعبا من رمل البحيرة .

وقد زودت هذه المناطق بالمدارس والمحال التجارية والمستوصفات والميادين والحدائق اللازمة لخدمة ورعاية سكان كل منطقة . أما المواد والخامات التى احتاجتها هذه الأعمال فقد بلغت ثمانين كيلو مترا من كابلات الكهرباء ، وخمسة وعشرين كيلو متراً من مواسير المياه ، وعشرين كيلو متراً من مواسير المجارى ؛ وهكذا بلغت تكاليف المشروع ثلاثة ملايين من الجنيهات منها مليونان وربع مليون للمساكن وسائر المبانى الأخرى ، وثلاثة أرباع المليون للمرافق العامة .

وفيمايلى بيان بالمساكن التى شملتها هذه الأعمال مبيناً قرين كل منها الإيجارات التى تحددت لها :

عدد		مليم جنيه		مليم جنيه
١٣٢٠	مسكنا يتكون كل منها من مدخل وغرفتين الإيجار يتراوح من	١٦٠ ٢	إلى	٦٤٠ ٢
٠٨٨٨	مسكنا يتكون كل منها من صالة وغرفتين الإيجار يتراوح من	٨٤٠ ٢	«	٦٤٠ ٢
٠٢٥٢	مسكنا يتكون كل منهامن صالة وثلاثة غرف الإيجار يتراوح من	٨٤٠ ٣	إلى	٢٠٠ ٤
٠٠٧٣	مسكنا يتكون كل منها من صالة وغرفتين (من طابق واحد فقط) الإيجار			١٢٠ ٢
٠٠٣٦	مسكنا يتكون كل منها من صالة وغرفتين (من طابقين) الإيجار			٤٠٠ ٢
١٤٧٤	مسكنا يتكون من صالة وغرفة وحوش بحى الحرية (دور أرضى) الإيجار			٠٨٠ ١
٠٥٠٤	مساكن مختلفة تعرف بمساكن شارع الأمين			
٤٥٤٧				

وهذا العدد من المساكن بخلاف المساكن الأخرى التى قام الأهالى ببنائها وعددها مائة منزل أقاموها فى أماكن منازلهم التى أحرقها المعتدون والتى يقع أغلبها بشارعى عبادى وعباس . وقد وضعت اشتراطات وقواعد لإسكان المواطنين الذين فقدوا مساكنهم طبقاً للنظام التالى :



منازل التعمير هدية للشعب الباسل

١ — أن يكون الساكن ممن هدمت منازلهم منذ أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ .
٢ — أن يكون متزوجاً ورب عائلة .
٣ — ألا يكون مالكا لمسكن فى بور سعيد أو ضواحيها .

وكانت هناك قواعد لتفضيل السكان الذين تنطبق عليهم الشروط الآتية بحيث تكون لهم الأولوية :

١ — عائلات الشهداء الذين كانوا يقيمون معهم .
٢ — الأسر الأكثر عدداً، حسب التعريف الوارد بقانون الضمان الاجتماعى.
٣ — أصحاب الدخول الأقل بحيث يسمح الدخل فى الوقت ذاته بسداد الإيجار . كما تقرر بصفة مؤقتة جواز شغل المسكن الواحد بأكثر من أسرة بسبب الظروف التى كانت قائمة وقتئذ .

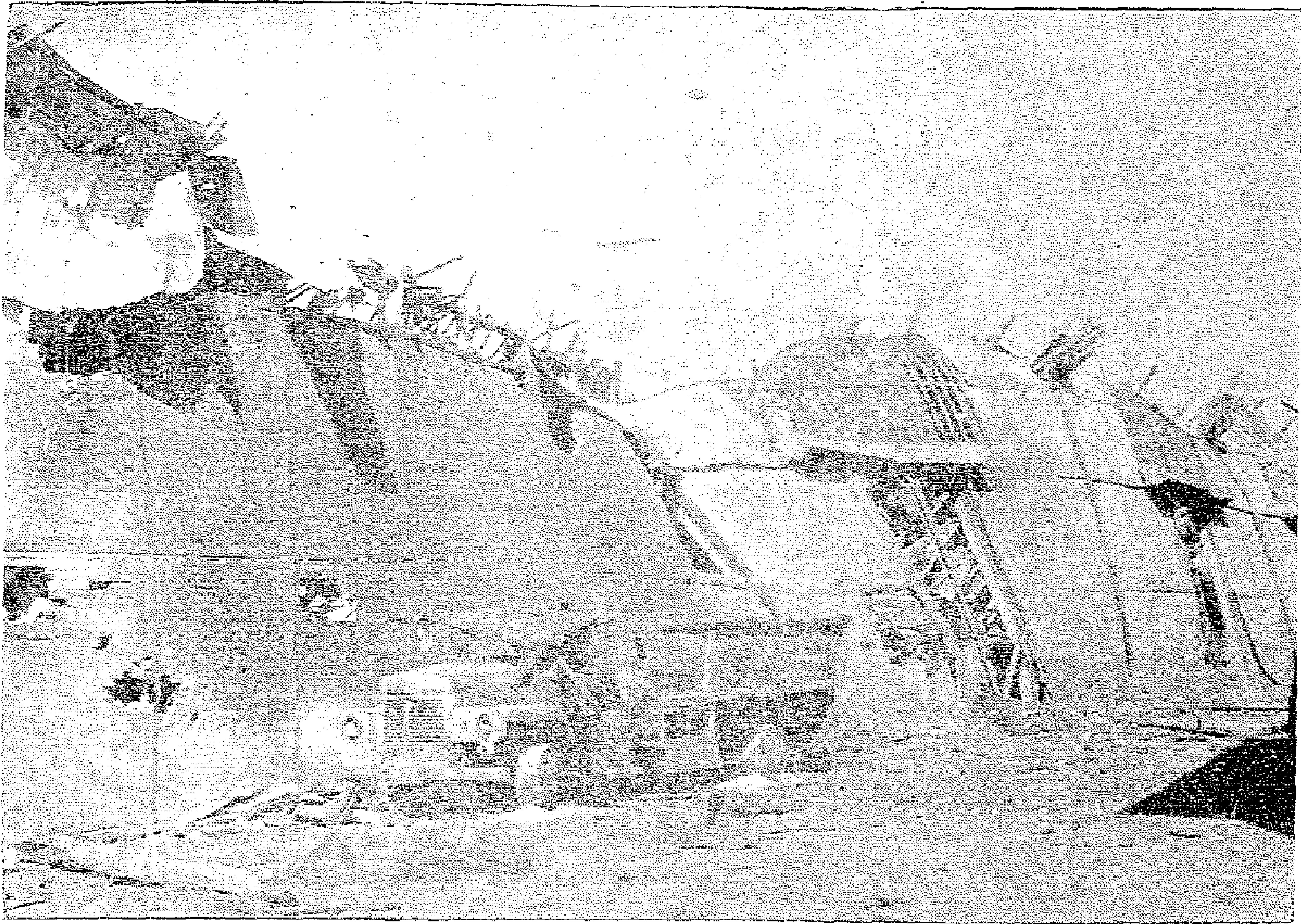
قلنا إن تخطيط مناطق التعمير وضع طبقاً لأحدث النظريات والمقاييس العالمية وتنفيذاً لهذا الهدف كان لا بد من نقل « السلخانة » القديمة التى أصبحت فى التخطيط الجديد تقع فى قلب منطقة التعمير رقم (٥) . وكذلك تحتم نقل « الزرايب » التى أصبح وجودها فى مكانها القديم يتعارض مع كيان المنطقة رقم (٦) لأنه لا يجوز اطلاقاً وجود « زرايب » ملاصقة أو قريبة من المجموعات السكنية ، ونفس الشىء يقال عن مجرى قناة المنزلة الذى أصبح بوضعه القديم يخترق مناطق التعمير ويشوه جمال المنطقة رقم (٣) ويتعارض بقاؤه حيث هو بصفة عامة مع قيام مساكن جديدة وأحياء صحية أنيقة . ولذلك أجريت التعديلات اللازمة لتفادى تعارض وضع « السلخانة » و « الزرايب » ومجرى قناة المنزلة مع مشروعات التعمير الجديدة ، فردم مجرى القناة القديم وأنشىء عوضاً عنه مرسى

جديد إلى الجنوب لاستقبال المراكب الشراعية والمراكب البخارية التي تصل إلى بور سعيد من البحيرة محملة بالبضائع والركاب . كما أنشئت منطقة كاملة « للزرايب » و « السلخانة » على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات من مناطق التعمير احتوت على المنشآت التالية :

عدد	
١٢	حظيرة لمواشي إنتاج الألبان .
١٨	حظيرة لمواشي الذبيح .
١٠	حظيرة للأغنام .
٦	حظيرة للخنازير .
١	سلخانة جديدة .

وبجوار هذه الحظائر أنشىء مائة مسكن لسكنى عمال الزرايب ليكونوا قريبين من مقر أعمالهم .

وعند ما بدأ العمل فى التعمير كان الإشكال الأكبر الذى واجه المسئولين والمقاولين على السواء هو موضوع العمال اللازمين لهذه الأعمال ، فقد كان يلزم سبعة آلاف عامل يومياً وهم غير متوفرين لأن عمال بور سعيد متخصصون فقط فى أعمال البحر المختلفة ولا يمكنهم بحال القيام بأعمال البناء اللهم إلا أصحاب الحرف منهم، كالبنائين والحدادين والنجارين والكهربائيين ، وهؤلاء لا يكونون إلا جزءاً يسيراً من مجموع العدد اللازم من العمال ، ولذلك رؤى أنه لا مناص من الاستعانة بآلاف العمال من خارج المدينة بالرغم من أن توفير المأكل ووسائل المبيت لهم كان فى حدذاته إشكالا آخر قائماً بذاته فبحثت هذه المسائل كلها بعناية فائقة حتى أمكن



تدمير مخازن الجمرك

تذليلها والتغلب عليها . وجاء بالفعل آلاف العمال من خارج بور سعيد ، وبهذا العدد الكبير أمكن إتمام جميع الأعمال فى ستة أشهر ، بل وأمكن الانتهاء من الدفعة الأولى من المساكن فى خمسة أشهر فقط ، ويكفى أن يأخذ المرء فكرة سريعة عن الأعمال الفرعية لأعمال التعمير — وهى أعمال الهدم وأعمال الترميم — ليقف على مدى ضخامة العمل الأصلى — وهو البناء — الذى تم فى بور سعيد فى مثل لمح البصر . فأعمال الهدم وحدها اشتملت على الآتى :

عدد	
٥٤٥	منزلا بالمناخ .
١١٧	منزلا بمنطقة عبادى .
٠٨٣	منزلا بمنطقة الأمين .
٠٠٤	منازل بشارع الجميل .
٠٠٣	منازل بشارع محمد على .
٠١٧	منزلا بالرسوة .
٠٠٤	منازل بمناطق مختلفة .
٨	مخازن بالجمرك .
٥	مصانع .
٤٩٢	كابين خشبى .
١١٤	منزلا بالكاب .
٥٣٦	منزلا رؤى أنه لابد من هدمها لأسباب فنية .
١٩٢٨	

أما أعمال الترميم فقد اشتملت على الآتى : —

عـدد

٣١ مدرســـة .

٧ مستشفيات .

١ ثــكنة ســـواحل .

٣ مساجد .

١٩٠ منزلا مملوكا للأهالى .

٩٧ مبنى عمومى (مثــل نادى الصيد — ومبنى مطار الجميل — ومبانى هيئة القنال ومبانى الجمرك ... الخ)

٥٠٠ حالة ترميم أخرى تمت بواسطة الأهالى .

———

٨١٩

من هذه الأرقام تتضح ضخامة العمل الذى كان على رجال وزارة الشئون البلدية والقروية إنجازه فى شهور قليلة وكثرة تشعب الأعمال الفرعية والأصلية مما استلزم جهازا كبيرا من الأكفاء والخبراء ممثلا فى هيئة التعمير التى كانت تختص بأحد شقى أعمال وزارة شئون بور سعيد .



أحد الشوارع الواسعة بمناطق التعمير

الحراسة على أموال الأعداء

بمجرد أن فتحت أبواب بورسعيد وبدأ العمل على قدم وساق لاعادة الحالة الطبيعية إليها كان من أهم الموضوعات التى عنى بها المسئولون موضوع تشغيل وإدارة المؤسسات والمنشآت المملوكة لرعايا الأعـداء ، الرعايا البريطانيين والفرنسيين والاستراليين واليهود من غير ذوى الجنسيات المحددة . كانت هذه المؤسسات تكوّن جزءاً جوهريا من اقتصاديات المدينة لكونها مؤسسات كبيرة ترتبط بها كافة المقاولات والأعمال البحرية والتجارية المختلفة فى المدينة ارتباطا وثيقا ، إن لم تكن فى الواقع تعتمد عليها اعتمادا كليا ، كما كانت أهمية هذه المؤسسات تبدو جلية فى ناحية أخرى جوهرية — فى محيط العمل — حيث يعمل بها آلاف من العمال والموظفين .

من هذه المؤسسات الوكالات الملاحية التى تقوم بخدمة السفن عابرة القنال وتعمل على تسهيل رحلتها سواء كانت متجهة إلى الشمال أو إلى الجنوب وذلك بتزويدها بكل ما يلزمها من تموين ووقود وإصلاحات وأدوات ومهمات . بل من السفن أيضا ما يحتاج أحيانا إلى مال سائل لدفع أجور ومرتبات أفراد « الطاقم » ، فتقدم له الشركة الوكيلة هذا المال خصما من الحساب الجارى بينها وبين المالك . وتقوم العلاقة بين هذه الوكالات الملاحية وملاك السفن من مختلف الجنسيات على الثقة التامة المتبادلة بين الطرفين ، ولولا هذه الثقة لما أمكن الملاك أن يطمئنوا لهذه الوكالات ولكان لزاما عليهم أن يقيموا فى بورسعيد ليباشروا بأنفسهم تقديم الخدمات والتسهيلات اللازمة لسفنهم أثناء عبورها القناة ، أو على أسوأ تقدير

لاضطروا للاستغناء كلية عن الحصول على هذه الخدمات والتسهيلات من مدينة بورسعيد ولبحثوا عنها فى مكان آخر ولأدى ذلك بطبيعة الحال إلى فقر المدينة وإفلاسها تماماً !

هذه الثقة المتبادلة موجودة من سنين بين الوكالات الملاحية وأصحاب السفن مركزة فى أشخاص مديرى هذه الوكالات الملاحية ، فلما جاء العدوان وخرج المعتدون ومعهم رعاياهم ، كان من بينهم مديرو هذه الوكالات الملاحية الذين قضوا فى بورسعيد عشرات السنين يمارسون الأعمال الملاحية ويعرفون كل تفاصيلها ودقائقها وأسرارها ، ولذلك كان خروجهم من بورسعيد يحمل احتمالا كبيراً خطيراً على اقتصاديات المدينة ، احتمال خروج ثقة أصحاب السفن أيضاً من الوكالات الملاحية التى كانت تمثلهم فى بورسعيد ، وبذلك يصبح من العسير أن تتعامل السفن عابرة القناة مع المدينة ، وتقع الأزمة العنيفة التى تخنق السكان وخاصة أنهم خارجون من معركة رهيبة دمرت فيها أملاك وضاعت أموال .

إذن كان رحيل مديرى الشركات الملاحية البريطانية والفرنسيين من بورسعيد مع قوات الغزاة نذيراً بالخطر على مستقبل هذه الشركات ومن فيها من عمال وموظفين ، ولذلك وضع المسئولون أعظم خطة لتفادى هذا الخطر الجسيم وذلك بالعمل على إعادة الثقة من جديد — ولو بالإكراه — للشركات الملاحية ، فمنعت بأكثر من طريقة عمل أى تعديل فى نظم هذه الشركات وعلاقاتها بالخطوط الملاحية المختلفة أى أنها منعت انتقال هذه التوكيلات من شركة لأخرى أو لأية جهة غير هذه الشركات ليبقى الوضع كما كان قبل العدوان كى تصبح الأرض أخصب ما تكون لزرع الثقة من جديد . . . واختارت الحكومة نخبة من الرجال الممتازين ليكونوا

حراساً على هذه المؤسسات ليديروها و يعملوا على تحقيق هذا الهدف الكبير .

كان الحراس جميعاً من أبناء بور سعيد المشتغلين بالبحر ، أي الذين لهم أعمال في الميناء . وجاء هذا الاختيار عن قصد ليكون الحراس مدركين لهذه الحقيقة ، ولأنهم فى نفس الوقت أقدر الناس على تدارك الموقف الدقيق الذى تجتازه مدينتهم بإعادة ثقة أصحاب السفن من كافة الجنسيات إلى الوكالات الملاحية التى أصبحت تعمل تحت إشراف الحراسة المصرية . . . ونجحت الخطة ، وعادت الثقة ، وأنقذ مستقبل آلاف من العمال والموظفين وكتبت صفحة جديدة من الفخر لأبناء بورسعيد الذين أشرفوا على إدارة هذه المؤسسات . ولقد اعترف بذلك المديرون البريطانيون الذين عادوا فيما بعد إلى بورسعيد فى أواخر عام ١٩٥٧ وأوائل عام ١٩٥٨ ؛ عادوا ليتفقدوا سير العمل بمؤسساتهم فأعجبوا أيما إعجاب وارتاحوا كل الارتياح للادارة المصرية الداخلية فى كل الشركات والتى تعمل تحت إشراف الحراسة المصرية .

كان من بين المؤسسات البريطانية والفرنسية أيضاً محال تجارية وفنادق ومطابع وأندية ومستشفيات ومنازل كثيرة ، وكان بين هذه المؤسسات والأملاك و بين سكان المدينة بطبيعة الحال معاملات مختلفة ليس من المصلحة أن تتوقف أو تنقطع لكى لا يؤثر ذلك على حالة النشاط التجارى فى بورسعيد . فأخذ الحراس المسئولون عنها يعملون على تنظيمها و إعادة علاقتها بالأهالى من جديد . ولقد أحاطت بهذه الجهود مشاكل لاحصر لها ولكنها ذللت بقدر المستطاع ، فالمحال التجارية مثلا وجد أن أصحابها أخذوا منها بضاعتها أثناء وجود المعتدين فى المدينة ووضعوها فى حقائب وصناديق و رحلوا بها ، ولما فرغت الحقائب والصناديق جاء

أحدهم بسيارة أوتوبيس وملأها عن آخرها بكل ما يستطيع من البضائع الموجودة في متجره وشحنها في السفن المنسحبة . وهكذا بقيت أغلب هذه المتاجر للحراس خاوية من البضائع والمال رغم ما عليها من استحقاقات مختلفة للضرائب وللأفراد.

وكانت منازل رعايا الأعداء وأملاكهم ببورسعيد و بور فؤاد تحتاج لجرد سريع لأن الحالة في المدينة بعد انسحاب الجيوش المعتدية مباشرة لم تكن قد استقرت، وكثيرون من الأهالي كانوا بغير مأوى لاحتراق منازلهم ، فخشى أن يهجم الناس على مساكن رعايا الأعداء والأجانب التي خلت برحيلهم مع الغزاة. ولذلك صدر قرار وزارى بتنظيم إسكان هذه المساكن بعد حصرها وتقديم البيانات الوافية عنها ، وكانت الحراسة قد بدأت تزاول عملها في بورسعيد في ١٠ يناير ١٩٥٧ ، أى بعد صدور القرار الوزارى بإنشائها بثلاثة أيام فقط ، ولم تكن هناك سجلات معدة مبين بها أسماء الرعايا وأملاكهم وأموالهم ، فاعتمد الحراس في عمليات الحصر وتقديم البيانات المطلوبة اعتماداً كلياً على معلوماتهم وتحرياتهم الخاصة لأن جميع الأوراق والملفات الخاصة برعايا الأعداء احترقت مع دار المحافظة ، وما كان منها في المصالح الحكومية الأخرى أخذه الانجليز والفرنسيون معهم لغير سبب !!

ولقد استطاعت لجنة تأجير المساكن أن تنظر في عدة آلاف من الطلبات التي يريد مقدموها استئجار المساكن التي خلت برحيل الأعداء والأجانب ، وفصلت فيها طبقاً لنظام الأولوية الموضوع والذى يقدم أسر الشهداء والذين احترقت منازلهم على غيرهم ، وكان لا بد من جرد المنقولات الموجودة بهذه المساكن وتخزينها بشكل يحفظها من التلف بشرط عدم تحميلها مصاريف تخزين ما أمكن ذلك ، فصدر قرار وزارى يعطى الحارس سلطة تخزين هذه المنقولات بعد جردها

فى غرفة داخل المسكن تختم بالشمع الأحمر ويؤخذ تعهد على الساكن الجديد بمسئوليته عنها وكان هذا الإجراء أبلغ دليل على اهتمام الحراسة المصرية بالمحافظة على أموال رعايا الأعداء وصيانتها .

وكان كثيرون من الأفراد يطالبون الحراسة بديون وأموال مستحقة على الرعايا البريطانيين والفرنسيين ، كالبقالين والجزارين وتجار الأقمشة والخردوات وغيرهم ممن كان هؤلاء الرعايا يتعاملون معهم ورحلوا دون أن يتمكنوا من تسديد ماعليهم ، وكانت هناك كذلك أجور ومكافآت كثيرة مستحقة للذين كانوا يعملون فى منازل هؤلاء الرعايا ومكاتبهم ومحلاتهم التجارية ، فاحتاجت هذه الحالات لجهود ضخمة من دقة فى الفحص وسلامة فى الاستقصاء قبل البت فيها ، ولكن بعض هؤلاء الرعايا كانوا قد سجلوا ما عليهم بكل أمانة فى إقرارات سلموها لمستخدميهم ، كانت هناك كذلك عشرات من محاضر الحجز الموقعة من مصلحة الضرائب على كثيرين من هؤلاء الرعايا استطاعت الحراسة أن تفصل فيها وتسويها مع الضرائب بما يحقق مصالح الرعايا ويحفظ حقوقهم .

وهكذا لعبت الحراسات فى مدينة بورسعيد دوراً كبيراً فى إنعاش اقتصاديات المدينة ، وساهمت مساهمة فعالة فى إعادة الحالة الطبيعية إليها . كما أنها أثبتت للعالم أجمع أن أموال الرعايا البريطانيين والفرنسيين الذين شنت حكومتاهما هجوماً بربريا على بورسعيد ترتب عليه تخريب وتدمير فى كل مكان ونتج عنه قتل نفوس عزيزة وسفك دماء طاهرة بالمئات والآلاف ، حفظت هذه الأموال كما لو كانت أموالنا وصينت كما لو كنا أصحابها وأكثر رغم الجرح الكبير الذى تركه العدوان فى قلوبنا ...

إن فظائع المعتــدين فى بورسعيد وقسوتهم على الأهالى والمسئولين ، وروح الشماتة الرخيصة التى بدت على وجوه كثيرين من هؤلاء الرعايا وفى ألفاظهم التى كانوا يوجهونها للمواطنين من وراء الأسلاك الشائكة ومن خلف أكتاف جنودهم المدججين بالسلاح وفى حمى دباباتهم ومصفحاتهم كل ذلك كان كفيلا بأن يقابل بروح مماثلة من نفس المعيار بالتمثيــل بأموالهم وأملاكهم وكل ما فيه ذكراهم أو رائحتهم ... ولــكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فكان كسبا عالمياً فريداً أحرزه البورسعيديون وعلى رأسهم القائمون بأعمال الحراسة المصرية .

الفصل الرابع

الفن والمعركة

الفن والمعركة

ليس من شك فى أن الفن بمختلف فروعه قد تأثر بمعركة بورسعيد تأثراً كبيراً ، فمعركة بورسعيد لم تكن حدثا عاديا يمكن أن يمر مرور الكرام ، لقد كانت قضية شعب ومستقبل أمة ، أمة كبيرة يمتد وطنها من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسى غرباً ، كتب الغرب ميثاقا على نفسه أن يخمد أنفاسها ويستعمر أرضها ويسترق أهلها ويسرق رزقها ، فلما حاولت أن تقف على قدميها كما تقف بقية شعوب الأرض هاجت هائجة الغرب الاستعمارى وجيش لها الجيوش وجمع لها عتاد الدمار والخراب وعاد ليسرق الأقوات ويستبيح الدماء ويقتل الأبرياء ويعتدى على أوطانهم وديارهم وحرماتهم .

كانت هذه حقيقة معركة بورسعيد فانفعلت كل نفس واهتز كل وجدان وثارت كل روح منزجرة مغيظة لشريعة البطش والقرصنة التى باتت تهدد الوطن والأبناء والأحفاد .

والفنانون دائماً مواطنون صالحون ، وإذا كانت النفوس جميعاً قد تأثرت بأحداث المعركة الباسلة فقد كان فى مقدمة الذين تأثروا بها — ولا شك — الفنانون على اختلاف طوائفهم من شعراء وكتاب وموسيقيين ومغنين ورسامين ومصورين ونحاتين وممثلين ، كل تأثر إنتاجه بقدر تأثره بالمعركة وانفعاله بها ، فما كادت المعركة تنتهى من الناحية المادية — إذ لا زالت قائمة وقد تستمر بعض الوقت — حتى كانت قد خلفت لنا تراثاً ضخماً من الإنتاج الرائع فى مختلف الميادين الفنية من شعر وزجل وقصة وموسيقى وتمثيل ورسم وتصوير ونحت ، وسنحاول استعراض بعض هذه

الفنون التى تأثرت بالمعركة تأثراً مباشراً أضفى عليها تحولا ملموساً فى أهدافها واتجاهاتها .

الشـــعر

ثروة شعرية ضخمة تلك التى خلفتها لنا معركة بورسعيد التى كشفت عن مواهب كامنة ففتحتها،وملكات خصيبة فأظهرتها وصقلتها . استجابت كل تلك الملكات والمواهب بماجاشت به نفوس أصحابها فأمدتنا بثروة وفيرة من الشعر الوطنى الثائر المعبر تبارت فى ميدانه القرائح فصورت كل قريحة انعكاسات المعركة فى القالب الذى اختارته و بالأسلوب الذى طلوعها .

ولعل الشعراء فى مقدمة الفنانين الذين يتأثرون بالأحداث و يستجيبون لها استجابة سريعة ، ولذلك فإن الانتاج الشعرى المتأثر بعامل من العوامل الدافعة سرعان ما يسبق غيره من فروع الفنون الأخرى ظهوراً على مسرح الحياة العامة ونفاذاً إلى قلوب المواطنين ومشاعرهم .

وليس ذلك بأمر مستحدث بالنسبة للشعر أو الشعراء ، فلعل الشعر هو الفن الوحيـد الذى واكب انتفاضاتنا العربية منذ أمد بعيـد وصور التحام أجدادنا مع معاصريهم ممن طمعوا فى أرضنا واعتدوا على أوطاننا منذ عهود من الزمان بعيدة ، فالشعر رافق المعتصم فى معركة عمورية و بعدها ، والشعر صور التحام سيف الدولة ابن حمدان مع الروم الذين كانوا لا يفتأون يعتدون على أرض المسلمين فخلد المواقع الباهرة التى خاضها العرب الحمدانيون ضدهم فى أرضنا حينا وفى أرض العدو أحياناً أخرى ، فلم يتخلف الشعر عن الركب بل ساهم بتمجيد النصر وتهيئة النفوس

الجهاد وتحشيد العواطف للدفاع والزحف فخاض المعركة مع سيف الدولة على أسنة أقلام أبى الطيب المتنبى وأبى فراس والسرى الرفاء والصنوبرى وأبى العباس النامى وابن نباتة السعدى وغيرهم .

ويستمر الاعتداء التقليدى على وطن العرب وأراضى المسلمين فى شكل حروب صليبية فلا يتخلف ركب الشعر عن المعركة بل يخوضها مع الفرسان فيلهب المشاعر ويؤجج النفوس ويعدها للقتال فإما نصر وإما استشهاد ، خاض الحروب الصليبية شعراً العماد الأصفهانى وابن مماتى وابن سعدان وأبو الحسن الجوينى العراقى وابن التعاويذى وابن الساعاتى وابن سناء الملك والجريانى وغيرهم فألهبوا المشاعر ونبهوا القلوب ، وخلدوها معارك مقدسة لا زلنا نخوضها بشكل أو بآخر حتى اليوم .

والواقع أن معركة بورسعيد لا تختلف عن الحروب الصليبية فى كثير أو قليل فهى فى طبيعتها وحقيقتها حلقة من سلسلة الحروب الصليبية التى يشنها المتعصبون من الأوروبيين على الشرق الأوسط باعتباره وطناً إسلامياً .

ذهب البعض إلى تسميتها حروبا استعمارية بل ذهب بعض المراقبين إلى تسمية الحروب الصليبية بحروب استعمارية ضاربا صفحاً عن النزعة التعصبية والفكرة الدينية والشارة التى كانت تحلى صدور وزنود وقلانس الجنود المعتدية الوافدة .

ومهما كان أمر هذه الحروب فهى واقعة علينا دون غيرنا من شعوب الأرض ، لاستباحة أرزاقنا وسرقة أراضينا واغتصاب خيراتنا وبيعنا فى سوق النخاسة بين شعوب الأرض .

وقد كانت معركة بورسعيد حرب قرصنة بل أخس من حروب القرصنة ولم يكن المقصود بها بورسعيد ، بل كان المقصود بها الوطن العربى والوطن الإسلامى

باعتبار الوطن العربى نقطة الارتكاز بين البلاد الإسلامية، هو إذن اعتداء غاشم لا شك فيه ولذلك فقد خاض الشعب العربى المعركة وخاضت قرائح الشعراء المعركة تماماً كما خاضتها قرائح أسلافهم إبان الحروب الصليبية وحروب سيف الدولة الحمدانى .

ولم يقتصر الأمر على شعراء الإقليم المصرى وحده على اعتبار أن المعركة فى أرض مصرية بل خاضتها أقلام الشعراء العرب جميعاً على اعتبار أن أرض المعركة أرض عربية وأن بورسعيد مدينة عربية وأنها نقطة الهجوم الأولى التى صوب المعتدون إليها سهامهم تمهيداً للزحف منها إلى بقية أجزاء وأصقاع الوطن العربى الكبير، إن الأدباء والشعراء يفهمون ذلك لأنهم يعرفون التاريخ حق المعرفة و يحسنون أن التاريخ يعيد نفسه ولذلك فقد جندوا أقلامهم من كل صقع من أصقاع الوطن العربى فى سورية ولبنان والعراق ونجد والحجاز واليمن والسودان وفلسطين والأردن وليبيا وتونس والجزائر ومراكش وبقية أجزاء الوطن .

إن شعراء هذه الأقطار العربية قد خاضوا جميع المعانى وصوبوا سهام قرائحهم نحو أهداف متكاملة فشحنوا العواطف وأججوا نار المعركة وحضوا على البذل والفداء ، ووصفوا المعركة كمن خاضها بسيفه ومدفعه رغم بعدهم عن الميدان الفعلى للحرب ولكن أحاسيسهم كانت من الدقة والنفاذ والنوزانية بحيث اقتحمت الحجب وطوت المسافات وعاشت مع المعركة تشاهد البطولات زاحفة منتصرة وباذلة مستشهدة . .

شحن العزائم واستنهاض الهمم :

إن الشاعر الفلسطينى عبد الرحمن رباح الكيالى يصور غزو المعتدين لديارنا.

وتخريبها وسرقة أرزاقنا وقتل مواطنينا فيقول وقد شبههم بالتتار :

قطعان هولاكو التتا ر الماردون على الدمار

عادوا كأمواج الوبا ء تروم تخريب الديار

عادوا لنزع اللقمة الـ عجفاء من أيدى الصغار

عادوا لترميل الفتا ة وخنقها فى سجن عار

عادوا لإجداب الحقو ل من السنابل والثمار

عادوا لدفع الشعب للـ جوع المبيد والانتحار

عادوا لإسدال الظلا م وطمس أضواء النهار

ثم ينتقل الشاعر إلى شحن العواطف والحض على القتال فيقول :

أنا ياأخى العربىّ سهـ ران وتحت يدى سلاحى

أنا ياأخى المصرىّ قد أعددت نفسى للكفاح

الطامعون المعتدو ن سيذهبون مع الرياح

سيمزقون سيصعقو ن سينثرون على بطاحى

سأدافع الأوغاد عن وطنى وعن حقى الصراح

وسأكتب التاريخ بالشهداء بالدم بالجراح

بتراب مصر بنيلها الـ جارى عليها كالوشاح

لابدّ من سحق الغزا ة إذا هم نزلوا بساحى

ويصور الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى الفداء أجمل تصوير ويدفع إليه ، إلى غاية بعيدة مقدسة فيقول :

خل الدم الغالى يسيل ضوءا ينار به السبيل

عذر يقوم على الطغا ة الشامخين به الدليلُ

هـذا الدم الرقراق مندفع لغايته عجولُ

متحيدر كالسهم صليا لا يزيغ ولا يميل

يصل المناضل بالمنا ضل حين يعنيه الوصولُ

قل للشباب بمصر والدنيا لمن يصغي تقولُ :

هـذا أوان الجولة الـ كبرى فما اسطعتم فجولوا

هل غير أن يفنى لتسعد بعده الأجيال ... جيلُ

***

برك الدماء — عن الموا طن حرة — ثمن قليلُ

ولدى البطون الطاهرا ت عن الذي يمضي بديلُ

إن لم تصولوا للذيا د عن الحياض فمن يصولُ

خوضوا دم المستعمرين فطالما خيضت وجولُ

لكم الديار ومجدها وفخارها الضخم الأثيلُ

وإذا كان الجواهرى قد حض على القتال فى قالب فلسفى عميق عنيف مغلفاً بالحكمة والبرهان فإن الشاعر المصرى محمد الجيار يسير فى نفس الدرب ولكن فى قالب من الحماس والعزم والاندفاع مشيرا إلى مظالم الماضى وآثامه فيقول :

أنا الشعب صوتى انفجار الدهور جمعت مشانق أجداديهْ

وأشعلت أخشابها الناخرا ت وقوداً لمشعل أيامِيَهْ

فأين العدو يرى نارنا كتكبيرة فى فم الرابيهْ

ويمشى كمسترشد بالدخا ن لمقبرة فى الثرى دانيهْ

لقد آن يا أرض أن تثأرى ... ألا حطمى الأمم الطاغية

***

محال يجف الدم المستكن ... بأعماق تربتك النادية
ترابك يا أم ... فوق الجرو ... ح يكحل أعينها الرانيه
فهيا انثرى رعشات الدما ... ء بأصداء صيحتنا الداويه
«إلى الحرب لن تستباح الربو ... ع لمستعمر دنس طاغيه»

والشاعر السورى فضل الأنصارى يفتدى بور سعيد و يفدى مصر ، إنها وطنه لأنها من أوطان العرب ، إنه يخاطبها « بوطنه » قبل الوحدة السورية المصرية ، لقد كان الشاعر مؤمنا بها و بألا مناص من الوصول إليها ، وقد كان له ما أراد ، فلم تمض بضعة عشر شهرا حتى كانت الوحدة قد أصبحت أمرا ماديا واقعا ، يقول الشاعر :

وطنى فديتك إن مثلى إخوة ... سكنوا ربوعك يفتدونك جندا
حملوا على بيض الأكف دماءهم ... وتقدموا كيما تكون الرفدا
أقوى من الصاروخ فى أجسامهم ... إن قاتلوا قتلوا وكانوا سدا
هم يملكون العزم فى ضرباتهم ... من كان يبصرهم رآهم أسدا

***

وطنى شبابك يبذلون دماءهم ... من أجل حفظك ليس يألو جهدا
هو يستسيغ الموت حلواً طيبا ... كيما تعز وكى تصان وتفدى

وأما الشاعر احمد حسين عطا الله فإنه يستعجل العدو الخطو ليذيقه الحتف والموت والهوان ، فبينه وبين المستعمر ثأر دائم لا بد من تصفية حسابه ، إنه يستطل

عادة الثأر العربية لتعبئة الشعور الوطنى فيقول :

يا طاغيه ! انظر هنـــا   فى الشرق فى افريقيَــه
مصر التى طوت القــرو   ن ولا تزال كما هيــــه

***

أقدم فمقبرة الطغـــا   ة إلى دمائك صـــاديه
أقدم . . . جبابرة الحرو   ب هنـا تزمجـر ضاريه
أقدم أمامك ألف حتـــفٍ   من قلوبٍ قاديه
جـوعانة للثـأر ، للثـــأر   المقـدس ظاميـــه
زحمت طريق الشمس واحـ   تشدت كتائبُ داميـه
وتربصت لك فى المنا   زل فى الثرى فى الرابيه
فى « برسعيد » على الدرو   ب وفى شعاب الأوديه
فى أى ناحية سلكـ   ت ، الموت يكمن ناحيه

وإذا كانت بورسعيد — على الطبيعة — خالية من الشعاب والأودية لأنها تقع على ساحل رملى بين البحر الأبيض وشاطىء المنزلة وضفة القناة ، إلا أن ذكر الأودية والشعاب لم يقلل من قيمة القصيدة لأن الشاعر هكذا قد تصورها من حيث الموقع ، ولكن الذى لا شك فيه أن معانى الفداء والثأر والشجاعة والصمود تملأ كل حواشى القصيدة وجنباتها .

والشاعر الأردنى سليمان دحابره يساند بورسعيد ويطلب إليها الثبات لأنها شجاعة والثبات من صفات الشجعان ، وهى بعد ذلك ليست وحيدة فالدنيا كلها تبارك نضالها العنيد المرير :

يا « بورسعيـــــــد »
بلحم الغزاة مـــــلأت الدروبْ
وزمجرْتِ ســــــاخرةً بالحروبْ
ولم تفـــــزعى لازدحام الخطوبْ
ثبـاتاً ، ستحميك منـا القلوبْ
وكل الشعـــــــــوب !
تحيِّ نضالك يا « بورسعيـد »

***

يا « بور سعيـــــــد »
نضالك مرّ وفى كل شـــــارعْ
لجيش وشعب جميعـــــا يدافعْ
وفى كل بيت قلاعٌ مـــــوانعْ
هو الشعب يسخر من كل طامعْ
فـــــويل الغـــــزاهْ !
وعاش انتقامك يا « بورسعيـــــد »

ويلتفت الشاعر الفلسطينى معين بسيسو حوله فيهوله خطورة الموقف ، لقد فقـد وطنه فلسطين قبل أعوام ثمانية وهو يعلم خطة الاستعمار وخبـــاياها ، إن الاستعمار يريد أن يجعلنا — معشر العـرب — جميعــــا أمة من اللاجئين ، إن الاستعمار لم يكتف باغتيال فلسطين ، إنه يزحف مرة ثانية لابتلاع

القناة فإذا أفلح فمصر ثم سورية ثم العراق وهكذا ، ولذلك فالشاعر يعبئ المشاعر بعنف ، يحمل سلاحه ويخوض المعركة ، يخوضها حتى ينتصر أو يستشهد ، وعلى كل مواطن أن يتقدم بعده يتسلم منه الراية والسلاح :

أنا إن سقطتُ فخذ مكا نى يازميلى فى الكفاح
واحملْ سلاحى لا يخفك دمى يسيل من الجراح
وانظرْ إلى شفتى أطبقا على هوج الرياح
وانظرْ إلى عينىّ أغمضتا على نور الصباح
أنا لم أمت أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

***

فاحملْ سلاحك يازميلى واتجهْ نحو « القنالْ »
رعداً بصوتكمُ حماة الأرض هبوا للقتالْ
ولتحملوا البركانَ تقذفه لناحمر الجبالْ

والشاعر حامد الجوجرى يتمثل العدوان الوحشى البدائى على الأرض والوطن وعلى الشيخ العاجز الكبير وعلى الطفل البرىء الصغير وعلى العرض الغالى الأثير فيسارع إلى تلبية النداء ، نداء هؤلاء جميعا ، نداء الوطن فيقول :

لبيكِ دعوة والدٍ شيخ قد امتدت يداه
لبيك صيحة دارجٍ طفلٍ تعثر فى خطاه
إنى سأدفع عنهما بالروح أعداء الحياه

عن عرضى الغـالى وعن   وطنى وأهلى والسكن
لبيك يا أرض الوطن

***

لبيك فى أرض القنـا   ة دماء فداء شهيد
صرخت تريد الثأر من   متجـبر باغ شريد
لبيك إنى ها هنـا   عزم يلين له الحـديد
ولسوف أثأر ، سوف أثـ   ـأر منـه ما طال الزمن
لبيك يا أرض الوطن

***

لبيك « نيـلا » شبت الـ   ـدنيا على شطـآنه
لبيك صبحاً تنعم الـ   آفاق فى أحضـانه
وطنى . أنا لن ينعم الـ   ـباغى بحلو جنـانه
هذى حيـاتى دونه   دين على بلا ثمن
لبيـك يا أرض الوطن

ومن القصائد الرائعة البارعة قصيدة الشاعر السورى سليمان العيسى وهو يروى قصة تأميم القنـاة كما سمعها من المذياع تجرى عذبة سلسالة على لسان الرئيس جمال عبد الناصر ، إن الشاعر يعتبر التأميم الضربة الكبرى التى أذلت الاستعمار وأعزت العرب ؛ فيقول مخاطباً الرئيس :

كان المسـاء وكان صو   تـك فيه شلال الضياء

وشـــددت بالمذياع أعـــصابى وقلبى بالنـــداء
وجمدتُ أصغى من خلا ل الدمع دمع الكبرياء
أصغى وأخنق شهقـــة بفمى وأسكر بالحداء
أُصغى ويُصغى مثلى التـــاريخُ نخضل الرواء
أصغى إلى الوطن الوثيـــد يهب مجنون الإباء
فى صيحـــةٍ تسق الظما ءَ وكلُّ شعبىَ فى الظماء
فى قهقهاتك يا « جما لُ » تشق أجواز الفضاء
وتلامس السبعين « ما ـيوناً » على شفة الفناء
وتردُّهم ياســـاحرى شعلا تحرق للفـــداء
وأشـــد بالمذياع أعـ ـصابى وقلبى بالنـــداء
وأضمُّ طفلى ... أمتى عادت وأشرقُ بالبكاء

ويمضى الشاعر العيسى مسترسلا فى سلاسة مسجلا مشاعره ومشاعر سبعين مليونا من العرب تعبر الجسر من الموت إلى الحياه ومن الظلام إلى النور ومن الذلة إلى العزة ، معلقا سمعه وحسه بالزعيم الذى يؤمم القناة فى أبيات طويلة منها :

مازلت أصغى للحـــدا ء وما يزال دوىّ ثائرْ
يهبُ الحياة فتنبض الرّ مم الشهيدة والمقــابرْ
ورعشت خوفا ، ألف طا رقةٍ تلحّ والف خاطرْ
ووددت لو أنى أقيـــك بخفق قلبى ... بالنواظرْ
وأمدّ من كبدى سيا جاً أفتديك به المقادرْ

ما كنت وحدى فى الأثيـــــر على جناح الليل « طائر »
كنا « ملايينا » يسمّـ ـرهم على المذياع ساحر
عقـدوا بنبرتك القلو ب وجلجلت معك الحناجر
فى الشام فى بغداد خلـ ـف سجوننا السود الفواجر
فى القدس تحتضنُ الصبا ح وتستفيق على البشائر
فى قمّة حمـــــراء تو رق بالرجولة فى « الجزائر »
كنا العروبة علقت أنفاسها بزئير زائر

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تصوير صدى الحدث العظيم ورد فعله لدى المستعمرين وتلويحهم بالحرب والدماء ثم يرحب بالمعركة الآتية لامحالة ، يرحب بخوضها بعد أن شحن العزائم والهمم لملاقاة الكرائه فيقول :

وأفيق من حلمى لأسـمع فحّة الأفعى الطعين
البغىُ ولولة تصُكّ مسامع البلد الأمين
الراكعون وقد علتـهم صفقة الحق المبين
الغادرون يلوحـو ن لنا بقاصمة المتون
السارقون دمى ودمـعك عبْرَ معتمة القرون
المائدون على الحصو ن الزائلون مع الحصون
المجرمون يلوّحـــو ن بقبضة الوحش الطعين

* * *

أهـلا بمعركة اللقـا ء تسلّ ثارات السنين .

أهلا بملحمة الخلو د تدقُّ أبواب العرين
كم رمّةٍ هجعت تما مل للقاء ... وكم دفين
يا أمتى ما لِنتِ فى حلك الكفاح ولن تلينى

وهكذا نرى كيف هيأ الشعراء للمعركة النفوس وشحنوا لها العزائم، إنهم قادوها بأقلامهم وملكاتهم ، لقد كان كل شاعر يزأر من كل قلبه وبملء أحاسيسه ونبضاته ، إن الشعراء جميعاً فى الوطن العربى عبأوا المشاعر فى عنف وشحذوا العزائم فى قوة ، وحببوا الفداء والموت والبذل إلى كل نفس ، لقد هيأوا النفوس لخوضها دامية وأثاروها سياسياً ووجدانياً وعاطفياً فى أسلوب سائغ دافق رائق مبين يندفع عارماً كما يندفع السيل الكاسح فى غير ما صناعة أو تأنق ، لم يكن لديهم وقتاً للتأنق فى اللفظ وانتقاء العبارة ، ولذلك جاء شعرهم رائعاً صادقاً سلسالا ينفذ إلى القلب والوجدان لأنه دفعة الفؤاد ونبضه الثأر ورغبة البقاء وحفاظ الحياة ... حياة العرب جميعاً فى كل مكان وكل إقليم، لقد خاض شعراء العرب من كل قطر وكل مصر المعركة بنفس الروح العزيزة والهمة العالية والعاطفة الدافقة الدافعة العنيفة العنيدة التى تبذل الدم وتلح فى الصمود وتسعى إلى النصر ثم تسعى إلى الحياة .

وصف المعركة

إذا كانت بعض الشعراء قد هيأوا ملكاتهم وجندوا أقلامهم لإعداد النفوس لخوض المعركة التى آمنوا بها وبوقوعها ، فإن فئة أخرى منهم قد جندت ملكاتها لوصف المعركة وتسجيل أحداثها وما حدث فيها من بطولات وما سال فيها من

دماء وماقتل فيها من أطفال وعجائز ، سطروها لأبناء العرب فى كل مكان وسجلوها للأجيال القادمة حتى تعرف ثمن المجد وتحافظ عليه فإن ثمنه دماء وأرواح وتضحيات وعرق ودموع ويتم وثكل وترمل وفقر وصبر وحرمان .

يقول الشاعر المصرى على الجندى مخاطباً المدينة الباسلة « بور سعيد » :

لجبينك السامى الأشم الغارُ ولخصمك الباغى الأثيم العارُ
يازهرة المدن الحرائر لم يخن عهد الوفاء حماتك الأحرار
عطفوا عليك نحورهم وصدورهم فكأنهامن دونك الأسوار
وفدوكِ بالأعمار وهى نفائس ولمثل قدرك ترخص الأعمار

بعد هذه المناجاة الحانية يصف الشاعر هبوط الجند من السماء وما حل بهم من الهلاك ، وما أنزلوا بالمدينة من سوء فيقول :

هبطوا عليك من السماء وبادروا أن السماء على حماك تغارُ
فتلقَّفَتْهُمْ فى الهواء صواعق فيها المنون ، ولفَّهُم إعصار
وأتتهمُ من حيث لا يدرونها نار ، وللمتجبرين النار
أفديك فديت الحمى ووقيته والبر يعرف عنك والإيثار
إن قتلوا الضعفاء فيك فإنه عار يسود صحفهم وشنار
أو هدموا الجدران منك فإنما عصم البلادَ جدارك المنهار

ثم يصور الشاعر غدر الغزاة وخيانتهم وبعدهم عن الوفاء للمدينة التى طالما آوتهم وأطعمتهم وأكرمتهم فى أيام محنهم فيقول :

يا أيها الباغي المدل بيأسه ... وببطشه، بطشت بك الأقدارُ
باتت جنودك « بالمناخ » مآدبا ... عكفت عليها الوحش والأطيار
تلك الشهيدة كم نزلتم دورها ... وأواكمُ أبناؤها الأبرار
كم اطعمتكم كم سقتكم كم بها ... أضفى عليكم ظله آذار
لو كنتمُ ينض الخلال لطوفت ... منكم بها الحجاج والعمار
لكن جحدتم صنعها وجميلها ... سحقاً لكم ياأيها الفجارُ

والشاعر المصرى محمد على أحمد يصف ماحل بالمدينة الجميلة وقصورها ومغانيها ويخاطبها قائلا :

يا ابنة المجد : أى ملحمة كبرى توالت أحداثها فى مجالك
هجمات محمومة وانتقام ... بربرى أعد لاستئصالك
فالأساطيل رابضات على الشط ... يُدمدِمن باللظى من شمالكْ
والمغيرات ناعبات على الأفق ... كسرب الغربان سود حوالكْ
والشياطين يهبطون من الجو ... لهتك المصون من أسدالك
يحملون الخراب والثكل واليتم ... إلى كل آمن فى ظلالك
والقصور الشماء تهتز فى عنف ... وتنهار فوق أشلاء آلك
واللهيب المسعور يزحف فى رقص ... كئيب على مغانى جمالك
منظر لو رآه « نيرون » لارتاع ... إذا حملوه وزر اشتعالك

ثم ينتقل الشاعر إلى تسجيل كفاح وبطولة أبناء المدينة من رجال ونساء فيقول:

وبنوك الأحرار يمشون فوق النـــار لا يرهبون خوض المهالك
دافعوا الغاصبين عن كل شبر   واستماتوا فى الذود عن أقفالك
يتهاوون فى ثراك وقد عضـــوا ابأسنـانهم على أطلالك
يالهـا من بطولة كالأساطــير توالت أطيافها فى خيالك
أصبح المدفع الرهيب المـدوى   دمية للصغـار من أطفالك
والعـذارى المنعمات ينـافســن الفدائى فى الوغى من رجالك
فى أعالى البيوت ، فى الشرفات الـ   بيض فوق الأشجار بين المسالك
صرخات مشبـوبة وصراع   دموى ذادوا به عن مآلك
اثبتوا للعـدو أن منال النجـــم أدنى لـكفه من منالك

ويصور الشاعر المصرى محمد التهامى صراع بور سعيد وصمودها يوم الـكريهة وما بذلت من دماء وماحل بالمهاجمين من خسائر فيقول :

قسما بشعبك « بر سعيدْ »   قسما بموقفك المجيـدْ
وبراية الأبطـــال يتـ   ـقلها الشهيد إلى الشهيدْ
وجماجم الأعداء تهـ   ـوى فوق أرضك كالحصيدْ
والثابتين لديك والدنيـــا بمن فيها تميـــدْ
قسما بعزمك فى النضا   ل وروح أهلك فى «الصمود»
فلأنت فخـــر العاليـ   ـن وأنت معجزة الوجودْ

* * *

ولقـد فديت مواطنيـ   ـك من الثغور إلى الصعيدْ

ودفعْت من دمك الزكـــي ضريبة الشرف العتيدْ
ووقفْت كالعملاق يطـ   وى كل شيطان مريدْ
وتقــاصرتْ عنك المدا   فع والقنــابل والحشودْ
خسروا بساحتك الألو   ف وقلتِ : هل لى من مزيدْ؟
وتزلزلت شم الجبــا   ل وحصنك العــالى وطيد
ورويت من قصص البطو   لة كل لمــاح شرودْ
وحكتْ شوارعك الطو   ال بطولة الشعب العنيد
فى كل نافذة وبا   بٍ قد كتبت لنا الخلود
بدم الشباب دم الشيو   خ دم الفتــاة دم الوليد

ويمضى الشاعر فى وصف أمجاد المدينة البــاسلة التى أصبحت مضرب المثل فى البطولة والفداء إلى أن يقول :

حسبوك مفخرة الجنــو   د فكنت مقبرة الجنودْ
حفــروا خنادقهم لديـ   ـك كأنما حفروا اللحودْ
وبدوا أمام العــالميـ   ـن دمًى يغطيها حــديد
كتبوا نهــاية مجدهم   هيهــات ما ماض يعــودْ
لم يصبحوا بين الكبا   ر ولم يعــد لهمو سنيد
سقطوا فمــا قاموا ولم   يصبح لهيبتهم وجــود
لا الانجليز ولا الفــرنـ   ـس ولا ذيولهم اليهود

والشاعر المصرى هاشم الرفاعى يصور المعركة بأبيات من قصيدة طويلة فضح فيها المعتدين وتغنى بالسلام الذى نحبه و إذا كنا نخوض الحرب فإنا نخوضها مكرهين لاهائبين ، يقول الشاعر فى تصوير المعركة :

وذاق شياطين المظلات بأسنا ... فأوردهم بحرا من الهول أسودا
وقاومهم شعب إذا سيم خطة ... من الذل لايلقى إلى الذل مقودا
مؤامرة كانت أعدت فأحكمت ... ولكنها ضاعت على بابنا سدى
وما قدروا إقدامنا حق قدره ... فأحبط ما قد دبروه وأفسدا
وكائن وقفنا فى لظى الحرب وقفة ... تجسم منها للبطولة مشهدا
بكل فتى يهفو إلى الدم سيفه ... فلا ينثنى حتى يروّى له صدى
كتائب إن طالعتها يوم زحفها ... تروعك من أيمانها النار والمدى
كذلك نحمى النيل من كل طامع ... ونسعى إلى الهيجاء كهلا وأمردا

ويستمر الشاعر الذى نلمس الفحولة فى شعره رغم أنه لايزال طالبا فى المرحلة الجامعية من التعليم يسطر أمجاد قومه على رسله من هذا الأسلوب الجزل الملىء فيصف ما حل بالمعتدين قائلا :

وفى الساحل المخضوب قامت مدينة ... تسطر أمجادا ، وترفع سؤددا
فلم تخش نسر الجو يرسل فوقها ... شواظاً بها شب الضرام وأوقدا
ولم ترهب الأسطولَ والحتفُ جاثمٌ ... على ظهره يسعى إليها مهدِّدا
فكم هابط فى كفه الموت مذ هوى ... تلقفه رامٍ له وتصيّدا
وكانت لهم «دنكرك» أخرى ولم تكن ... «كبازينس» للألمان صيْداً معبّدا

ويمجد الشاعر الأردنى حسين رشيد خريس نضال بور سعيد ويصف المعركة وما فيها من هول وما وقع على المهاجمين من هزيمة وفناء رغم تعدد الوسائل التى لجأوا إليها كى يخضعوا المدينة الباسلة فيقول :

وقفت تناضل حـــرةً　　وترد كيد المعتدى
فاهتف بهـا يرتدّ صو　　تك ألف صـوت مرعد
ولظى يذيب المعتـدي　　ن مع الأصمّ الجلمـد
فالبعض تجـرفه الدما　　ء إلى الخضمّ المزبد
وكذاك كانت « بورسعيد »　　شماء تهزأ بالوعيـد
والنار والدم والحديد
أمدينـة الفتح التى　　شقت لنا طرق الخلود
ومضت بنـا نحو العلا　　بالبـذل والعزم الشديد
طابت رحابك معقـلاً　　للعز والشرف العتيـد
لازلت مقبرة الطغـا　　ة وكل جبـار عنيـد
علمتنا شرف الفـدا　　ء وكيف بالغالى نجود
فلتسلمى يا « بور سعيد »　　للثأر مشعله الجديد
وكذاك كانت « بورسعيد »　　شمـاء تهزأ بالوعيـد
والنار والدم والحديد

ويحكى الشاعر اليمنى محمد محمود الزبيرى قصة المستعمر المتوحش الذى نهل الشرور حتى ارتوى إثما ووحشية فيقول :

في دياجير الأساطيـ ـر وأنقاض العصورِ
يتراءى في غموضٍ شبحُ الإثم الكبيرِ
حاسراً عن وجهه المنـ ـكر أصباغ الدهورِ
شاربا من دنّه الوحـ ـشيّ أرواح الشرورِ
لابسا من سدفة الغا ب ومن جلد النمورِ
شملةً تنزع عنـ ـه كل حسّ وشعور

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف ألوان الوحشية التي أنزلها « ثالوث الاستعمار » انجلترا وفرنسا و إسرائيل بالشعب في بور سعيد لعله يستسلم فيقول :

دول العدوان ثالو ث بلاء مستطير
حشدت في « بر سعيد » كل أهوال السعير
طمعت أن يركع الشعـ ـب ويعنو للمغير
روعته بدم الأطـ ـفال والدمع الغزير
وبقايا من أكفٍّ ورءوسٍ وصدورِ
وعيونٍ طائراتٍ في مناقير الطيورِ
وقصورٍ حولتها الـ ـحرب أشباه القبور
وقبورٍ آوت الثـوّ ار من بعد القصور
زاحم الأحياء موتا هم بها غُبر الشعور

ولعل الشاعر يشير إلى جنود المقاومة البواسل وقد تربصوا للأعداء داخل القبور حتى إذا ما واتت الفرصة انقضوا عليهم وأنزلوا بهم الهزيمة النكراء في

فى معركة « الجبانة » المشهورة التى حالت بين المهاجمين و بين غزو المدينة براً واضطروا بعدها أن يغيروا خطتهم و يغزوها من البحر .

ثم يخاطب الشاعر أمجاد المدينة ومقاومتها المجيدة فيقول :

يا دماء الشعب ثورى　　واصنعى روح الصقورِ
حطمى أغلالك الرُّبْـ　　ـد بإعصار السعيرِ
واسحقى باللهب الأحـ　　ـمر نيرًا بعد نيرِ
واصهرى فى حقدك المسـ　　ـموم أنياب المغير
فإذا الغاصب فى خطـ　　ـبٍ من الغزو عسير
لم يجد أمْن مقامٍ　　لا ولا أمن عبور
فهو محصور بشعب　　باسل الروح غيور
وجحيم من حواليـ　　ـه وحقد ونفور

والشاعر السودانى إدريس محمد يصور مشاعره الفائره إزاء الاعتداء على مصر فى بور سعيد فيقول :

بى ما بصدرك يامصرىُّ من لهبِ　　وشيجة الحق والتاريخ والنسبِ
عمَّ البلاد ذهول لا تحدده　　حدود أرض ومشبوبٌ من الغضبِ
هذا الدم الفائر المهتاج نبعثه　　نارا ونحرق منه كل مغتصبِ

ثم يمضى الشاعر فى لعن المعتدين وتدافع العرب جميعا إلى خوض المعركة مع إخوانهم فى العروبة والأصل والحسب ، وينتقل إلى وصف صمود بور سعيد فيقول :

«بور سعيد» نشيد ملءُ صفحته ... بطولةٌ وحماسٌ دافقٌ عربى
وكل ساكنها أجناد معركة ... وطفلها فى الوغى ينقض كالشهب
ماراعها زاحف يصلى شوارعها ... ولا الردى هابطاً من مربض السحب
ولا البوارج فوق البحر تقذفها ... والنار تنصبُّ عن بُعدٍ وعن كثب
ولا حياض دم المستشهدين بها ... وما تبدّى من الأطلال والعطبِ
ماراعها بل أثار الناس فى دمها ... فأوردتْ ظالميها شرَّ مُنقلبِ

ويصف الشاعر المصرى كمال عبد الحليم تربص الفدائى المدافع عن عرينه وخوضه المعركة شارعا بعد شارع ودربا بعد درب فيقول :

هناكْ . . . وفى فجوة من جدارْ
وفوق الحطام وبين الدمارْ
وصوت الردىّ مثقل بالغبارْ
أخى كان يحرس ضوء النهار
ومدفعه يصنع الانتصار

***

سلام على شارع بعد شارعْ
على كل قطعة أرض تدافعْ
على مارد صدره كالمزارعْ
وفى قبضتيه ألوف المدافعْ
وأنفاسه كانطلاق الزوابع

ثم يتحدث الشاعر عن السلام الذى صنعناه بانتصارنا فنحن لم نخض الحرب من أجل الحرب ولكن خضناها لنهزم العداة ونصنع السلام فيقول :

سلامٌ أضاءته أعراضنا
سلام ستبنيه أتقاضنا
وتُنْبِتُه فى غدٍ أرضنا
صغار يتيه بهم روضنا
وهم يمرحون .. وُلدنا هنا

ويهدى الشاعر المصرى حسن فتح الباب قصيدة إلى روح البطل جلال دسوقى أحد أبطال معركة « البرلس » البحرية التى خاضتها البحرية العربية المصرية ضد بحرية المعتدين وأغرقت سفنهم وحالت بينهم وبين احتلال الشاطىء المصرى ، يقول الشاعر مخاطبا الشهيد :

مضى فى خضم الوغى كالشهاب يشق طريق الردى والدمارْ
وخفاقة كهدير العباب يفجّر شلال نور ونار

***

وصوت الملايين فى مسمعه تزمجر أصداؤه العاصفهْ
فداء له الدم فى مصرعه ميلا لأمواجها الزاحفهْ

ثم يلقى الشاعر أضواء على المعركة البحرية والدور العظيم الذى قام به البطل فيها حينما قاد زورق الطوربيد وصب نيرانه على سفن الأعداء فيقول :

طوته الدياجير فى زورق ... يصب على البغى سيل الحمم
كأر باب مصر مضى يلتقى ... بأمجادهم شامخا كالهرم

* * *

تهاوى لغضبته المحرقه ... سفين القراصنة الواغلين
وناء بنيرانه المغرقه ... فألقى إلى البحر شر البنين

* * *

وقد نذر الروح فى عوده ... سياجاً من الهول يحمى الديار
فضحى لتخلد من بعده ... بطولة شعب أذل التتار

ويصور الشاعر المصرى محمد أحمد العزب الاعتداء فى صورة قصة بدأت بهمس الحب وخفقة القلب بين حبيبين تهيآ لبناء عش سعيد، يصور مناجاتهما الهادئة التى تفسدها حرب المعتدين فيهب كل منهما إلى الدفاع والثأر، ويجرى الشاعر وصف الغزاة على لسان البطل المدافع فيقول :

السافكون دم التطور والحضارات العريقه
الحاقدون على سرى الإنسان حين رأى طريقه
الهادمون مجادة الدنيا وروعتها الرشيقه
قد أقبلوا ليصوحوا أفنان دوحتى الوريقه
ليحطموا مستقبلى الضاحى وأحلامى الرقيقه
ليبعثروا حبى وحبك فى متاهات سحيقه
أنا سوف أصمد للزحوف ومدفعى بيدى وثيقه
لن يعبروا إلا على الأشلاء فى أرضى العريقه

* * *

وتفجر البركان بالهول المضرم واللهيب
والمارد العملاق طواف بمدفعه الرهيب
يشوى به قرصانهم فى ساحة القفر الجديب
حتى الرمال السحم ، والأمواج ، والأفق الرحيب
ثارت ، فزلزل بالسفين البحر فى حنق عجيب
وأربد بالحقد المقدس ذلك الشفق الخضيب
وسرت بأعماق الرمال ضراوة الثأر الصليب
وطنى به ولد الفداء فلن يذل ولن ينيب

وهكذا يصف الشعراء المعركة وروعتها و بسالتها وما جرى فيها من صمود واستشهاد ومنعة ودماء فى بر وجو وبحر ، كل يتناولها من الزاوية التى يرسمها له وجدانه وفطرته الشعرية ، والواقع أن الشعر الذى قيل فى وصف المعركة كثير حتى أن الشاعر الواحد كان ينشد فى كل يوم قصيدة بدافع الدماء التى تغلى فى عروقه والدماء التى تسيل أيضا من أعدائه على ثرى أرضه .

و إذا ما التفتنا إلى طبيعة الشعراء وهم يصفون المعركة وجدناهم بعيدين كل البعد عن التأنق والصناعة وهما لازمتان من لوازم فن الوصف عادة ، ذلك أن الوصف هنا ليس عملية شعرية تقليدية و إنما هو تجربة عاصفة تعيش فى أعماق الشاعر وتلهب وجدانه فتخرج إلى إطارها النهائى معبرة عن طبيعة الحدث الكبير التى أنشئت من أجله ، ومن هنا كان وصف الشعراء المعركة لا يقل روعة ولا عمقا ولا عاطفة عن طبيعة شعرهم وهم يهيئون لها و يلهبون المشاعر للإقدام عليها و يجيشون العواطف لخوضها . كان شعر المعركة جميعه نابضا بالحياة معبرا عن أحداث جسام فى غير

ما تعنت أو تعسف أو إسراف ولذلك فإن المعركة كما ساهمت فى تحرير الوطن فإنها قد ساهمت أيضا فى تحرير الشعر من كثير من آفاته .

الشعر غير الملتزم فى المعركة :

لم يتخلف الشعر غير الملتزم عن المشاركة فى المعركة بل يمكن أن نقول إنه قد خاضها جنبـاً إلى جنب مع الشعر الملتزم ، فظهر على مسرح الحياة الشعرية إنتاج وفير يخوض المعركة ويصورها .

غير أن الذى لاحظناه أن أكثر هذا الشعر كان رديئاً مزقا يسيء إلى جمال الشعر وإلى جلال المعركة نفسها بحيث لا نستطيع أن نطلق عليه اسم الشعر أو مدلوله، فكلام لا يلتزم حتى وحدة التفعيلة لا يمكن بأى حال أن يسمى شعراً ، ذلك أن الشعر موسيقى والتفعيلات هى « الوحدة » الموسيقية التى توقع النغم على أوتار القصيد .

ولقد حاولت أن أستقصى السبب فى هذا القصور فاستعرضت الكثير مما نشر منسوبا إلى الشعر الجديد فانتهيت إلى نتيجتين :

النتيجة الأولى أن كثيراً من المتطفلين على مائدة الشعر ممن أرادوا أن يتهبوا لأنفسهم لقب شعراء قد دسوا أنوفهم فيما لا يعرفونه أو يفهمونه فظنوا أن كل كلام يكتب تحت بعضه على الطريقة الصينية يعتبر شعراً جديداً ومن هنا بدأوا يسودون الصفحات الطوال بكلام طويل سمج سخيف لامعنى له ولاطعم ولا لون ولا رائحة وأطلقو عليه — « بلطجة » واعتسافا — اسم الشعر وظنوا أن المسألة « هيصة » أو « مولد » فأساءوا إلى فن الشعر الجميل بعامة وأساؤا إلى المعركة الجليلة بخاصة .

والنتيجة الثانية أن من يحسنون كتابة الشعر غير الملتزم ويمكن أن نطلق على

إنتاجهم كلمة الشعر هم الشعراء الذين بدأوا ملتزمين أو على الأقل الذين يستطيعون كتابة الشعر ذي البحور والقوافي، فهؤلاء قد صقلت مواهبهم أولا ومرنت أذواقهم على البحور والقوافي والتفاعيل حتى تكيفت بها ملكاتهم ومواهبهم ثم بدأوا بعد ذلك ينزعون إلى التجديد وهذا أمر تقتضيه طبيعة التطور الفني الذي قد تكون طبيعته قيودا جديدة كما حدث مع الموشحات أو تحررا من القيود كما حدث مع الشعر الجديد . .

والحق أن هؤلاء الشعراء الذين أشرت إليهم والذين يحاولون التجديد في صوغهم للشعر قد شاركوا في المعركة بإنتاج رائع إيجابي عبر عن كوامن الشعور العام فأحسنوا التعبير ، فقد عاش كل في تجربته التي صاغها من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ولذلك فإن الأمثلة التي سنتمثل بها من الشعر غير الملتزم سنختارها من إنتاج هؤلاء الشعراء دون غيرهم .

فالشاعر مصطفى بهجت بدوي يكتب قصيدته بعنوان «لا نخاف المعركة» يعبيء بها الشعور القومي ضد الاعتداء ، والاعتداء من وجهة نظره سببه الأصيل إسرائيل وفرض وجودها علينا ومحاولة إرغامنا على الرضى بها والصلح معها فيقول :

مهلا فما تلك البلاد بميتة
ليست قصاصات لتاريخ اليهود
ليست ضياعا بين اقطاع اليهود
ليست «ملاينيا» بأرصدة اليهود
ليست شعوبا هالكه
بل وحدة متماسكه

ليست تخاف المعركهْ

هيهات أن تنسى جنايات العدا

هيهات أن تتهودا

ليست تريد الصلح ، بل لن تعقده

مجموعة أو مفرده

ليست فرائس مصيده

لن ترهب الضغط الشديدْ

« والعالم الحر » العتيدْ

لن تعقد الصلح البغيض مع اليهود

حتى ولو طال الأمدْ

من غير ما حق يرد

لكنه — حتما — يرد

لقد تصور الشاعر بواعث المعركة من زاوية سياسية فأحسن تصورها ووفق فى عرضها

والشاعر فوزى العنتيل يجند المشاعر ويلهب العواطف بقصيدته « لن يمر الأعداء » وقصيدته رغم أنها مما ينسب إلى الشعر الجديد إلا أنه التزم فيها القافية وحافظ على التفعيلة وإن لم يلتزم البحر ، ومع ذلك فقد جاءت قوية عنيفة فيها قوة دافعة وحياة دافقة والقصيدة مجموعة من صيغ القسم المقدسة التالية فيقول :

أقسمت بالشهداء . . لن يتقدموا فى أرضنا

لن يعبروها فوقنا

لن يعبروا الأرض التى اصطبغت بنور دمائنا
واخضوضرت أشجارها . . بدموعنا

* * *

أقسمت بالنيل المقدس . . لن يمروا من هنا
ليدنسوا تاريخنـــا
ويخضبوا . . أيامنا
أقسمت يامصر المجيدة بالـكفاح و بالضنى
بتراب وادينـــا الذى بذرته أذرع شعبنا
شجراً وأفراحاً تصفق حولنا

* * *

أقسمت بالفجر الذى بعثته مصر مؤذنا :
لطلائع الأحرار تستبق السنى
لـكتائب الفولاذ تخطف بالضياء الأعينا

* * *

أقسمت لن يرد الغزاة مياهنا
لن يستبيح الغاصبون حقولنا
لن يقتلوا أطفالنا
لن يقهروا الشعب الأبىّ المؤمنـــا
فلقد غرسنا فى الحقول سلاحنـــا :
شجراً مرير الطعم .. مسموم الجنى

لعداتنا . . للطامعين بأرضنا
لمخالب الوحش الكئيب . . منزمجرا فى دورنا
سنذود عن أوطاننا
بنضالنا . . . ودمائنا
سنرد ريح الموت . . . عن أزهارنا
ونصون أفراح الطفولة من أعاصير الفنا
إنا ركزنا للعدو . . . سلاحنا
وعلى روابينا الخصيبة أينعت أعلامنا
وتدفقت أمواجنا . . .
تجتاز أسوار الدجى القانى . . . لتحمى الموطنا
أقسمت بالشهـــــداء لن يتقدموا فى أرضنا
فلسوف تبقى أرضنا
خضراء ضاحكة يذهبها السنى
ونسيمها الفجرى يعتنق الغصون مدندنا
وغدا يسيل الفجر فى طرقاتنا
لتغرد الأطيـار فى أشجارنا
ليطرز النوار ثوب حقولنـا
ليزقزق الأطفال عبر دروبنا

***

وغدا يجىء ابنى . . . ويهتف هاهنا

ردّ الغزاة أبى . . . وصان الموطنا

والشاعر صلاح عبد الصبور يتناول فى قصيدته الثأر و يحض على قتل العدو الذى يسعى إلينا عادياً متلصصاً ، ولـكنه لا ينسى السلام ، إنه يغنى بالسلام الذى نريده ونعيشه وننشده فلسنا نبغى الحرب ولـكننا لا نحب أن يعتدى علينا يقول الشاعر :

ساقتلك
من قبل أن تقتلنى سأقتلك
من قبل أن تغوص فى دمى
أغوص فى دمك
وليس بيننا سوى الرصاص
وليحكم الرصاص بيننا.

* * * *

سنابك الجدود وقعها المهيب ما يزال
يموج فى ذاكر الأيام
ونورهم يختال فوق مفرق التاريخ
فمنهم الذى بنى حجارة الأهرام
لـكى يمجد الانسان حين يشمخ الإنسان
ومنهم الذى بنى منارة الإسلام
لكى يقول للأنام . . . لا إله إلا الله
ونحن فى حاضرنا المجيد نصنع السلام

هدية من شعبنا للعالم الجديد
عالمنا السعيد

. . . .

. . . .

أقسمت بالأهرام والإسلام والسلام
سأقتلك
بكل ماسقيت من مرارة الأيام
أغوص فى دمك

* * *

أقسمت بالأخ الذى قضى وخلته بلا ثمن
فى عامنا الماضى، ولم يلف حول جسمه كفن
لأنه احترق
على تراب غزة البيضاء بالطائرة احترق
كان اسمه نبيل
وكنت فى محبتى أدعوه بلبلى الحبيب
وكان راعف الجناح . . دائب الأسفار
وكان حينما يعود ينقر الوداد من فؤادى
حبتين حبتين
فحبة لجوعه، وحبة تذكار
وفى الأصيل كان يهدل اللقاء غنوتين

فغنوة لأهلنا وغنوة للدار
لكنه قضى ، وخلته بلا ثمن
أقسمت وجهك الجديب سوف يصبح الثمن
من أجله سأقتلك
من أجل ثأره أغوص فى دمك

وهكذا يتناول الشاعر موضوعه من زاوية يختارها و ينفذ منها إلى هدفه. فهو لا يصور المعركة مفصلة و إنما يختار جانبا منها ممثلا فى حالة من حالات غدر الأعداء أو اعتدائهم على الآمنين وتعكير صفو السلام الذى ينشده كل إنسان يمجد إنسانيته

وقريب من ذلك ما كتبه الشاعر البورسعيدى حامد البلاسى فى قصيدته « عم آدم » ، إنه نظر إلى الحرب كعمل وحشى بعيد عن الإنسانية، إن الحرب تحرم الانسان آماله وأحلامه ، وتحول بينه وبين أهله وأحبابه . .

إن الشاعر « العطار » حامد البلاسى يجمع كل أحاسيسه وانفعالاته تجاه الحرب التى اجتاحت مدينته الباسلة ويجسمها فى شخصية « عم آدم » البواب العجوز الذى يعيش فى بور سعيد يحلم بالعودة إلى مسقط رأسه « عطبرة » فتحول الحرب بينه و بين بغيته لأنه يموت قتيلا شهيدا لم ترحم القنابل شيبته ولم يرهب الرصاص غربته ، يقول الشاعر :

عم آدم
كان بواب العماره
كان شيئا أبيض الإيمان مشلول العباره .

لم يكن يعمل إلا أن يصلِّى
و ينــــــام
و يحب الناس كل الناس حتى الـكفره
لم يكن يملك إلا الحب للناس جميعا
كان إنسانا وديعا
كان عبدًا للسلام
ولـكل الـكلمات الطيبه
عم آدم
كان يهوى الطيب .. يهوى نفحات الصندل
و يقيم الذكر فى ليل الخميس
بانفعال مؤمن
و يغنى شوقه « للميرغنى »
كان شيئا طيبا عند الصغار
ولقد كنا كثيرا ما نراه
وحواليه الصغار
وهو يحكى أسطرا من عنتره
وحكايات أتت من عطبره
كان يروى والصغار
مرهفو الحس جياع
للسماع

كان يستجمع فى تلك السطور
كل ما يحمل من دفء الشعور
لحبيه هناك
كان يستوحشنا حين يغيب
فى مراعى عطيره

ويمضى الشاعر فى تصوير أشواق عم آدم إلى مسقط رأسه الذى يزوره كل عامين ليرى زوجه وأولاده ، ويستعد عم آدم للسفر فيشترى عقود الذهب والأساور والحناء والبخور وزجاجات العطور والفطائر ويعد نفسه للرحلة الحبيبة

أول الشهر الجديد
فى نوفمبر
سيسافر
وسيلقى من يحب
وسيأتى فى يناير
أول الشهر الجديد
لن تعيه بور سعيد
فلقد جاء اتهامات وبركان وعيد
ودماراً يأكل الدنيا ويجتث الوجود
كل شىء كان فى الأرض يميد
كل شىء كان فى الدنيا يموت
كانت البلدة للنيران قوت

الضحايا . . . والبيوت
والأمانى وابتسامات الشفاه
لم يعد فى الأرض ظلٌّ لإله
لم يعد إلا لهب
لهب من غير قلب
أحرق البيت الذى يعبد آدم
الذى من أجله كان يحب
والذى من أجله كان يعادى
فى « عبادى »
شارع الموتى الكثيرين وأنهار الحريق
وانتهت عند الصباح
قصة المستعمرين
قصة سوداء كالليل . . . حزينه
واستفاقت بعض أنفاس المدينه
لترى الموتى على طول الطريق
كجيوش النمل ملقاة على طول الطريق
فى « عبادى » و « بعباس » وفى قلب « المناخ »
كان فيهم « عم آدم »
كان يحلم
وهو نائم

بتراعى عطبره

ويشارك الشاعر احمد حجازى بقصيدته « أثبت بأعلى السلم » فلا يركز ميدان المعركة فى مدينة بورسعيد لأنها أوسع من ذلك مدى ، إنها فى «سيناء» وفى « الجليل » فى فلسطين ، إن أصل المصائب فى اليهود فيقول

اقتل مائه
تحية إلى جنود الانتحار
الرابضين فى ذرى سينا وفى بطن القفار
يحوّلون ليل اسرائيل نار
ويختفون بالنهار
اقتل مائه
باسم الغد المخضر فى أيامنا
باسم الغد من آلامنا
يوم يصير كل شىء لى ولك
يوم يعود النازحون للديار
ويمسحون عن شبابيك «الجليل» عتمة الغبار
ويستريح المغرب المجهد بعد المعركه
وتمحى الحدود
فى دولة بعيده .. تحدها البحار

***

اقتل مائة

تحية إلى معارك تدور
على سهول الموطن الكبير
تحية إلى رجال فى قلاع
لا يسأمون لذة الصراع
هم يقتلون عشرة ، ونحن عشرة
ويطلع النهار
ضياؤه ملطخ بالدم والغبار
لكنه انتصار
فاثبت بأعلى السلم
واقفز على الأشلاء والدماء
وافن بريق النصل فى الأحشاء
واصرخ وقاتل دون عطف دون رحمة بهم
يا أيها الدمار
يابحر نار ماله قرار
اضرب فألف أمة خلف البحار
وألف ألف فارس من أبعد الأصقاع
يستفسرون من هو المحارب الشجاع

والشاعر عبد الرحمن الشرقاوى ينفث كل ما فى نفسه من حقد وكراهية للمستعمرين الوافدين لما أسالوا من دماء وما قتلوا من أطفال وما استباحوا من أعراض فيقول :

الليل يهبط من جديد
بالرعب والظلمات والفوضى وسلطان الذئاب
والخراب
وتسيل من هذا الظلام
جميع أشباح الظلام
بكل أهوال الظلام
مسنونة الأنياب تزحف بالكريهة والسموم
كزواحف العصر القديم
يا بور سعيد ...
هم يهبطون ...
سيدمرون ... ويهتكون ... ويذبحون... ويسفكون
لا تتركيهم يزحفون
واحمى الصغار من الظلام
واحمى الحضارة والسلام
. . . .
. . . .
يا بور سعيد
قد عاد قطاع الطريق
عادوا كألسنة الحريق
كالعار، كالألم الزرى ليحرقوا أطفالنا

ليكبلوا خطواتنا

لاتتركيهم يرجعون

فسيحرقون ويحرقون

ويأخذون نساءنا

وتصير كل حرائر الوطن المفدى عاهرات

ويلوثون الذكريات

وسيطفئون ألاقة المستقبل الزاهى السعيد

بل لن يروا من جديد

يا بورسعيد

وبعد أن يضمن الشاعر جانبا من القصيدة كثيرا من معانى الحب والسلام اللذين اغتصبهما الانجليز يحض على حربهم ووقفهم فيقول :

ويلاه.

قد سطت الذئاب على القناه

لاتتركيهم يزحفون

هبطت خفافيش الظلام عليك يلهبها السعار

عطشى تحن إلى الدماء

جوعى إلى لحم الصغار

لاتتركيهم يهبطون

يا زوجتى وحبيبتى

يا كبريائى وانطلاقة قوّتى
لاتتركيهم يزحفون
سيدنسون غرامنا
و يلوثون فراشنا
وسيذبحون صغارنا

وهكذا نستطيع أن نسجل أن الشعر بمذهبيه قد استطاع أن يثبت وجوده فى المعركة وأن يخوضها بقوة وعنف وأن يخلدها كصفحة رائعة من صفحات فخار هـذه الأمة الموصولة الأواصر بالصفحات المشرقة المماثلة أيام الالتحامات الطويلة المباشرة التى وقعت بين العرب والغرب والتى ليس هناك من البشائر ما يدل على أنها قد انتهت

إن الزاد الأدبى الذى قدمه الشعراء لمعركة بور سعيد ومعركة القومية العربية ليس ثمت شك فى أنه عنصر من عناصر إنمائها وتثبيت جذورها والمحافظة عليها .

وهو بعد ذلك شعر وجدانى صادق ، بعيد عن الصناعة المفتعلة ، خال من الزخرف المصطنع الذى يحكّم اللفظ فى المعنى ، ومن هنا كان الإنتاج الشعرى الوفير الذى واكب المعركة وسجلها ونفخ فيها وخلدها تراثا يمكن لشعراء هذا العصر أن يعتزوا به كل الاعتزاز .

أما المحاولات الساذجة التى شارك بها شعراء مبتدئون أو غير ناضجين فقد ذابت وامحت وكأنها لم تكن ، لأن سنة الطبيعة قد جرت على أن البقاء للأصلح وقد بقى الشعر الصالح وانتهى ما عداه وأصبح نسيا منسيا .

الزجل

وإذا كان الشعر قد قام بهذا الدور المجيد فى المعركة فإن الزجل لم يتخلف بدوره عن خوضها والإعداد لها ، فالزجل هو شعر سواد الشعب أو هو شعر قد كتب باللهجة العامية التى تحسن التعبير عن كوامن أحاسيس ابناء الشعب بلغتهم ومصطلحاتهم و بساطتهم، وكان الزجل منذ أن ظهر فى الأندلس على يد ابن قزمان ولا يزال يلعب دوراً بارعاً فى أدب الأمصار العربية بل إنه كثيراً مايلعب أدوار الملاحم مثل ملاحم أبى زيد الهلالى وعنترة وأدهم الشرقاوى فى مصر ، ومثل قصص البطولة والحب التى تعرف بالميجانا والعتابا وأبى الزلف فى سورية ولبنان وغير ذلك فى جميع أصقاع الوطن العربى .

ولقد كان الزجل فى كثير من الأحيان أطوع فى التعبير لأن الشاعر يحتاج إلى ثروة لغوية ورصيد من الألفاظ يستعين به على الشعر وهو الأمر الذى يستغنى عنه الزجل لأنه ينبع من البيئة الشعبية واللهجة العامية .

يصف الزجال البورسعيدى حلمى الساعى الذى حضر المعركة وخاضها ، يصف مواقف قومه وملحمة الالتحام فى زجل طويل نجتزىء منه قوله

تسع تيّـــــام ما زار النوم خنادقنا
تسع تيـــــام وإيدنا فوق بنادقنـــا
تسع تيـــــام بنغسل أرضنا بالدم
ولا نخلّيش دخيل يلمس شواطئنا

* * *

تسع تيام بناخد روح عساكرهم
تسع تيـام بنا كل من مرايرهم
تسع تيام بنقتــل منهم ألوفات
ومين فاضى عشان يحصى خسايرهم

* * *

و ياما حـاولوا يغزونا بمظـــلاتهم
و ياما كات نارنا بتخيب محاولاتهم
ومن كتر اللى مات منهم على أدينا
بنينا حـطــان متاريسنا بأمواتهم

* * *

و يصف الزجال إشعال المهاجمين النار فى المدينة فيقول :

وفاجأوا الناس برمى النار على بيوتهم
تبخ الموت وتاكل أكل فى جثتهم
ما بين ستات فى قلب النار بتتلهلب
و بين أطفال تشيب ان شفت ميتتهم

* * *

وتيجى الناس تهج وتنجى م الولعه
تقوم مضروبه برصاصهم تروح واقعه
ولجل النار ما تاكل فى البلد أكتر

وتفنى الخلق حاشوا الميـــه م الترعه

* * *

وفضّلنا البـــلد تولع بما فيهـــا
ولا نسلمش مهما يصيب أهاليهـا
ونفضل صخره يفنى الخصم قدّامها
وبعـد النصر نرجع تانى نبنيهـا

* * *

ويصف الزجال بيرم التونسى المعركة فيقول :

صوت المــــدافع سبع أيام يطربنا
ويقول لنا يا عرب للنصر قرّبنا
وقبل ما يقولّـنـا مطّمنـة قلوبنا
واليوم بأقوى عزيمه للميدان طالعين
لما عرفنـا عـدانا من حبايبنـا

ويسخر الزجال الكبير من انجلترا التى كانت تعرف فى يوم ما بسيدة البحار فيقول :

ست البحار فى قنال شبرين غرقانه
إهانه يا انجلترا ما بعدها إهـانه
يامجرمين ياللى جيتونا على خيانه
الدنيا فى الحرب شايفاكم وشايفانا

و يسخر الزجال بيرم مرة أخرى من رئيس وزراء انجلترا « انتونى إيدن » لحماقته والمغامرة بحرب السويس التى أسقطته فيقول :

إيدن ياعايق حسبت الحرب دى عياقه
و بعت شعيلك لناس للموت مشتاقه
تحسبها فى «بورسعيد» و «المنزله» خناقه
لقيتها مدبح وأجنادك غنم فيها
وقف يقه ع الرايه صلح الياقه

و يسجل الزجال الكبير دهشته ، لماذا لا تضرب إلا البلاد العربية ولماذا لا يعتدى إلا عليها مع أن العرب أهل سلام ؟ وهم فضلا عن إسلامهم يحترمون المسيح و يعظمون أمه العذراء فيقول :

أرض العرب وحدها فيها الدما جاريه
من بعد مصر الجريحة تنضرب سوريه
متحسبوناش يا عالم حته من كوريا
واحنا اللى بنحب عيسى وستنا ماريه

والزجال عبد الفتاح الشرقاوى ينوه بالتضامن والاتحاد اللذين كانا طابع المعركة فيقول :

أخويا سبقنى على بورسعيد بيضرب خصومنا بإيد من حديد
وانا وابن عمى ح نمشى وراه و بسلاحنا نكتب تاريخنا الجديد

***

سلاحنا رهيبْ يصدّ الغريب　　وقوة هجومنا ف ميداننا القريب
أنا وابن عمى واخويا الحبيب　　ح نهزم خصومنا بعزم الأسود

* * *

ح نكتب بإيدنا وقوة ساعدنا　　تاريخنا اللى يشهد بقوة جهادنا
و بالحرب نرفع كرامة بلادنا　　و بسلاحنا نكتب تاريخنا الجديد

* * *

ح نهلك عدانا ونحمى حمانا　　ونحمى بحارنا ونحمى سمانا
ونحمى ترابنا ونحمى هوانا　　واخويا سبقنى على بور سعيد

والواقع أن فن الزجل قد واكب المعركة ساعة بساعة وانفعل بها وخصوصا فيما قدم من أناشيد حماسية لحنت بنجاح وأذيعت طوال مدة الحرب فكانت بمثابة الوقود الذى يزيد النار تأججا وقوة ولذلك فقد أدى دوره بمهارة كاملة .

الاناشيد الوطنية والالحان

لقد قامت الأناشيد الوطنية بدور هائل مبارك فى دفع المعركة إلى شاطىء الانتصار بما ألهبت من مشاعر وبما بثت من روح القوة والعزم بين المواطنين وبما ألقت على مسامعهم ووجدانهم من معان قوية جبارة وألحان عنيفة كأنها البراكين .

ولقد شارك فى هذا الميدان ، ميدان الأناشيد المؤلفون من شعراء وزجالين والموسيقيون الذين قاموا بتلحين الأناشيد ووضع موسيقاها ثم المغنون من مطربين ومطربات

إن الذى يجرى إحصـــاء للأناشيد التى لحنت وألقيت فى ظروف المعركة يجدها تصل إلى حوالى مائة وخمسين نشيدا تميزت بألوان مختلفة من تأليف وموسيقى وقد ذهب بعضها فى زوايا النسيان و بقى البعض الآخر الذى فرض نفسه على الزمن .

ولعل أشهر الأناشيد التى نالت دويا كبيرا ونجاحاً منقطع النظير فى جميع أقطار الوطن العربى كان نشيد « الله أكبر » الذى كتب كلماته عبد الله شمس الدين وقال فيه :

الله أكبر ... الله أكبر
الله أكبر ... فوق كيد المعتدى
والله للمظلوم خـير مؤيـــــد
أنـا باليقـين و بالسلاح سأفتـــدى
بـلدى ونور الحـق يسطع فى يـدى
قـولوا معى ... قـولوا معى
الله أكـبر

يا هـذه الدنيـا أطــلى واسمعى
جيش الأعـادى جاء يبغى مصرعى
بـالحـق سوف أهده وبمـدفعى
فإذا فنيت ... فسوف أفنيـه معى
قولوا معى ... قولوا معى
الله أكبر

قـولوا معى . . . الو يـل للمستعمر
والله فـوق الغـادر المتجـــــــبر
الله أ كبر يـابلادى كـــــــبرى
وخـذى بنـاصية المـغير ودمـــرى
قولوا معى . . . قولوا معى
الله أ كبر

والنشيد من تلحين الفنان محمود الشريف و إلقاء المطرب كارم محمود ، ولعل مبعث قوة النشيد وعنفه ونفاذه إلى أعماق النفس أنه قد لحن تحت ضرب الأعداء للوطن بالقنابل وكان الملحن فى حالة من الثورة عارمة فلقد كانت بلده تضرب وكانت زوجته مريضة تشكو آلاما مبرحة ، تحتاج الطبيب والدواء ولم يكن إلى الوصول إليهما من سبيل ، فى هذا الجو العنيف المشتعل، لحن الفنان النشيد .

ومن العجيب أن هذا النشيد يهز حتى هؤلاء الذين لا يفهمون العر بية وقد حدث أن المدرسة الثانو ية بالـكو يت أقامت حفلا تقليديا بمناسبة انتهاء العام الدراسى فى مايو سنة ١٩٥٧ أى بعد الاعتداء على بور سعيد بحوالى سبعة شهور وقد دعى إلى الحفل كما جرت العادة القنصل الإنجليزى والقنصل الأمر يكى فوصلا فى وقت معا ،وما أن دخلا حتى أنشد الطلاب هذا النشيد بما احتوى من عنف وقوة فحل بالقنصلين الفزع والرعب وعادا أدراجهما بسرعة وقد ظننا أن سوءا سيقع عليهما .

ذلك أن نشيد الله أ كبر عنيف فى موسيقاه قوى فى كلماته مثير فى أدائه .

ومن الأناشيد القو ية التى عاشت مع المعركة وعاشت بعـد المعركة نشيد « أنا النيل » الذى كتبه الشاعر محمود حسن إسماعيل وقال فيه :

أنا النيـــــــل مقبرة للغزاه

أنا الشعب نار تبيد الطغـــــاه

أنا الموت فى كل فج اذا . . .

عدوك يا مصر لاحت خطـاه

***

يد الله فى يد مصر القسم

على المعتدين تسوق العــــدم

تدك الطغاة وتحمى الحيـــاه

وترفع للشمس نور العـــلم

***

سنمضى لهم فى اللظى والشرر

ونزحف للنصر زحف القـــدر

وتغشى المعـارك فى كل شبر

من الأرض حتى نلاقى الظفر

***

لنا النصر . . والموت المعتدين

لنا النصر . . والموت للغاصبين

سنمضى رعودا ونمضى أسودا

نردد أنشودة الظـافرين

لقد لحن النشيد الفنان رياض السنباطى فوفق فى تلحينه توفيقا عظيما خاصة فى التوزيع الإيقاعى بين المطربة نجاح سلام التى قامت بأدائه وبين « الـكورس » ولقد نجحت المطربة فى أدائه بحيث بلغت الذروة فكانت تتمثل القوة الـكاملة التى تكمن فى هذا الشعب وهى تردد « لنا النصر » فيرد الـكورس « والموت للمعتدين »

ولا زال هذا النشيد من بين الأناشيد القوية التى فرضت نفسها على عواطف الجماهير .

وهناك النشيد الخالد «والله زمان ياسلاحى» الذى كتبه صلاح جاهين مناجياً سلاحه ثم واصفاً زحف الجنود وغليان الشعب ، ولقد قام بتلحين النشيد الفنان كمال الطويل ورددته أم كلثوم ، والنشيد يقول

والله زمان ياسلاحى	اشتقت لك فى كفاحى
انطق وقول انا صاحى	ياحرب والله زمان

* * *

والله زمان ع الجنود	زاحفه بترعد رعود
حالفه تروح لم تعود	إلا بنصر الزمان

* * *

هموا وضموا الصفوف	شيلوا الحياه ع الكفوف
ياما العدو راح يشوف	منكم فى نار الميدان

* * *

يا مجد يا مجدنا	ياللى اتبنيت عندنا
بشقانا وبكدنا	عمرك ما تبقى هوان

مصر الحره مين يحميها
نحميها بسلاحنا
أرض الثوره مين يفديها
نفديها بأرواحنا .

الشعب بيزحف زى النور	الشعب جبال الشعب بحور
بركان غضبان بركان بيفور	زلزال بيشق لهم فى قبور

ولقد تفنن الملحن فى جعل الموسيقى تواكب المعانى والألفاظ بانسجام وقوة كمان اعتمد على الكورس ذى الأصوات القوية الذى زاد فى روعة النشيد لحنا وأداء ، كما أننا لا نغفل بأى حال الاستهلال الموسيقى القوى الرائع الذى يسبق الأداء ؛ أسباب كثيرة تجمعت بين معان سامية وموسيقى رائعة ولحن قوى وأداء جميل فساهمت كل تلك العوامل فى خلق نشيد رائع أخاذ .

ولا ينبغى أن ننسى نشيد « هذه أرضى أنا » الذى كتبه الشاعر كمال عبد الحليم فبلغ فيه ذروة القوة شعرا ومعنى والذى يقول فيه .

دع سمائى فسمائى محرقه
دع قنالى فمياهى مغرقه
واحذر الأرض فأرضى صاعقه

هذه أرضى أنا
وأبى مات هنا
وأبى قال لنا
مزقوا أعداءنا

***

أنا شعب وفدائى وثوره
ودم يصنع للإنسان فجره
لن ترانى نازفا آخر قطره
وستبقى مصر حره .. مصر حره

دع سمائى فسمائى محرقه ـ دع قنالى فمياهى مغرقه ـ واحذر الأرض فأرضى صاعقه — هذه أرضى أنا ـ وأبى مات هنا ـ وأبى قال لنا ـ مزقوا أعداءنا

***

أنا عملاق قواه كل ثائر
فى فلسطين وفى أرض الجزائر
تنبت الأزهار من بين المجازر

دع سمائى فسمائى محرقه ـ دع قنالى فمياهى مغرقه ـ واحذر الأرض فأرضى صاعقه ـ هذه أرضى أنا ـ وأبى مات هنا ـ وأبى قال لنا ـ مزقوا أعداءنا

* * *

والنشيد مجزوء من قصيدة طويلة تفيض قوة وتنبض وطنية وتلتهب إنه حماساً ، إنه من أجمل ما قيل فى خوض المعركة من شعر ، ولقد قام بتلحينه على إسماعيل فوفق فى وضع موسيقاه والتوزيع الفنى بين المنشدين وساعده على نجاح مهمته قوة القصيدة وسلاسة نظمها وموسيقى ألفاظها ، وقد قامت بإنشاد النشيد المطربة فايدة كامل

ومن الأناشيد القوية التى كانت بمثابة النفير الذى ينفخ فيه لتجميع الفرسان إلى الحرب ، نشيد « المعركة » الذى كتبه محمد على أحمد واعتمد على قوة المصراع الواحد « إلى المعركة » وكرره فى كل مقطع من مقاطع النشيد ، فكان مصدرا من مصادر القوة والدفع والزحف وقد تكاملت عوامل التلحين والأداء والتوزيع الموسيقى والأدائى ، لحن النشيد الموسيقى محمد الموجى وقام بأدائه المطرب ابراهيم حمودة فكان أيضاً من الأناشيد الناجحة فى ميدان المعركة ، يقول النشيد.

إلى المعركه   إلى المعركه
سنمضى سويا إلى المعركه   وصوت المدافع ملء الفضاء
ونرجع والنصر يشدو لنا   وأعلامنا قبلتهـــا السماء
فهيىء سلاحك   للمعـــــركه
وثبت جناحك   للمعـــــركه
لمصر وجارات مصر الخلود   وأرض العروبة بيت السباع
إلى كل طاغ يمس الحدود   سنمضى ونحن الأسود الجياح
فنـاد أخاك   إلى المعـركه
وناد أباك   إلى المعـركه
بعثنا المشاة كنار الشرر   وأسرابنا فوق متن السحاب
ومدفعنا يتحدى القـدر   يشق الظلام ويطوى الشباب
فقدم وليدك   للمعـــــركه
وقدم حفيدك   للمعـــــركه
إلى النصر نمضى حنيناوشوقا   تهز الجبـال وتدمى الصخور
ونكتب للنيل مجدا سيبقى   وتفنى على قدميه العصور
فزود شبابك   للمعـــــركه
وجمع صحابك   للمعـــــركه
سنمضى .. سنمضى   ســويا .. ســويا

إلى المعـــــــركه

ويكتب الشاعر محمد على أحمد نشيدا آخر يعتمد فى معانيه على التعبئة القومية الداخلية بين المواطنين فى مصر والتعبئة الخارجية بين المواطنين فى الوطن العربى ، وقام بتلحين النشيد الملحن محمود الشريف وغناه كارم محمود ، وقد اعتمد الملحن على أنغام مقتبسة من أناشيد العمال أو الملاحين وهم يزاولون أعمالهم العنيفة ، وقد نجح النشيد لحنا وأداء وفيه يقول المؤلف :

م الشرقيـه والغربيه من كل بلادنا المصريه
جمعتنـا صفوف الوطنيـه نشترى بدمانا الحريه
أنا منصورى وأنا جرجاوى ودمنهورى مع طنطاوى
وادى أبويا وادى عمى قناوى وانا وتيم ياسكندرانيه

جمعتنا صفوف الوطنيه
نشترى بدمانا الحريه

وأنا سورى كمان وأنا لبنانى وسعودى بشارك إخوانى
ومراكشى وتونسى وسودانى أبنـاء الأمه العربيه

جمعتنا صفوف الوطنيه
نشترى بدمانا الحريه

من كل بلد من كل مكان اتجمعنا أبطال شجعان
نهدى الأرواح نفدى الأوطان نشترى بالدم الحريه

جمعتنا صفوف الوطنيه
نشترى بدمانا الحريه

ومن الأناشيد الناجحة ذلك النشيد الذى كتبة الشاعر عبد الفتاح مصطفى وأجرى كلامه على لسان أم نذرت ولدها ليوم الحرب وتدفعه للقتال ليأخذ ثأر أبيه الذى قتله المحتلون ولم يكن الابن قد بلغ سبعة أيام من عمره ، وليس من شك فى أن هذا النشيد قد أذكى الروح الوطنية عند الأمهات لأنه يجرى على لسان واحدة منهن ، يقول النشيد :

نادراك لليوم ده يا ولدى   تحمينى وتحرس بلدى
سافر مع ألف سلامه   يوم ما أوفى النذر ده عيد
يا شوفك هنا بكرامه   يا تروح الجنه شهيد

نادراك لليوم ده ياولدى

الفرحة بتجرى دموع   أنا شاكره إلهى وحامده
كان عمرك لسه سبوع   لما ندرتك لليوم ده
كان يومها المصريين   طالعين للمحتلين
وأبوك من وسط صفوفهم   قتله رصاص الخاينين

نادراك لليوم ده ياولدى

أنا كلى إيمان بالله   والموت حق ولا اخشاه
لاف بيتك تهرب منه   ولا وسط النار تلقاه
سافر واثبت لعداك   اثبت والحق معاك
ياتعيش وبلادك جنه   يا تروح للجنه هناك

نادراك لليوم ده ياولدى

* * *

لقد قام بتلحين هذا النشيد أو بالأحرى هذه الأغنية الوطنية الملحن «أحمد صدقى» وشحنها بالحنان المطعم بالقوة فكانت أغنية جميلة من أقوى أغانى المعركة تأثيراً على النفوس والعواطف ثم غنتها المطربة «أحلام» بصوتها الملىء بالقوة والحنان .

والواقع أن الأناشيد التى قيلت فى المعركة أكثر من أن يعيها أو يسجلها هذا الفصل من الكتاب وإنما رأينا أن نشير إلى ألمعها وأكثرها شهرة وجريا على الألسنة ومصافحة للأسماع .

لقد تفنن الشعراء والزجالون فى التأليف وخلق المعانى الجديدة ، بل لقد تفنن الملحنون أيضاً فى وضع الموسيقى واللحون واستمدوا ألحانهم من البيئة الريفية حيناً والعاملة حيناً آخر ، ومن البيئة البدوية حيناً ثالثاً والصعيدية حينا رابعاً وهكذا تركت لنا المعركة ثروة ضخمة من الألحان والألوان الموسيقية التى جرت على ألسنة المطربين والمطربات .

ولم يقف الأمر عند الأناشيد وحدها بل إن الامر تعدى ذلك إلى الأغنيات نفسها فانطبعت كلها خلال المعركة وبعدها بطابع القوة والسمو حتى بتنا ننتظر مولد فن رفيع سام يسير بخطى سريعة إلى ذروة نبتغيها وكنا قد افتقدناها زمناً طويلا .

ولكن الذى يدعو إلى الأسف أن الملحنين والمطربين والمطربات لم يحسوا القيمة الرفيعة لهذا الإنتاج الذى ساهموا فيه فما لبثوا أن رجعوا القهقرى من جديد ونزلوا بالفن إلى تملق الغرائز الدنيا، الرجال منهم والنساء على السواء إلا عدد قليل لا يكاد يعد على الأصابع .

أصبحنا نسمع من الزجال تنهدات مصطنعة مدخولة على اللحن إدخالا لا تصدر عن العذارى فى خدورهن ، وفضلا عن تنافيها مع الفن فإنها تتنافى مع

الرجولة ، وأصبحنا نسمع من المطربات أصوات ليست من اللحن فى الشىء وليست من الفن فى شىء، أصوات تسىء إلى الأداب المرعية وتخدش الحياء العام، أصوات لا هى كلام أو ألفاظ ينتظمها نص الأغنية ولا هى أنغام أو ألحان ينتظمها اللحن نفسه ، وهنا وجه الغرابة إذ كيف يستبيح المطرب أو المطربة أن يخرجا بالفن و ينحرفا عنه إلى الاساءة إلى الآداب العامة باسم الفن وتحت ستاره .

وهكذا لم نكد نخرج من المعركة حتى ضاع الكنز الثمين ، كنز القوة والسمو اللذين اتصف بهما الفن وا كتسبهما خلال المعركة .

ولكن أغلب الظن أن الأحداث الكبرى التى يجتازها الوطن العربى هذه الأيام والأيام المقبلة أكبر من هذه الصغائر التى يرتكبها بعض المطربين والمطربات وستدوسهم الموجات الزاحفة وتقضى عليهم وعلى فنهم المتهافت المخنث الرخيص إن لم يعودوا إلى الانفعال بالأحداث الكبار التى نحياها ونعيشها والتى إن لم يسايروا ركبها كتبوا على أنفسهم الفناء لكى يحل محلهم جيل أفضل يحس بما يحسه الشعب و ينسجم مع أحداثه الكبار .

القصة في المعركة

القصة فن حديث ناشيء من فنون أدبنا العربى ، بدأت تفرض نفسها على على مجتمعنا الأدبى منذ فترة وجيزة لا تكاد تتعدى العشرين عاما وإن كانت قد عرفت وكتبت قبل ذلك بحوالى عشرين عاما أخرى أو تزيد قليلا .

ولكن المهم أن فن القصة كلون أدبى عربى معاصر ناضج لم يحتل مكانه بيننا إلا منذ مدة قصيرة قطع فيها أدباؤنا أشواطاً بعيدة رائعة وسجلوا فيها مجموعات ضخمة من القصص القيمة بين قصيرة وطويلة وأصبح من اليسير علينا أن نقول إن لدينا قصة وإن لدينا أدباء قصاصين .

لقد ظهرت القصة إذن على مسرح الحياة الأدبية ، وهى كمثيلاتها من الفنون الأدبية الأخرى تتأثر بالجو الذى تحيا فيه وتنفعل بالأحداث التى تتعرض لها البيئة شأنها فى ذلك شأن الشعر والموسيقى وبقية الفنون الأخرى .

فلما نشبت معركة بور سعيد بدأت القصة تتخذ مكانها فى الميدان بسرعة وقوة وبراعة ووفرة وكانت كلها تمجد البطولات التى قام بها المواطنون الأبطال تجاه المعتدين أو تحض على الثأر أو تشحن القلوب وتشحذ الهمم وتلهب المشاعر إلى غير ذلك من أجواء المعركة وملابساتها .

عشرات من قصص المعركة كانت تظهر يومياً على صفحات الصحف والمجلات كان يتسابق الكتاب إلى إنتاجها والقراء إلى تلقفها وهضمها فسارت القصة جنباً إلى جنب مع الشعر الذى ظهر وفيراً كثيراً قوياً فى أغلب قصائده كما قد أشرنا من قبل عند الحديث عن شعر المعركة .

قصص ليوسف إدريس وسعد مكاوى وابراهيم الوردانى ومحمود البدوى وسعد حامد وجاذبية صدقى وعبـد اللطيف واكد وحسن البسيونى وابراهيم عبد الحليم وغيرهم من كتاب القصة وكلها تتصل بالمعركة اتصالا مباشراً ، ولا يتسع المجال هنا لاستعراض جميع ما كتب فى هذه المناسبة ولكننا سنحاول أن نستعرض بعضاً منها .

فقصة « الغارة » لإبراهيم الوردانى تصور جانباً طيباً من مشاعر الشعب وحماسته وتتلخص فى أن سيارة أتوبيس كانت تتجه بركابها إلى المعادى مع غروب الشمس ثم فوجىء الركاب بغارة جوية تقوم بها طائرات الأعداء فتتوقف السيارة بطبيعة الحال ويجرى حوار طريف بين الركاب حينما يخرج أحدهم رأسه من زجاج نافذة السيارة ويتابع الطائرات المطاردة والسائق يحاول أن يثنيه عن إخراج رأسه ولكنه يرفض لأنه يلاحق ببصره ابناً له فى الجو يقود إحدى الطائرات المطاردة المقاتلة وفى الحال يحتل الرجل مكانة المهابة والاحترام والتجلة بين الراكبين ، فلا يلبث راكب آخر ولعله يعمل جزاراً أن يفتخر بأن له شقيقاً يخوض المعركة فى البحر على ظهر أسطولنا القوى الفتى .

ويجرى الكاتب تياراً من الحركة والطرافة فى القصة حينما يفاجىء الراكبين بامرأة يجيئها المخاض فى السيارة وقد نشر الظلام جناحيه بسبب الغارة ثم تلد غلاما فيبتهج الركاب ويصفق الجزار ويصيح ملوحاً لبقايا دخان فى الأفق البعيد : قد تقتلون منا واحداً فى الشمال فتلد لكم غيره فى الجنوب . لن تنقصوا منا واحداً يا أقذار .

والقصة كما يبدو من موضوعها تستهدف استنهاض الهمم وشحذ العزائم

وتمجيد المحـــاربين وأهلهم و إظهار قوة عزيمة الشعب وشجاعته وترحيبه بالبذل والفداء .

وسعد حامد يكتب قصة « قتال فى الليل » ، إن القصة من وحى المعركة ولـكن المؤلف قد أجرى حوادثها سنة ١٩١٩ إبان الثورة الشعبية آنذاك ، والقصة تعالج موضوعين طريفين أحدهما وطنى والآخر اجتماعى ، موضوع الدفاع عن الوطن والعرض ، وموضوع الثـأر . وتتلخص حوادث القصة فى أن مجموعة من فلاحى إحدى قرى الصعيد قاموا بهجوم على أحد معسكرات المحتلين التى كانت منتشرة فى مختلف أنحاء البلاد فى ذلك الوقت ، قام الفلاحون بالهجوم على المعسكر المجاور لقريتهم وقتلوا مجموعة من جنود الأعداء ثم تفرقوا مسرعين كل إلى حيث يجد مأمناً ، وكان أحد هؤلاء الأبطال واسمه «عبد المقصود» قد ذهب للاختباء فى الحقول وجلس يستريح تحت شجرة ولا زال تأثر الوجدان على هؤلاء المحتلين الذين أذلوه وأذلوا وطنه وقومه عشرات السنين ، و بينما هو غارق فى تفـكيره وتأملاته إذ به يلمح واحداً من هؤلاء الجنود يحاول الاعتـداء على امرأة من مواطناته فلم يلبث « عبد المقصود » غير قليل ثم أفرغ رصاصاته فى ظهر الجندى فقتله ، ولـكنه يسمع صوت « داورية » إنجليزية فى الطريق إلى حيث صدرت الطلقات ، فجذب السيدة من يديها وسارع بها إلى القرية ودخل أول بيت صادفه ، ولـكنه يتبين لسوء الحظ أنه دخل بيتاً لأحد أعدائه وممن لهم ثأر لديه ، ويظن « عبد المقصود » أنه هالك لامحالة و يجد نفسه وجهاً لوجه أمام غريمه الذى ينتظر مثل هذه الساعة .

و يدق باب المنزل بعنف ، إن الإنجليز يسألون عن الثائر الهارب عبد المقصود ،

ويظن عبد المقصود أن غريمه سيسلمه لهم ، ويجمد فى مكانه ولكنه يفاجأ بصوت غريمه يرد على المحتلين « مفيش حد هنا » ويسمع عبد المقصود وهو فى مكمنه أقدام الجنود الأعداء وهى تبتعد شيئاً فشيئاً .

وهكذا تموت الحزازات وتذوب العداوات أمام العدو المشترك .

ومحمود البدوى فى قصته « الماس » يصور جانباً من أخلاق هذا الشعب إبان المعركة وقد اختار وقت الغارة الجوية موعداً لقصته ، ولكنه لا يسير على نهج ابراهيم الوردانى فى قصة « الغارة » بل يتجه اتجاهاً آخر . إن القاهرة تعيش فى جو من الغارات المتواصلة ، و « علية » الأم الصغيرة زوجة البطل المحارب فى الميدان تعيش وحيدة فى بيتها مع وليدها الصغير وهى لا تلبث صاعدة نازلة درج سلم المنزل الذى تسكنه كلما سمعت صوت الغارة ، إن المنزل خال من النساء لأنهن قد هاجرن جميعاً من المدينة ، ويحس جيرانها من الشباب بمتاعبها فيتفانوا فى خدمتها وتقديم العون لها ولرضيعها والعفة الكاملة هى الطابع العام لتصرفاتهم ، إنها أختهم ، أليست زوجة لبطل محارب فى الميدان ؟ البواب الأمين يقوم على خدمتها ثم يقتله رصاص الأعداء ، والشاب الذى يسكن الطابق الأسفل من المنزل يترك لها مسكنه ويهتم بصغيرها غير مقصر فى أداء واجب الدفاع عن وطنه إذ لا يلبث بعد قليل أن يموت فى الشارع شهيداً ويده على مدفعه .

إن هذا الشعب قد نبت من معدن نفيس ، إنه رائع الخلق ، إنه من الماس .

وسعد مكاوى فى قصته « مصرية » يتمثل المرأة المصرية العربية المكافحة الصابرة ، شاب يقود سيارته إلى بلدة «المطرية» بالقرب من بحيرة المنزلة ، ثم يشاهد امرأة تسير فى ثبات وعزم تحمل شيئا مغلفاً فى لفائف من قماش ، ويسألها الشاب

عن طريقها واتجاهها فتجيبه أنها ذاهبة إلى « مصر » ، وكان الشاب يسير فى طريق مضادة ، إنه ذاهب لكى يطمئن على أهله فى المطرية ، ويطلب إليها أن تركب معه إلى حيث أهله ثم يعود بها إلى القاهرة فتعتذر له وتعده أن تركب معه فى حال عودته لو أمكنه اللحاق بها ، ويجرى بينهما فى تلك الأثناء حديث يفهم منه أنها من بور سعيد وأن ما تحمله مغلفاً باللفائف ليس إلا بندقية ولدها مصطفى الذى خاض بها المعركة فى المدينة الباسلة ثم خر صريعا، إنها قد شاهدت ولدها وهو يحتضر بعد أن خاض المعركة بشجاعة فضمته إلى صدرها فهمست شفتاه فى أذنيها وأوصاها أن تسلم بندقيته إلى شقيقه محمود الذى يشتغل فى القاهرة لكى يكمل بها خوض المعركة ، فتنفذ المرأة الصابرة الوصية وتترك ولدها بعد أن يسلم الروح فى فناء المنزل وتبدأ الهجرة من بور سعيد ، ولكنها وهى غير بعيدة عن منزلها تشاهد نيران الأعداء تأكل المنزل وفيه جثة ولدها العزيز فتقول المواطنة الفاضلة « الآن استراح قلبى ، تأكله النار أحسن ما تبهدل جثته الأيدى النجسة » .

وتضرب أم محمود « المصرية » الفاضلة الأرض سعيا إلى القاهرة سيرا على القدمين لكى تحمل البندقية إلى محمود . إن ولديها بطلان نشآ يتيمين وكافحا فى الحياة وقضى أحدهما شهيدا . إنها بطلة هى الأخرى .

هذه نماذج من قصص المعركة وكانت كلها قصصاً ناجحة لأن عنصر العاطفة الذى يساهم فى إنجاح أغلب الأعمال الفنية لم يكن ينقصها ، بل كان موفورا فى صدق ، الأمر الذى جعلها تؤدى دورها فى نجاح وتوفيق .

والحق أن معركة بورسعيد قد أخرجت قصصنا من مواقف الجمود التى كانت قد تردت فيها وخلصتها من بعض العبارات المكررة « الكليشيهات » التى

التزمها كتاب القصة مثل «السواعد المعروقة» «والبشرة السمراء التى لوحتها شمس السماء الطيبة»، و «الأسمال البالية»، إلى غير ذلك من المعانى والألفاظ والمصطلحات التى كادت أن تتحجر على أقلام الكتاب، فلما جاءت المعركة أمدتهم بمادة خصيبة وموضوعات رحيبة تعرضوا لها فصادفهم الكثير من التوفيق لأنها مهما اتحدت فى الميدان العام ميدان البطولة والفداء، إلا أن الأساليب والأفكار التى شاركت فى بناء القصة كانت كلها أو أكثرها مما يساهم فى إنجاحها ورفع شأنها، خاصة وأن التناول كان كله تناولا إيجابيا فيه خصوبة فى الفكرة وسرعة فى الحركة وحبكة فى الأسلوب ومتانة فى التعبير.



« قتلوا طفلها »
للتلميذة هدى عثمان الباني

الفنون التشكيلية والمعركة

الأصل فى الفنون التشكيلية من رسم ونحت أن تكون استجابتها للأحداث العامة بطيئة بعض الشيء لما يحتاجه إنتاجها من وقت يختلف طولا وقصرا حسب العمل الذى يقدمه الفنان .

والواقع أن فنوننا التشكيلية لم تتخلف عن ركب معاركنا الوطنية منذ أن بدأ ضرامها يشتعل فقدمت على سبيل المثال تمثال نهضة مصر الذى نحته المثال «مختار» فى تيار الثورة المصرية سنة ١٩١٩ فانطبعت فيه لمحات قوية بارزة تنبىء عن مستقبل يفيض بالقوة والعزم والرخاء والسلام ، وهناك تمثال آخر يحمل نفس الاسم الذى يحمله تمثال مختار ومبدعه هو الفنان محمد ناجى .

« ونهضة مصر » لناجى من الأعمال الفنية الفذة التى لم يتح لها أن تخرج إلى الميادين العامة مثلها فى ذلك مثل التماثيل الأخرى ، بل ظلت قابعة حتى اليوم فى مبنى مجلس الشيوخ .

وتظل الفنون التشكيلية تواكب الحركات الوطنية ولكن ليس بالقدر الذى يسمح لنا أن نقرر أنها قد انفعلت بها بشكل مرضى أو استجابت لها استجابات إيجابية سريعة حتى حدث العدوان الثلاثى على بور سعيد ؛ وهنا تزمجر النفوس الحرة فى كل مكان فى الدنيا وتتحرك المشاعر الفنية لدى الفنانين على اختلاف ميولهم ويسارعون إلى الاستجابة للحدث الكبير والخطر الذى يهددهم ويهدد ديارهم وأرضهم ومستقبلهم .

ومع أننا ذكرنا قبل قليل أن الفنون التشكيلية بطيئة التفاعل من الأحداث

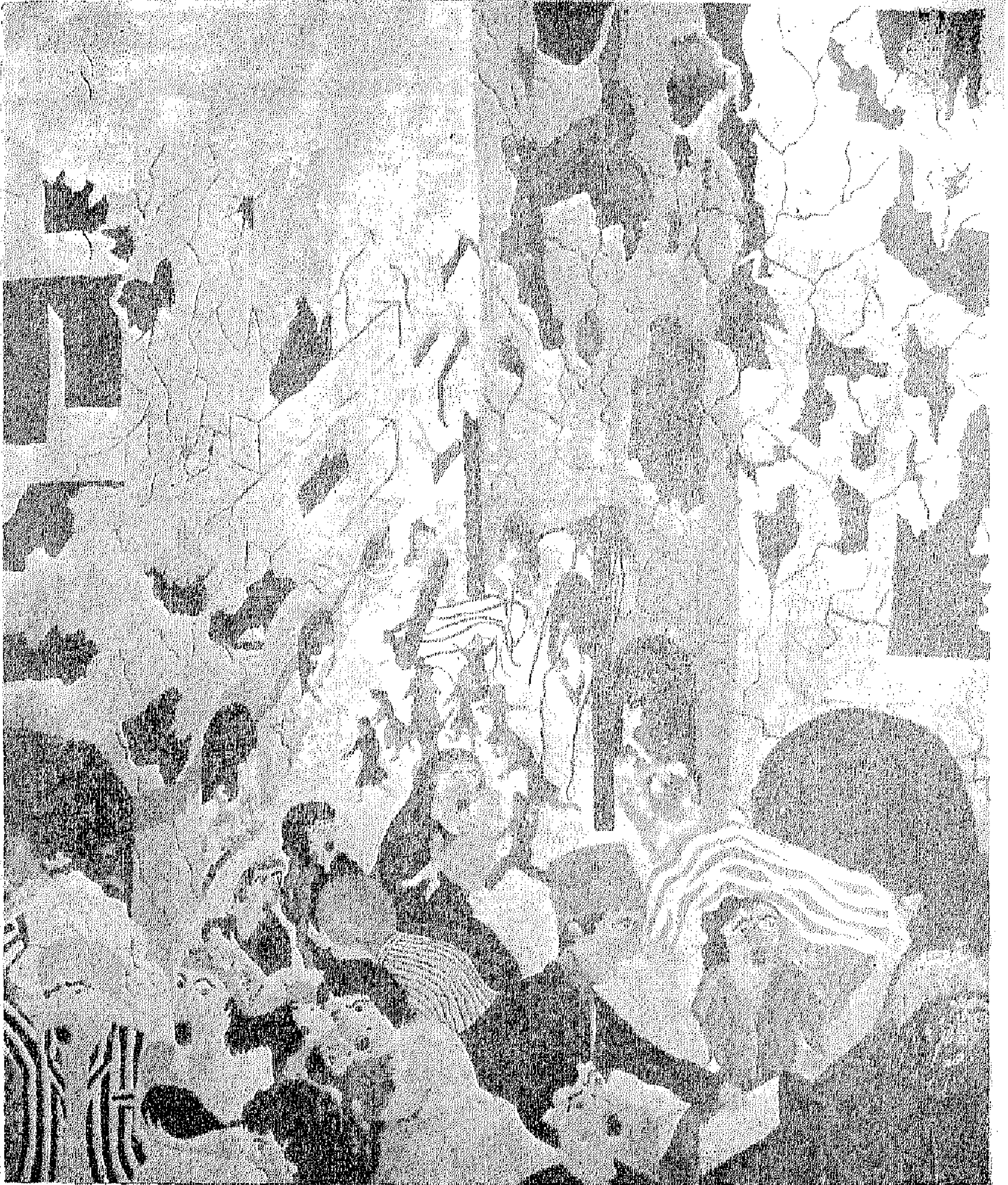
إلا أنها فى معركة بور سعيد قد لعبت دورها بسرعة ومهارة وجند الفنانون التشكيليون مواهبهم وملكاتهم وأوقاتهم وفى مقدمتهم الرسامون الذين أخذوا يرسمون لوحات ضخمة لعرضها فى الأماكن العامة القصد منها تهيئة النفوس للمعركة ودفع المواطنين إلى البذل والصمود ورفع الروح المعنوية العامة .

ولم يكد المعتدون ينسحبون من ميدان المعركة يجررون أذيال الفشل حتى سارع الفنانون إلى إقامة معرض عظيم لعرض اللوحات الوطنية التى استوحوها من جو المعركة ، وكان طريفا أن يقام المعرض فى محطة السكة الحديد بمدينة بورسعيد وقد صادف هذا المعرض نجاحا باهرا وتقديرا طيبا و إقبالا شديدا من المواطنين البورسعيديين والزائرين الذين كانوا يحجون إلى ميدان المعركة من جميع أنحاء الوطن العربى . ولقد اشترك فى هذا المعرض سبعة وأربعون فنانا وفنانة عرضوا فيه الكثير من اللوحات القيمة الثمينة .

ولم يكد الفنانون ينتهون من معرضهم هذا الذى أشرنا إليه فى الأسبوع الأول من يناير سنة ١٩٤٨ أى بعد نهاية المعركة بأيام حتى أخذوا يستعدون لمعرض أكبر وأضخم أطلقوا عليه « معرض الربيع الخامس لسنة ١٩٥٧ » نسقه وأشرف على إعداده اتحاد خريجى كلية الفنون الجميلة .

ولقد كان هذا المعرض بمثابة مهرجان فنى ظهر فيه الكثير من المذاهب والاتجاهات كما أتاح الفرصة لعدد غير قليل من الفنانين الناشئين لكى يعرضوا أعمالهم الباهرة التى تبشر بخير عظيم .

ولقد عرض فى هذا المهرجان مائتان وست وأربعون لوحة كان من بينها حوالى سبعين لوحة كلها من وحى معركة التحرير فى بور سعيد كانت جميعها



« دماء وفزع » للتلميذة فاطمة محمد بربور

تلتزم العمق فى التعبير والقوة فى الهدف والدقة فى اللمسات ولعل مما يسترعى نظر الفنان الذواقة لوحة « تعمير » لمحمد حامد عويس ولوحة أخرى بهذا الاسم لعبد الهادى الجزار ولوحة « إيدن مات » لأسعد مظهر ولوحة « آثار العدوان » « لأبو صالح الألفى » ولوحة « من مواقف البطولة » لخيرى أسعد وهكذا لا يملك الإنسان إلا أن يقف غارقا فى تأملاته لفترات طويلة أمام كثير من الأعمال الفنية التى عرضت فى هذا المعرض .

على أن الانفعال الفنى بالمعركة لم يكن موقوفا على الفنانين الكبار وحدهم بل إن فنا رائعا ساحرا أخاذا لعب دوره بأنامل الفنانين الأطفال من أبناء بورسعيد نفسها ، هؤلاء الأطفال الأبرياء من تلاميذ مدارس المدينة الذين شاهدوا المعركة بأهوالها ، بدمائها وشهدائها ونيرانها وتدميرها ودخانها وغرقاها والألوان الوحشية من الاعتداء الهمجى كالذى وقع على رجال الإسعاف والإطفاء والأطفال الرضع ، بل الاعتداء على حرمات المقابر والموتى ، كما أنهم شاهدوا فى نفس الوقت بطولات رائعة سجلوها لأبناء مدينتهم من أفراد المقاومة الشعبية وهم يقتلون جنود المظلات وهم معلقون بين السماء والأرض ، إلى غير ذلك من المناظر المؤلمة المفجعة الرهيبة المفزعة أو المناظر البطولية الرائعة المشرفة الخالدة .

رأى الأطفال كل ذلك وتأثروا به تأثرا مباشراً و بدأت الانطباعات تزحف من مخيلاتهم إلى أسنان الفرشاة مسطرة فى شكل لوحات رائعة على الأوراق ، غير أن الأمر كان يحتاج إلى توجيه و إشراف واستغلال لأغوار المواهب واستخراج كوامنها ، فقام بهذه المهمة الفنان محمد لبيب ولازم هؤلاء التلاميذ والتلميذات حتى أخرجوا أكثر من ستين لوحة تفيض بالحيوية وتكاد تنطق بالتعبير .

وكان طبيعياً أن ينتظم أعمال هؤلاء الفنانين الصغار معرض ينبه إلى العمل الكبير الذى قاموا به و إلى الانفعالات الصادقة التى عبروا عنها و إلى المعركة الكبرى التى كانت وحياً وملهما ومصدراً لهذه اللوحات الباهرة .

وأقيم المعرض فى الإقليم المصرى ثم عرض بعد ذلك فى النمسا فلقى من أسباب النجاح أكثر مما توقع له وبدأت الدوائر الإنجليزية والأمريكية تحاربه وتحتج على حكومة النمسا لسماحها بعرض مثل هذه اللوحات، ولكن فى نفس الوقت بدأت شركات التليفزيون الأمريكية والإنجليزية تختلس صور بعض اللوحات لعرضها على مواطنيها كأعمال فنية رائعة الأداء باهرة التعبير لبراعم الفن الصغار .

ولم يلبث المعرض أن طبقت شهرته آفاق أوروبا فبدأت دول الغرب تحاربه بعنف فاتجه شرقا إلى المجر حيث عرض بنجاح لفترة طويلة ومنها إلى يوجوسلافيا ثم بلغاريا ورومانيا وسوف يتخذ طريقه بعد ذلك إلى اليونان و إيطاليا .

ومن الطريف أن بعض الدول التى قد عرضت فيها هذه اللوحات قد بدأت تطالب بإعادة عرضها من جديد بعد أن استفاضت صحفها الفنية بمقالات الفنانين والنقاد حول الطاقات الفنية والملكات المبكرة التى ظهرت فى هؤلاء الفنانين الصغار من أطفال بور سعيد .

ولعل لكل لوحة من لوحات معرض بور سعيد لمحات خاصة بها تلفت النظر إليها وتجذب التأملات الطويلة إلى ما ضمت من لمسات بارعة وخصوصا تلك اللوحات التى رسمتها بنات صغار لم تتعد الواحدة منهن تسع سنوات فى بعض الأحيان.

ومن اللوحات التى تلفت النظر بشدة تلك التى رسمتها التلميذة ليلى الجراحى (١٤ سنة) وتمثل العملية الوحشية التى أقدم عليها المعتدون حينما هاجموا الزوارق



المعتدون يغرقون المهاجرين فى بحيرة المنزله
للتلميذة ليلى الجراحى

الصغيرة التى كانت تحمل النساء والأطفال فى بحيرة المنزلة وهن فى طريقهن إلى المهاجر ، إن اللوحة تصور الزوارق وقد غاصت فى الماء وجماعات من النساء والأطفال وهن بسبيل الغرق فى البحيرة ، كما تصور مجموعة أخرى من القتلى على الشاطىء .

ولوحة أخرى رسمتها التلميذة سميحة محمد (١٣ سنة) تمثل اعتداء الإنجليز على المقابر غير عابئين بحرمة الموتى ، فلقد حطم الإنجليز المقابر ونبشوها وأخرجوا جثث الموتى وعظامهم وبعثروها لا لشىء إلا للانتقام وللثأر للهزيمة النكراء التى حلت بهم فى موقعة الجبانة يوم المظلات ، لعل الطفلة قد رأت مقبرة أهلها وقد نبشها المعتدون فصورت هـذه الظاهرة الوحشية التى رسبت فى أعماقها ونقلتها رسما على صفحات الورق .

ومن الأعمال الكبيرة التى عرضت فى معرض أطفال بور سعيد لوحة « دمار وفزع » التى قدمتها فاطمة محمد بربور التلميذة بمدرسة بور سعيد الثانوية، وتمثل اللوحة الدمار الذى حل بالبيوت وآثار القنابل فى الجدران ، كما تمثل المواطنين من العجائز والنساء والأطفـــال وقد ارتسمت ملامح الفزع على وجوههم وحركاتهم فى قوة وعنف .

والشىء الذى يدعو إلى الإعجاب بهؤلاء الفنانين الصغار أن التلميذة الواحدة كانت تقدم أكثر من لوحة بل إن الفنانة الصغيرة هدى عثمان البانى (١٣ سنة) قدمت فى المعرض عشر لوحات من رسمها ، وهنا تظهر الخصوبة الفنية والموهبة المبكرة التى تبشر لهؤلاء الفنانين الصغار بمستقبل فنى عظيم .

على أن هناك بعض الفنانين الـكبار الذين انفعلوا بالمعركة كل الانفعال ولـكنهم تهيبوا الموقف ولم يسارعوا إلى التعبير عن انفعالاتهم بل اختزنوها حتى تواتيهم

لحظات من الإشراق النفسى فتدفع بهم إلى تسجيل الفكرة التى تمخضت عنها التجربة الطويلة التى عاشوها .

ولعل من بين هؤلاء الذين أشرنا إليهم الفنان «حامد سعيد» الذى أنشأ لوحة كبيرة (٣ × ١½ متر) استوحى موضوعها من أصداء المعركة وانفعالاتها، واللوحة تمثل أمًّا تحمل طفلا وقد أحاطت بها من فوق ومن تحت أعاصير الموقف والجو الحربى والتعبير المستمر من ألم وأمل وثبات ونورانية مع منتهى الصلابة الأثيرية .

والواقع أن هذا العمل الذى قام به الفنان حامد سعيد يعتبر من الأعمال الفنية الكبيرة وهو من أجل ذلك يلزم جانب التأنى والتأنق فى لوحته التى استمر العمل فيها شهوراً طويلة ولا زالت بعد فى دور « التشطيب » ولن تخرج إلى النور قبل أن تنضج ألوانها وتكتمل لمساتها وتنطق تعابيرها بما يتفق وانفعال الفنان بالمعركة.

وهكذا نجد أن الرسم قد لعب دوره فى المعركة بمهارة وأن الفنانين الرسامين قد استجابوا للمعركة وأهدافها بسرعة ونجاح أضافا لوحات جديدة إلى ثروتنا الفنية الجديرة بالخلود .

فإذا انتقلنا إلى النحت وجدناه يتخلف بعض الشيء عن الرسم ، وليس معنى ذلك أن المثالين قد تقاعسوا عن خوض المعركة أو أن أحاسيسهم كانت أقل انفعالا أو أضيق تجاوباً ، ولكن للقضية تفسير آخر لعله يكمن فى طبيعة فن النحت الذى يحتاج إلى استعدادات خاصة ، يحتاج إلى مكان تتم فيه عملية النحت وهو أمر غير ميسور لكل فنان ، ويحتاج أيضاً إلى وقت طويل حتى تظهر اللمسات الفنية على جانب من المهارة ترضى المثال والمشاهد ، وهى بعد ذلك كله تحتاج إلى خامات وأدوات لعل استعمالها أشق من أدوات الرسم ، فليس ثمت شك



« اعتداء على المقابر » للتلميذة سميحة محمد

أن هناك فرقا كبيراً بين الأزميل و بين الفرشاة ، وفرقاً كبيراً أيضاً بين الألوان التى هى خامة اللوحة و بين الحجر الذى هو خامة التمثال .

ومن هنا كان الإنتاج الفنى من التماثيل أقل عدداً منه فى اللوحات ، وأما من ناحية المعايير النقدية لكل من الإنتاجين فليس للقلة أو الكثرة أى تأثير فى الحكم على الأثر الفنى .

ولكن و بالرغم من تلك الظروف الصعبة التى تصاحب عمل المثال فإن المثالين لم يتخلفوا عن الانفعال بالمعركة بل تأثروا بها وأوحت إليهم موضوعات رائعة ففى معرض الربيع الذى أقامه اتحاد خريجى كلية الفنون الجميلة فى شهر مايو سنة ١٩٥٧ والذى أشرنا إلى بعض لوحاته شارك المثالون باثنين وثلاثين تمثالا من الحجر والخزف والنحاس المضغوط ، كان من بينها عشرة تماثيل تمثل المعركة أو من وحيها القريب، ولعلها كانت أكثر التماثيل التى عرضت نجاحاً ، ومن بين هذه التماثيل « الزحف المقدس — خزف » لحسن حشمت و « بور سعيد — نحاس مضغوط » لزكريا إسحق و « أم الشهيد — نحت » لصمويل هنرى ، وهو من التماثيل الفريدة فى تعبيرها، فأم الشهيد تحمل ابنها الشهيد على حجرها وقد ظهرت الآلام العميقة على قسمات وجهها لمصيبها فى فقد فلذة كبدها،ولكن المتأمل يستشف صبراً و إيماناً منبعثين من خلال آلام الحزن لعلهما الصبر والإيمان اللذان يقودان إلى شاطىء النصر والسلام .

ومن المواهب الفنية التى استجابت للمعركة فى ميدان النحت تمثال «بور سعيد» الذى قدمه المثال الفنان عبد الحميد حمدى وهو يمثل المدينة فى شكل ملاك ذى جناحين منتشرين فى الفضاء وقد التف حولها أبناء الوطن العربى جميعاً بأزيائهم

الوطنية والعسكرية وهم جميعاً مساحون يحيطون بها ويحمونها ويذودون عنها بالمدافع والبنادق والسلاح .

وعمل فنى آخر قدمه المثال الفنان جمال السجينى يصور فيه جنود المظلات معلقين فى سماء بور سعيد والمقاومة الشعبية ترسل عليهم الحمم لكى تحصدهم وتفنيهم قبل وصولهم إلى الأرض ذوداً عن حياض الوطن الذى افتدته بور سعيد .

وإذا كان الرسم والنحت قد ساهما فى المعركة فإن السينما لم تتخلف هى الأخرى عن المشاركة فلقد قامت بعثة الفنانين من رجال مصلحة الفنون بعمل بطولى انتحارى حينما صوروا شريطاً سينمائياً للمعركة ظهرت فيها المدينة وهى تحترق والبيوت وهى تدك بالقنابل فتتهدم على ساكنيها الآمنين وبدت المدينة الباسلة للناظرين وكأنها قطعة من جهنم .

كما أن بعض الفنانين السينمائيين قد شاركوا فنيا فى المعركة فأنتجوا بعض الأفلام التى تحمل شعارها وتروى بعض أحداثها ومآسيها .

والخلاصة أن الفنون جميعها قد شاركت فى هذه المعركة الكبرى بنصيب موفور ، وإذا كانت المنافع كثيراً ما تأتى من ثنايا المصائب فإن الفنون قد أصابت خيراً كثيراً وتطورا طيباً واكتسبت أفكارا جديدة وإنتاجاً مصقولا يمكن أن يضاف إلى تراثنا الفنى الثمين ، ورب ضارة نافعة .



تمثال « أم الشهيد » لصمويل هنرى

تصويبات

نرجو من القارىء الكريم أن يتفضل مشكورا بعمل هذه التصويبات قبل أن يبدأ فى قراءة الكتاب ، ونعتذر له عن مثل هذه الأخطاء التى لم يكن سبيل إلى تداركها أثناء الطبع

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٠	بسنة	بست
٥	١٢	عشرة	عشر
٦	٤ من أسفل	مليون	مليونا
٣٥	٣	المكتنز	المكتنز
٤١	٢ من أسفل	االسياسى	السياسى
٥١	الأول	أن	من أن
٥٧	١١	جواهرلاى	جواهر لال
٥٨	٣ من أسفل	شهور	شهورا
٦٢	٢	يعتبره	تعتبره
٦٥	٣	حياه	حياة
٦٥	٧	الوقع	الواقع
٦٥	١٠	وأنانيتها	وأنانيتها
٧٦	الأول	اسروسية	الروسية
٩٧	١٢	كات	كانت
٩٨	٢ من أسفل	عجيب	عجب
١٠٤	٤	يسترعى	يستدعى
١٠٥	الأخير	للغزب	للغرب
١١٠	٩	عثل	يحتل
١٥٢	الأول	باللغة العربية	بلغة عربية
		الركيكة	ركيكة
١٦٣	١٣	لإبلاغ	لإحاطة
١٧٠	١٠	محمد	محمود
٢١٠	١٢	ويصبج	ويصبح
٢١٣	٩	تزكزت	تركزت
٢٣٦	٢ من أسفل	سحن	شحن
٢٥٨	٤ من أسفل	التى	الذى
٢٦٠	٥	طبيعته	نتيجته
٢٨٥	٩	إنه حماسا	حماسا

يطلب من المؤلفين — ٧ شارع عكاشة بالدقى

تليفون ٨٠٦٦٧٤ القاهرة

٥٠٢ بور سعيد

الثمن ٢٥ قرشا

مطبعة لجنة البيان العربى